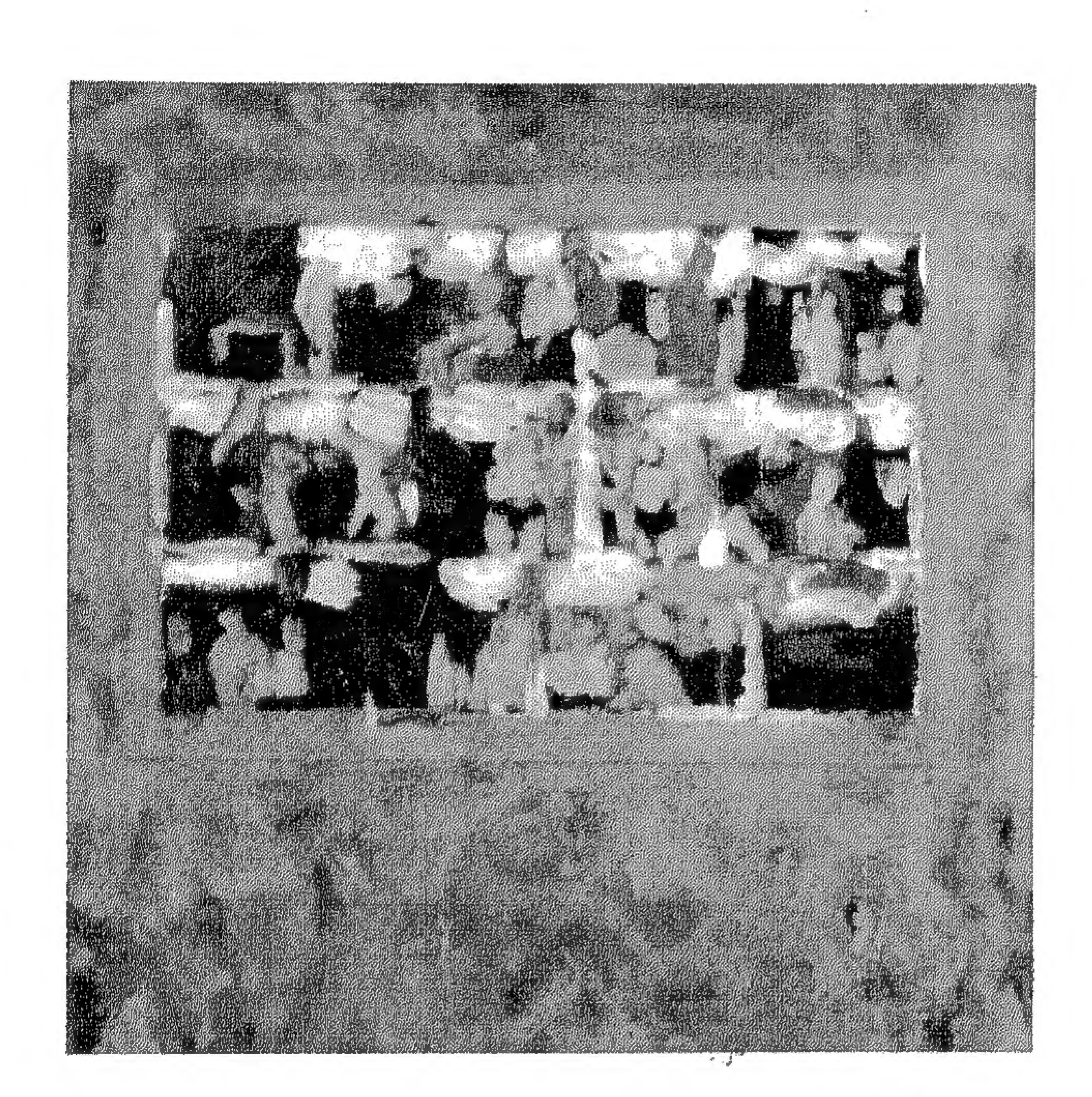




الحياة على الطريق الروماني القديم

رِواية أرمنيّة

ترجمة

الدكتور بوغوص سراجيان

روايات عالمية « ٦٨ »

الإشراف الفني زهير الحمو

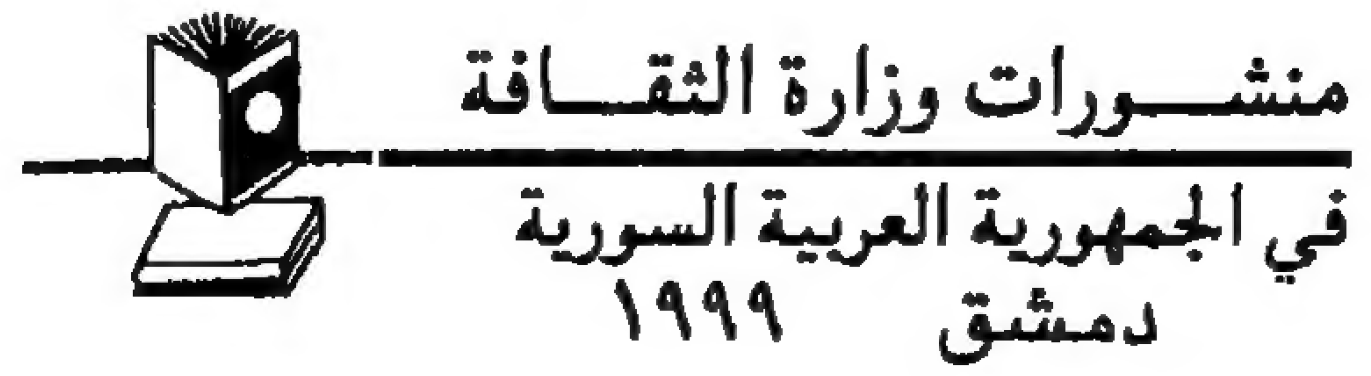
الحياة على الطريق الروماني القديم

واهان توتوفينتس

الحياة على الطريق الروماني القديم

رِوَايةٌ أرمِنيّة

ترجمة
الدكتور بوغوص سراجيان



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٩

الحياة على الطريق الروماني القديم : رواية أرمنية/ واهان توتوفينتس ؛
ترجمة بوغوص سراجيان . - دمشق : وزارة الثقافة، ١٩٩٩ . -
٢٤٨ص؛ ٢٤سم . - (روايات عالمية؛ ٦٨)

١- ٨٩١ ت و ت ح ٢- العنوان ٣- توتوفينتس
٤- سراجيان ٥- السلسلة مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع - ٥٤٧ / ٤ / ١٩٩٩

روايات عالمية
«٦٨»

واهـــان توتوفينتس

١٨٩٤-١٩٣٨

ولد في بلدة مزرعة التابعة لقضاء خاربرت في ارمينيا الغربية،

١٩٠٧ أنهى تعليمه الثانوي في المدرسة المركزية الخاصة في خاربرت،

١٩٠٩ سافر إلى باريس ثم نيويورك،

١٩١٢ أنهى دراسته في جامعة ويكانسن بأمريكا،

١٩١٧-١٩١٨ شغل منصب رئيس تحرير صحيفة " هايستان" اليومية التي كـانت تصدر في تفليس،

١٩٢٠ سافر إلى أمريكا ثم عاد إلى يريفان عام ١٩٢٢،

١٩٢٤-١٩٢٦ عمل محاضرا في جامعـة يريفـان، وفـي هيئـة تحريـر صحيفـة " أرمينيا السوفياتية"،

انتهت مسيرته الحياتية المأسوية بالحكم عليه بالاعدام سنة ١٩٣٨ من قبل المحاكم الستالينية، التي اتهمته بالعداء للسلطة السوفييتية،

أعماله :

١٩١٦ " عمتي " رواية قصيرة،

١٩١٧ "دونو " رواية قصيرة،

١٩١٧ "رثاء الخلود "قصيدة ، ١٩١٨ " الشرق "قصيدة،

١٩١٨ " الدكتور بوربونيان "مسرحية ساخرة،

١٩٢٢ "في العاصفة " رواية،

١٩٢٣ أسس المجلة الشهرية الساخرة " الشدّة "،

١٩٢٣ "كتيبة الموت "مسرحية.

١٩٢٤ "طعام الفولاذ "مسرحية.

١٩٢٥ "بيزنطة الجديدة "مسرحية. "أبطال صاصون "مسرحية.

١٩٢٧ "الحريق "مسرحية. "نيويورك "رواية قصيرة.

١٩٢٩ "نيويورك كرومر "بالاشتراك مع جوباريان رواية قصيرة، "أميركا "مجموعة قصص قصيرة.

١٩٢٩ "أصادور و كليوبترة "قصص قصيرة.

١٩٣٠ "سَيفان "مسرحية. "الكسندر شيرفانزاده "دراسة أدبية.

١٩٣٠ "الحياة على الطريق الروماني القديم "رواية.

١٩٣١ "اوهانيس طومانيان "دراسة أدبية.

١٩٣٢ "باكو – لندن "مسرحية،

١٩٣٤ "الحمائم "قصص قصيرة، "أوراق محروقة "رواية قصيرة، "جوناثان بن إرميا "رواية قصيرة.

١٩٣٠–١٩٣٤ "باكو "رواية من ثلاثة أجزاء.

١٩٣٥ "زهور لازوردية "قصص قصيرة.

١٩٣٦ "كومة رماد "مسرحية.

– نقل إلى الأرمنية "ريتشارد الثالث "و "انطونيو و كليوبطرة "لشكسبير .

– ترجمت أعماله إلى الروسية عام ١٩٣٦ و إلى الانكليزية عام ١٩٧١ .

– ترجم الدكتور المستشرق الدبلوماسي بوغوص سراجيان مختارات من أعماله إلى العربية بعنوان "قصص مختارة أرمنية "، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ، ١٩٩٧ . بالاضافة إلى قصتيّ "أنشودة امرأة عربية "و "أصادور وكليوبطرة " ضمن كتاب يحمل عنوان "قصة امرأة عربية "، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٣ .

قالوا في الكاتب

" ومع كرّ الأيام ازددت حبا و تقديرا للكاتب واهان توتوفينتس، الذي جسّد بحياته الحقيقة الخالدة، إذ عاش كالأسطورة و انتهت حياته بالمأساة الفاجعة "

الكاتب الأرمني الأميركي

وليم ساروبان

" توتوفينتس انسان بسيط و صريح جدا، فقلبه على لسانه - كما يقولون . انه كاتب عبقري وروايته " الحياة على الطريق الروماني القديم " من الأعمال الأدبية الخالدة . أشعر بألم عميق جدا لغيابه المأسوي الذي لا يعوّض . انه انسان وطني جدا جدا . هام حتى الجنون بحبه للشعب الأرمني و تراثه الحضاري ".

الشاعر الأديب الأرمني

أفيديك اسحاقيان

" توتوفينتس من أعظم رواد نهضتنا القومية و الثقافية و الأدبية و الفنية . انه خطيب عصرنا المصقع، مجنح الروح و الخيال، ثابت القلب و الجنان . لم ير - للأسف - انتصار الفكر الذي آمن وبشّر به وعمل لأجله طوال حياته القصيرة . كانت وفاته مأساة دامية على درب العصر الذي حلم به.

واهان شاعر . وهو لا يفهم لغة الطبيعة و حسب، بل ويتكلم بها. وليس عجبا أبدا ألاّ يفهمه إلا القليلون . ذلك اللسان الناطق من أعماق العصور، والمفسّر لماهية تلك الدهور . واهان صاحب تلك الروح العظيمة الثراء و السمو، كان مقدرا له أن يكون – وهكذا كان – عصيا على أفهام الذين أعمت أبصارهم مآسي الماضي، وعلى ادراك الجماهير التي انبهرت من شعاع الشمس العظيم؛ لأن نور الشمس الباهر – كالكلام الحالك السواد – يعمي بصائر أشباه الناس ".

الفنان وهرام بابازيان

وفي تقييمه لمجموعة قصص واهان توتوفينتس الصادرة عن وزارة الثقافة بدمشق يقول الأديب السوري صبحي سعد: " هذه المجموعة المتميزة التي تعبر عن احساس مرهف بقضايا الناس وهمومهم .. يتغنى فيها الكاتب توتوفينتس بالحب و القيم الانسانية الرفيعة التي نسعى دائما الى توطيدها في قلوب و أرواح الناس . ولا شك أن الكاتب هو أديب يعبر عن روح انسانية وفكر نقي يدرك معنى الحياة وجوهرها .. ويعشق اولئك الناس البسطاء الأنقياء الذين يمثلون بالنسبة اليه كنز القيم البشرية وقلبها النابض الذي يجب أن نحيطه بكل ما نملك من قوة و نرعاه كي تستمر حياتنا في مسيرتها البشرية و طبيعتها النقية وجوهرها و قيمها الرفيعة"

الأديب السوري صبحي سعد

هــذه الروايــة

الدكتور بوغوص سراجيان

صدرت رواية " الحياة على الطريق الروماني القديم "سنة ١٩٣٠ . كان الكاتب الأرمني قد قطع شوطا طويلا في الأدب وله رصيد كبير في مجال الابداع الفني . لكن هذه الرواية شكلت نوعية جديدة في نتاج الكاتب. وقد تجلت هذه النوعية بشكل خاص في المقدرة الأدبية والتعبير الفني الرائع و الفريد. ففي هذه الرواية توصل توتوفينتس إلى الأسلوب الفني المكثف و الانشاء الرفيع. فاذا كان في جملة من مؤلفاته السابقة ميالا إلى الخطابة و إستخدام الوعظ و الارشاد بدلا من الكلمة الحيّة و الصورة المعبرة الصادقة، فانه في هذه الرواية يبتعد تماما عن عناصر الخطاب الناقلة.

أثارت هذه الرواية اهتمام القارئ و تركت أثرا اجتماعيا عظيما. فاسلوب الكاتب المميز والفريد، فضلا عن حيوية القضايا التي عالجها في رواية " الحياة على الطريق الروماني القديم " أدخلته ميدان الشهرة من أوسع أبوابها.

كان توتوفينتس شاهد عيان للأحداث التي عايشها أفراحا و أتراحا، و داعبت خياله طويلا، ودغدغت وجدانه بحرارة. إن حبه العميق للوطن الذي تحول إلى مجرد ذكرى و رؤيا، أيقظ في نفسه ذكريات الأهل والأحباء والأقارب، فضلا عن المصير الممزوج بلعنة القدر، مما دفعه إلى الشرود الوجداني و التأملي. هذه السياحات العاطفية أضفت ألوانا أكثر سطوعا على الواقع المصوَّر، و كثّفت محبة

و كراهية الكاتب لما طرحه من قضايا و مواضيع٠ هذه السياحات اتسمت بطابع رومانسي واضح٠ فهي عبارة عن نبضات قلب متوجع امتزجت طبعا بدموع الكاتب الحرقى٠ فكل حادثة و ذكرى ينبشها الكاتب من تحت الأنقاض و الرماد، يجد تحتها جمرات من النار التي تحرق روحه و تجعلها سببا للزيغان العاطفي و التلـوّن الرومانسي٠

هذه الظاهرة أثارت سوء الفهم لدى البعض، الذي لم يتعمق في فهم الواقع المصورّ وفي ادراك حقيقة مراميه و مقاصده و مضامينه، بل حكم عليه من خلال طابعها الرومانسي، فأدان توتوفينتس بأنه قد مجّد الماضي باعتباره المثل الأعلى، أي من أنصار القادومية٠ وهولاء النقاد إذ يبصرون دموع الكاتب البريئة، لم يكلفوا أنفسهم عناء السؤوال عن ذرف تلك العبرات ٠ ترى هل هو حقا مجرد الحنين إلى الماضي ؟ هل هي الرغبة العميقة في استعادته ؟ أم هي من مرارة و آلام و أحزان ذاك الواقع " المثالي " ؟

لاشك أن السؤال الأخير كان الدافع الأساسي لدموع الكاتب، فضلا عن مشاعر الحزن و الأسى لفقدانه أهله و ذويه الأقربين٠ ولكن متى كان استذكار الأهل بشوق و حنين، والبكاء لأجلهم يعني الوقوع في أحضان " المثالية " المزعومة؟ ٠ ترى هل لمثل هذه الأسباب تجب تسمية توتوفينتس بأنه كان يرثي أمجاد الأجداد؟ وإذا كان الأمر كذلك- وهو غير ذلك بالطبع - ، فأين هو التقييم الموضوعي الحق للابداع الفني ؟!

فالحياة ومصائر الناس ليست متشابهة ولا متجانسة أبدا على " الطريق الروماني القديم "٠ إن انعكاس الوضع الاجتماعي و الاقتصادي للشعب في أرمينية الغربية (حاليا تحت الحكم التركي) قد تجلى عبر خطوط عريضة في الرواية٠ فالمناظر التي تثير الخوف و الذعر، والرهبة و الرعشة تتلو بعضها البعض،

ويبلور الكاتب لنا من خلالها تناقضات ذاك الزمان، والتناحرات الاجتماعية والطبقية في الريف. بيد أن النقد الاجتماعوي المبتذل في العهد السوفييتي، غضّ الطرف عن الحقيقة حين لم يأخذ بالحسبان قط الظروف الخاصة و السمات المميزة للعمل الفني. ولقد وصل الصلف بأحد النقاد إلى القول : "لقد مجّد تونوفينتس ذلك الماضي، ولا سيما الوسط الاقطاعي، مضفيا عليه طابع الحنين و الشوق و الحزن على فقدانه وضياعه ".

هذا ما قيل عن عملٍ كل كلمة فيه تجسيد حيّ للشكوى و المرارة من عادات و تقاليد الماضي البالية و اللاإنسانية، التي داست بالأقدام الفضائل الاجتماعية والعرقية، إنها إدانة كاملة للغرائز و الشهوات البهيمية التي لا تعرف المكان والزمان. فالكاتب يقدم لنا أمثلة من أسرته للبرهنة على استثمار الانسان العامل، واهانة كرامته، والاجحاف بحقه (إدانته لموقف أخيه الكبير ليفون في تعامله مع الخادم كوكو – ص ٥٢).

الناس هم الأسطع بريقا في عقد الدر، إذ ارتبط بهم الكاتب بمشاعر الحب و الحنين، بكامل جوهره وذاكرته ككاتب أرمني. لقد تجسدت فكرة محورية الانسان في الأم الحاضرة – خلافا للآخرين – في الكثير من لوحات الرواية، أما نفسها و روحها ففي كل موضع من الرواية.

فالأم هي الأكثر مسيحية بعد المسيح، تعيش على الوصايا الربانية، تفعل الخير للناس، تعمل ليل نهار وتصلي بخشوع و فداء. وميزة الأم هي الدموع والحب و الفرح. فهي لا تعفي لأنها لا تدين الناس. ممتلئة بالحب الطبيعي و الأسروي إزاء زوجها، وتحب حتى أخطائه المتمثلة في الخيانة الزوجية إذ كانت له عشيقة في اسطنبول، فتقول: "ليته كان حيا و أحب ألف امرأة ". (ص٣٣). فهي بفضل "حبها الكبير "قد توصلت إلى "راحة النفس اللامحدودة ".

كان توتوفينتس ينظر إلى أمه من عمق السنين، وانطلاقا من فكر كبار رسامي النهضة الاوروبية، ولا سيما دافنتشي، حين صوروا العذراء بعيون زرقاء كئيبة ، فهي أم و امرأة، إحداهما في حضن الأخرى، إحداهما جوهر الأخرى، إحداهما روح الأخرى، كانت طاهرة مثل الطبيعة، شابة مملوءة بالعافية والجاذبية، جميلة و لغز ، شبهها توتوفينتس بشجرة السرو الدائمة الخضرة، كانت شجرة ذهبية نمت في حقل السماء الأزرق "و كانت تتكلم "من خلال ناي الشمس الياقوتي "، لكنه كان يولي اهتماما أكبر لمفاهيم سامية كالأمومة و الولادة ، باعتبارها ينبوع الحياة السحري، كانت أما لسبعة أولاد، ولكنها أرضعت الأطفال الآخرين من حليبها المدرار ،

واليكم هذه اللوحة التعبيرية العظيمة التي رسمها لنا الكاتب حين قال: " كنت أتابع الرضاعة وأنا في الثالثة أو الرابعة من عمري ،، أتذكر نهديها الأبيضين النقيين العبقين، وحلمتيها السمراويتين الممتلئتين بالحياة،، كنت أشتم عبق الورد من حليب أمي " ص(٣٦).

وفي لوحة أخرى : "كم لعبت في حضن أمي و حاولت الطيران كثيرا حتى تعبت، تعلقت بجيدها حتى انحدر رأسي تدريجيا إلى نهديها فلمست شفتاي حلمتيها الدافئتين، ولم أفتح عيني إلا في الصباح، يالها من شمس ! أمي نائمة وصدرها مفتوح، نهضت مقتربا منه ودفنت رأسي في صدرها، ضمتني اليها بقوة دون أن تفتح عينيها " (ص٣٦).

نجد في هذه اللوحة المركبة مشاعر جمالية تشير إلى خمسة منها:

(ا) طفل يلعب على صدر أمه،

(ب) الأم المرضعة،

(ج) الطفل – الأم – الشمس،

(د) أم نائمة بصدر مكشوف.

(هـ)أم تضم وليدها إلى صدرها وعيونها مغلقة.

مما لا شك فيه أن لشخصية الأم عناصر حقيقية وهي التي تجسد الموقف الشخصي الحميمي و الحار للكاتب ازاء الأم و أبطاله الآخرين، مما يضفي غنائية مميزة على الرواية. إلا أن توتوفينتس يخرج عن اطار التوثيق المحض وصولا إلى الحدسيات، وأسرار الحياة و الطبيعة، والجماليات ، وإلى ثقافته الفكرية ليوصلنا إلى مستوى من التصور العام لظاهرة الأم- المرأة التي هي خارج نطاق الزمان و المكان.

حقا أن مرغريت هي أم الكاتب، ينبوع حياته و وجوده، ولكنه أسمى من ذلك بكثير . هي رمز المرأة و الأمومة. فقوى الطبيعة تتحرك في داخل مرغريت التي حبلت سبع مرات، وكأن ذلك لم يكن في صدر زوجها التي ترتبط به بحرارة حب الطاعة، بل في أحضان الطبيعة، التي هي بالذات و الماء و الشمس جزء منها، حيث تكون الولادة إحدى أعجوبات الطبيعة.

الأم هي محور الرواية الرئيسي. فهي سر الأمومة و الولادة و مصدر الحياة، وهي التي تجدد العالم و الانسان و الطبيعة. "فهي سعيدة بامومتها، والبلاد تعيش و تزدهر و تتكاثر على الطريق الروماني القديم مغمورة ببركة نهر الفرات الالهي .. وستعيش أبدا ... "

ففي لوحات عباقرة الفن التشكيلي نرى أم الرب تبتسم لطفلها المتكئ على صدرها، والذي يبتسم لها أيضا. فهما يتحادثان معا بلغة ناعمة جدا يستحيل تفسيرها، ولكنها لغة الابتسامة النابعة من أعماق الروح. هذه هي العلاقة في الرواية بين الأم- التي هي العذراء- وطفلها المزهر . وهما لا يبتسمان لكليهما وحدهما، بل وللعالم و الطبيعة و الحياة.

تحتل شخصية الأب القوية الصارمة مكانة بارزة في الروايه. فهو يعامل الزوجة - رغم أن له عشيقة في اسطنبول - والأولاد برقة وعطف، وحب وحنان يجسد مسؤوليات رب العائلة الأرمني تجاه أسرته. وهو كشخوصه الأخرى، يمتاز بالشخصانية، وبخطوط و ألوان لا تتكرر في غيرها، وهو ليس شخصا عاديا، وانما ذا طبع خاص. فهو قد استعد ليوم وفاته - كمايستعد العريس ليوم عرسه. فقد أوصى النجار بصنع تابوت له من خشب الجوز "دون أن يدق فيه مسمارا واحدا" (ص٣٧). لقد جهز نفسه للموت وكأنه لن يفني ويصبح ترابا و غبارا، بل سيسافر إلى عالم آخر، حيث يتجسد في صورة جديدة، ويصبح انسانا جديدا بفعل قوة الطبيعة. وبعد أعوام، وفي ختام الرواية، يتقمص في شجرة التوت المزروعة فوق رأسه، "فيغني بصوت أوراقها، ويضم بأغصانها ابنه توتوفينتس ويرتقي به إلى السماء اللازوردية". هذه اللوحة تعبر عن أغنية : "يا لها من أغنية أبدية، حياة أبدية، موت أبدي، حزن لا نهاية له، وفرح لاحدّ له".

صور لنا توتوفينتس من خلال لعبة الألوان، وعبر مشاعره البالغة في الرقة، مراحل حب الطفولة والصبا التي مرّ بها. فيصفهن بقوله :"كريستين" - " نجمة وقعت من السماء وكبرت "وهي " قد جمعت عبير شعرها من كل كؤوس أزهار الحديقة "(ص٨٣). بينما الفتاة التركية "صنين "فكانت "تكركر كما هي كركرة جدول أزرق سائل من السماء "و هي "زهرة آكاسيا يفوح أريجها مع نسائم ليلة ربيعية (ص١٦٥).وقد اكتشف الكاتب في طفولته من خلال صنين " جمال الجسد العاري، اكتشف معنى الرعشة و الطيب "، مثال الأنثى السامية، فتطفح مشاعره و روحه برعشة حلوة زرقاء أبدية، بالشاعرية المتيقظة " .

الناس على الطريق الروماني القديم، وعلى ضفاف نهر الفرات يعيشون بمعاناتهم اليومية، وأفراحهم، وأتراحهم، وتطلعاتهم ، يالها من عيشة عادية

وطيبة!، يعيشون كما تعيش عبر الأزمان الغابات البكر ، السماء و الماء، الشمس و القمر، السهل و النهر، الصبح و الليل، والجبال الزرقاء الأبديـة،، الطبيعـة في داخلهم، و هم في الطبيعة، ولغتهم مؤلفة من قوانين غير مكتوبة للفرحة و المحبـة، هم الشعب ،بيتهم بلدهم ، وأغلب الكلام في الروايـة يشمل كلمـات : الشـجرة- الجدول-الحليب-النجمة-السماء- الحب- الأزرق- الزهرة، فالكلمتـان الأخيرتـان تتحدان لترمزان إلى الشعب، الذي هو "زهرة زرقاء "في الجبال الزرقـاء،، و " تنهار السماء " على " الحدائق الغناء "و "و السوسـن الأبيـض "(ص٨٤) **ويتحطم** " فيروز السماء "وتهب "رياح الصحراء الهوجاء "لتغطي جسـدها **بالرمال(ص٨٤)**

ويبقى من ذاك الشعب العريق نذر يسير فقط ليذكرنا أبدا بالكابوس المريع "،

الرواية غنية بالشخصيات و المواضيع ولكل منها ميزاتها الخاصة أمثـال " عمتي "و " الحميماتي آكوب "و " الخادم كوكـو "و " استاذ الرياضيـات (حمـاره أشد شهرة منه) "و " العاهرة ماريتسـا "و" آليك وسـليمان آغـا "و " المجـانين "، الصبهر مانوك "و "علي أمير الرماد "وغيرها من الشـخصيات الفريـدة التي تلمـع هنا و هناك عبر الرواية – بنفسها و نكهتها المميزة – كما تلمـع نجـوم الليـل في الزرقاء،

" **الصمت** "في الرواية ليس موضوعا أو شخصية في الرواية، ولكنه يشـكل مزيجـا عجيبـا مـن الألـوان والموسـيقى، والمشـاعر و الأحاسـيس الطاغيـــة، و"الطريق ،،، "روايـة الصمـت الأكـبر، الصمـت اللامحدود،قـال أحـد كتـاب الاغتراب الأرمني سورماليان " المغترب الأرمني ملـيء بـالخواطر، وفـي أعماقـه ثمة صمت كبير "، حقا أن صمت المغترب الأرمني عامة، والكاتب خاصة، كبـير وعميق وقد انعكس ذلك في مذكراتهم و سيرهم الذاتيـة و حواراتهم الذاتيـة، وفـي آلاف رسائل الحب والشوق و الحنين،

وحسب توتوفينتس أكبر و أعمق، أكثر درامية و مأساوية، كونه كان يعيش في الوطن، فيصابح و يماسي المأساة السوداء و الظلم و الظلام الذي قُدِّر له. وهو خلافا لكتاب الاغتراب الأرمني تجلـّى "**صمته العميق جدا** "في روحه وانعكس في عينيه. إن من يرى و يشارك في المأساة هو وحده القادر على رسم هذه الصورة : "يعم صَمت عظيم.. و كأن الثلج كفن أبيض كبير "**(ص١٦٥).إن** الصمت في رواية " الطريق ..." ليس موقفا فنيا أو لعبة أدبية، وإنما شريحة سميكة من المضمون، ومحرك هام جدا للحدث الروائي الواقعي الذي يظهر في معظم قصصه عبر حوار ذاتي لا مناص منه في التعبير عن عالم الكاتب الداخلي، ومكنونات قلبه، ومشاعر الحب الصافي، والأشواق و الحنين إلى الوطن والأهل والأحباء وزميلات و زملاء الصبا.

لم تولد رواية " الحياة على الطريق الروماني القديم "خلال ثمانية أو تسعة أشهر، رغم أن توتوفينتس كتبها في هذه المدة، بل كان حاملا لأفكارها و أحداثها طوال حياته الابداعية، منذ تلك اللحظة التي غادر فيها مسقط رأسه وإلى الأبد، منطلقا إلى العالم الأكبر الغريب. منذ دبت دودة الشوق و الحنين تعمل في قلبه وروحه، مذ تلك الأوقات المأساوية التي رأى فيها بعيونه الزرقاء طريق الجلجلة التي مشى عليها شعبه العظيم، ومنذ ذاك الوقت الذي حاول فيه – مثل طير يحاول عبثا انقاذ فراخه من براثن طير جارح– الوقوف بوجه رفع شعبه على الصليب.

أحد الجوانب المعرفية لرواية " الحياة على الطريق الروماني القديم " تتمثل في المصير القومي للأرمن الغربيين؛ وذلك عبر "الحكاية" الرمزية(ص١٨٠-١٨١)التي تمجّد الشعب الأرمني، وتعرّي دسائس الدبلوماسية الغربية التي تواطأت مع الحكم العثمانلي على إبادة مليون و نصف المليون من الأرمن في الفترة مابين ١٩١٥- ١٩٢٤.

في هذه الرواية يحلل الكاتب– بقلم الفنان الواقعي، والعالم النفساني الألمعي – الانسان بكل تجلياته الخيرة و الشريرة، فينقلنا إلى عوالم لا يدركها إلا العباقرة من البشر ٠ وإذا بنا نقف أمام أفكاره الجمالية والمناقبية الرفيعة٠ وهو إذ يصف لنا المعتقدات السلفية التي عفا عليها الزمان، والتي نالت في عصره هالة قدسية واعتبرت فوق القانون، يشير إلى أنها شكلت مقدمات للقضاء على الخير والجمال، ولتشويه العالم الروحي السامي لدى الانسان٠ وقد صور لنا أيضا أهله وأقاربه وأصدقائه بشاعرية القلب الدافئ و نفس عميق من التأمل الوجداني، وحلل مقيّما ظواهر الحياة من خلال حيواتهم و نظراتهم٠

وقضية الانسان و الانساني، والخيّر و الجمالي لا تجد لها انعكاسا من خلال العلاقات الانسانية وحسب، بل وعبر الترابط بين الانسان و الطبيعة الحية والجماد (القصة الرومانسية عن أخيه هاكوب و حصانه العربي المدعو " نجم " والحميماتي آكوب في قصة " الحمائم "و كذلك قصة " الجمل "وغيرها) ٠

والكاتب، إذ يصور حياة الريف في أرمينيا الغربية، يشير إلى الأوضاع المأساوية والأحداث الفاجعة التي تعرض لها الشعب الأرمني منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى مطلع القرن العشرين٠ فمن خلال استرجاعه لذكريات أبطاله، يصور لنا العلاقات المتوترة بين الأرمن و الأتراك ويقترب زمنيا إلى مرحلة المجازر الكبرى بحق الأرمن٠

إذا كان عنوان الرواية " الحياة على الطريق الروماني القديم " لا يشير من قريب أو بعيد إلى أرمينية و الأرمن؛ فذلك لأن أرمينيا التاريخية كانت مساحتها حوالى ٣٠٠ ألف كيلو متر مربع، وكانت مسرحا للصراع بين الامبراطوريتين الرومانية و الفارسية عبر القرون؛ حيث كانت جيوش الرومان تمر على الطريق المار بمسقط رأس الكاتب٠ لكن السياق النفساني للكاتب قد تمثّل بشكل مكثف في

الخاتمة الوجدانية التي تخالها نغمات أخيرة من سيمفونية خالدة لم تكتمل، أشبه بقصيدة حماسية سرمدية عن تلك البلاد العريقة في القدم و الحضارة. حياة ذاك الشعب يستعيدها المؤلف من خلال ذكرياته التي انقطعت فجأة ولم تجد نهايتها الطبيعية في الزمان و المكان. هذه اللانهاية يشير اليها توتوفينتس إشارة واضحة، ولكنه في ذات الوقت يذكرنا في الخاتمة الدرامية- بالتطلع إلى المستقبل المشرق الوضاء، وكأن ذاك الواقع لا يزال مستمرا ويسمع هو صداه في أعماق روحه عبر الأغنية/البشرى التي يود سماعها من بعيد، ومن الشروق حتى الغروب،يريدها أن تصدح أبدا لتأتي بالبشر و السعادة، والفرح والغبطة للأجيال القادمة.

ولادتــــــي

انطلقت أمي إلى الحظيرة لتحلب البقرة.

تأخرت في العودة.

صرخت عمتي فجأة وهي تقول :

– ويْ.. ماذا جرى للعروس؟! لقد ذهبت إلى الحظيرة ولم ترجع!

يتسابق الجميع إلى الزريبة، فيرون أمي جالسة قرب البقرة وهي تحتضن طفلا أزرق العينين.

أنا هو ذاك الطفل .

❊ ❊ ❊

كانت أمي تحتضنني واقفة على السطح وهي تنادي:

– قمر بابا، قمر بابا تعال وخذ هذا الطفل الشرير...

نظرت باتجاه صوت أمي فرأيت القمر متربعا على قمة الجبل الغامق الزرقة عند الغسق البنفسجي. كان القمر كبيرا، بدرا عظيما لم أرَ طوال حياتي أكبر منه. تأملت ضياء القمر طويلا، وتمسكت بشعر أمي من شدة الفرح، محاولا التسلق للوصول والإمساك بالقمر، بينما مددت يدي الأخرى مناديا إياه.

إنها المرة البكر التي رأيت العالم فيها من علو عظيم: سهول زمردية مديدة تحيط بها سلاسل زرقاء من الجبال. كنت جالسا على ذراع أمي، ممسكا شعرها بيدي وأنا

أحاول الطيران إلى السهول الزمردية. كان يخيل لي لو أن أمي تركتني، فأني سأقفز إلى السطح التالي ومنه إلى الآخر وهكذا دواليك حتى أصل إلى السهل. ظهرت فجأة امرأة على السطح المجاور . ولما رأت البدر كاملا رسمت شارة الصليب واتجهت صوبنا قائلة:

- عم تشمّي الهوا مع الصغير؟

- أيْ والله...

- ماشا الله سمنان الصغير!

وهنا عقصت والدتي إليتي درءاً للعين " الفارغة "، عين الحسود والشرير.

لم استمع بعدها ما دار بينهما من كلام، إذ كنت مسحورا بالسهل الممتد الأرجاء. كانت المنائر تتسامى نحو السماء، وأشجار الحور تتمايل عند الغسق. ومن السطح رأيت البيوت، ولا سيما بيتنا، للمرة الأولى، إذ كانوا يخرجون بي إلى باب الشارع مباشرة، أو يمسكون بي لأنظر عبر النوافذ، فكنت أشاهد البيت المجاور بمنظره العام، فيما لم أدرك بعد شكل بيتنا لعدم رؤيتي له من علٍ . وحينما أخذتني والدتي إلى الطرف الآخر من السطح نظرت إلى الأسفل فرأيت الحديقة والحوض وأخي كوكو ساقيا البستان، فتراءى لي قصيرا جدا، بينما تقزمّت الأشجار الكبيرة العالية . التفت إلى أمي مندهشا محتارا، لكنها بدت على حالها تماما في عينيّ.

كانت السنونو تطير سريعا في ضباب الغسق البنفسجي. كانت الآلاف من السنونو تزقزق مغرّدة فوق رأسي حتى أنها كادت تصطدم به. وحينما كنت ألاحق طيران سنونوة بعينها، أتصوّر خط طيرانها وقد تحول إلى كومة من الخيوط أشبه بالتلة.

كم كنت ألعب وأطير في حضن أمي حتى يتملكني التعب، فأتعلق بجيدهـا وينحـدر رأسي تدريجيا إلى نهديها لتلامس شفتاي حلمتيها الدافئتين. ولم أفتح عينيّ إلا عند الصباح. كانت الشمس ساطعة وصدر أمي عارية. نهضت مقتربا منها لأدفن رأسي مجددا في صدرها. احتضنتني أمي بحنان دون أن تفتح عينيها وهي تردد واحدة من تهاويدها.

❊ ❊ ❊

والـــــدي

كان والدي إقطاعيا وموظفا كبيرا في ولايتنا٠

ولكني سأبدأ سيرته من وفاته٠

لقد استعد لموته كما يستعد العريس تماما ليوم عرسه٠

كان قبيل وفاته رجلا نشيطا إلى حد ما، ولكنه أدرك بحدسه أن جرثومة الموت ستقهره٠ وقبل شهر واحد من فراقه هذه الدنيا دعا النجّار إليه، وانتقيا معا خشبات طويلة من شجر الجوز٠ قال أبي فجأة :

– ثمة عقدة على هذه الخشبة ٠

ثم رماها جانبا وانتقى أخرى أكثر جودة٠ وبعدها تمدّد على سجادة ايرانية من صنع كرمنشاه ليأخذ النجّار قياسه:

– انك طويل مثل شجرة الدلب يا حاج أفندي!

وضحك والدي لامباليا٠

وهكذا، صنع النجار لأبي تابوتا وفقا لتعليماته وأوامره٠

وبينما كانت والدتي تذرف الدموع الحارقة في غرفتها، كان النجار يمازح أبي ويحكي له ما يدور في رأسه من قصص، دون أن ينسى كرع أقداح العرق، ثم ينتقيان معا الخشب الأجود، فينشره النجار ويصقله ويلمّعه كما يجب٠ وكان والدي يوصيه قائلا :

– يجب ألا تدق في تابوتي مسمارا واحدا، يا معلم ماركار٠!

– على رأسي وعيني يا حاج أفندي٠

كنت أراقب العملية لا مباليا، لا بل مستحسنا أداء المعلم ماركار٠ كنت أعتقد أن أبي يستعد للسفر إلى اسطنبول أو مدينة ما بعيدة، وبعدها يأتيني كعادته محمّلا بالهدايا٠

أنهى المعلم ماركار التابوت الذي بدا مثل طاولة أو خزانة بديعة الصنع٠ وكان ماركار يحكي قصصا مرّت بحياته فيقول مثلا :

– إسمع يا حاج أفندي٠٠ قبل عشرين عاما٠٠٠

وهنا قاطعه والدي وأخرج جميع أفراد العائلة ليجرّب التابوت لآخر مرة٠ فاستبد الذعر بالمعلم ماركار الذي قال:

– سبحان الله٠٠ إن أعصابه من حديد٠٠٠!

كان الجميع يبكون في الخارج ويشاركون والدتي في نواحها٠

واغرورقت عيناي بالدموع أيضا٠

وتبددت فرحتي بوحشة أليمة، ولا سيما حين سمعت همسات تقول بأن والدي سيموت قريبا٠

تملكتني رعشة رهيبة ازدادت حزنا وكآبة، اعتصرت روحي مع حلول المساء:

أحسست بالخوف من أشياء البيت كلها، وخصوصا من باب الخزانة المفتوح، ومن البئر ومن الصندوق الكبير الموضوع تحت الدرج، والذي كنا نختبئ فيه أثناء اللعب٠

عندما فتح أبي الباب لم يقترب منه أحد سواي٠ ركضت إليه معانقا،ودسست رأسي في صدره لأتنشق بعمق رائحة قميصه!

شعرت بالدفء والحرارة فتبددت مخاوفي وهمومي٠

احتضنني أبي وحدّق في عيني مليا٠

ولمحت الدموع في قرارة عينيه.

كنت قد رأيت الدموع في عيني أمي كثيرا، ولم يحدث قط أن شاهدتها في عيني أبي.

وللمرة الأولى أدركت معنى ما يسمى " بالدمع الكاوي " .

- ما أجملك يابني الأزرق العينين ، ياعزيزي!

قال ذلك همسا في أذني وأغرقني في بحر من القبلات.واقترب الجميع رويدا رويدا من أبي وتحلقوا حوله. كان جالسا في سريره وأنا في حضنه. رفع رأسه محملقا بمن حوله، وحينما لاحظ عيونهم المحمّرة من شدة البكاء صرخ قائلا:

- ما لكم تقفون أمامي؟ هيا انصرفوا !

وابتعدوا جميعا.

حمل الخادم النعش إلى الخارج.

أمال والدي رأسه عليّ مثل غيمة ثقيلة دكناء.

وبعد حين جاء المعلم ماركار.

أثنى أبي عمله وأنقده أجرته ثم سقاه عدة كؤوس من العرق.

رفع المعلم كأسه الأولى قائلا :

- أشكرك يا حاج أفندي.. مبروك عليك...

وهنا إستدرك خطأه فسكت على الفور ووقف مصعوقا، بينما ظلت الكأس معلقة في الهواء...

فقال أبي مقهقها:

- لا بأس عليك.. إشرب.

* * *

بعد يومين دخلت عنبر الحطب.

شاهدت شيئا طويلا ملفوفا بملاءة بيضاء، مسندودا إلى الجدار. إقتربت منه وفتحته واذا به نعش والدي. ركضت هلعا إلى الخارج.

قابلت أمي، التي حدقت في مقلتيّ مليّا، ثم سارعت لاخفاء عينيّ براحتيها وهي تضمني إلى صدرها. ترى ما ذا شاهدت أمي في بؤبؤ عيني ؟! لقد استبدّت الرهبة بأوصالها كمن تقف عارية في مواجهة الريح البليلة الباردة.

لم تسألني أمي شيئا. ولكن لابد أنها قد شعرت بأنني رأيت تابوت أبي!

كان والدي يذهب إلى عمله راكبا حمارا أبيض مرتفعا رهوانا، وقد ازدانت برذعته بالنجوم الفضيّة وأحجار الفيروز. كان الشرر يتطاير من حجارة الطريق حين كانت حوافره تحتك بالأرض. وكان الخادم يركض وراءه لاهثا حتى يصل إلى مكان عمله، حيث يمسك الرسن بيد،والمهماز بأخرى كي ينزل أبي.

ويرجع الخادم بالحمار إلى البيت دون أن يركبه، اذ لم يكن والدي يسمح لأي كان بامتطائه. وعند المساء يرافق الخادم الحمار إلى مكان العمل؛ كي يركبه أبي قافلا إلى الدار.. و كان الحال على هذا المنوال دائما...

كنا نحتفظ بفرس نقدّمه بديلا عن الحمار لمن يطلبه من أقاربنا وأصدقائنا لقضاء حاجة ما. لم يكن أبي يحب أن يركب الحمار أحد سواه. ولن أخطئ أيضا اذا قلت أن الحمار نفسه لم يكن يتيح فرصة لأحد ما بالركوب عليه، وإن تطاول أحدهم على ذلك، كان الحمار يرميه بعناد لايوصف عن ظهره في إحدى الحفر المناسبة له.

إن الكثير من مظاهر الكبرياء التي إتسم بها والدي، وجدت إنعكاسا لها في نفسية الحمار- إذا صحّ هذا مجازا. فقبل عودة أبي تمور الدار بالحركة والنشاط، وكل أفراد

العائلة يقومون بعمل ما: أحدهم ينظف، والآخر يرتب الأثاث، والثالث يهيئ الطعام وهكذا دواليك.. وبمعنى آخر: يجب أن يسود النظام والإنضباط في كل مكان: الأحذية مصفوفة، أبواب الخزانات مقفلة، أزهار الحديقة مروية، الأطفال مسرحو الشعر، جميع أفراد الأسرة في أبهى الثياب، طاس الماء فوق الجرّة ومقبضها إلى الشارب وليس إلى الجدار، المكنسة في زاويتها المحددة، علاقة معطفه جاهزة أبدا على المشجب.

كان يترجّل عن الحمار أمام باب الدار. ينتظر لحظة ثم يشعل لفافته، كي يدرك كل من في البيت أنه قد وصل.

بالطبع لم تكن هناك ثمة حاجة لمثل هذا التأني؛ لأن الحمار كان يرفع عقيرته بالنهاق جراء وصوله إلى طرف الشارع، معلنا بذلك خبر الوصول.كانت أمي تستقبله في فناء الدار ومن ثم يصعدان معا إلى الأعلى. لم يكن يسمح لأحد منا بالإقتراب منه، بل كان هو ينادي علينا واحدا بعد آخر؛ فيقبّله ويداعبه، أو يوبخه ويؤنبه وبعدها يصرف الجميع.

* * *

كان والدي يذهب أيام الآحاد إلى المزرعة، حيث يمكث هناك حتى منتصف الليل. فيتناول عشاءه المرسل من البيت، ويشرب بعض كؤوس من العرق وهو جالس على حافة الحوض الرخامية. كان العشاء يحضّر لعشرة أشخاص، تحسبا لحلول الضيوف الطارئين عليه.

عند منتصف الليل يقفل راجعا على ظهر حماره.

وإن اتفق وغاب والدي ثلاثة أيام وليال عن البيت، فأمي مجبرة على انتظاره دون أن تطبق أجفانها. ولكن حين يعود تبادله الحديث ومن ثم تستسلم للرقاد.

لقد انقضت طفولتي على حافة ذلك الحوض المرمري ، طارت طفولتي سريعا على جناحي حمامة ناصعة البياض.

كانت الكثير من النيازك تتساقط في الليالي. وكانت النجوم تأفل في أعماق القبة الزرقاء الصافية.

بينما كانت الشمس تسبح في السماء وكأنها تنتعش بمياه البحر الباردة. وفي الليل تتحول السماء إلى فضاء كوني مليء بالسحر والجاذبية والجمال.

كانت أرض المزرعة تزرقّ في الليل، ويصبح الماء في الحوض أزرقا غامقا. السماء مرصعّة بآلاف وآلاف النجوم. ويعّم الهدوء في كل الأرجاء. وتميل أغصان الصفصافة على وجه الحوض فتسمع حفيف أوراق الشجر. وفجأة يشقّ شهاب الحوض ويتوارى . يالها من ليلة. ! ياله من حلم طويل أزرق/أخضر الألوان. وفي أعالي السماء غيوم متراكمة بيضاء، فتظن أن السماء تمطر قطرة قطرة مثل دموع الظباء. يالها من أشياء غامضة مبهمة مثل الرعشة والنشوة تنتشران في الآفاق لتشمل الكون بأسره.

فواكه، فواكه.. وفواكه متعددة الألوان، لا أجود ولا أشهى! و العشب أخضر نضر. سفوح الجبال تتلوّن بنجع الشمس، وخلف السفوح جبال زرق تضم في أحضانها بحيرة صافية عذبة المياه، فيروزية تتلألأ غامزة مثل آلاف عيون الأطفال الأبرياء.

وعناقيد العنب متدليّة كعيون الأطفال المشعّة الصافية. عناقيد حمر وبيض وسود وصفر، وكلها ترضع أشعة الشمس فتزداد حلاوة وتلونا، فتخالها الشمس وقد تكثفت شعاعها قطرات استحالت إلى حبات عنب مكورّة متبلورة، صافية شفافة.

في الخريف تتحول المزرعة إلى حضن يمور بالشهوة فتخال الأرض وقد انشقت من فرط جماحها، وعظيم خصوبتها، فتجود بثمار حان قطافها، ووفرة وغزارة أشبه بالماء المتدفق من أعالي الجبال. تغّص العنابر بالفواكه ، وتمتلئ الدنان بالخمرة

الصهباء تعبيرا عن فرحة الأرض، وصرخة الشمس، وتجسيدا لأناشيد حلول الروح والشمس معا٠

وأنا بدوري أريد الغناء٠٠ بصوت يشق عنان السماء٠٠ ويحيط بالزمان والمكان٠

* * *

في تلك الأيام الخريفية٠٠ كان أبي يستعد للسفر إلى اسطنبول٠

قالوا أن امرأة ما قد سحرته في اسطنبول٠

وسأحكي ذلك عندى الحديث عن أمي٠

* * *

كنا نتغدى صامتين٠

الصمت شرط صارم٠ فلا كلام ، ولا ضحك أو حتى ابتسام٠ هذا مايريده والدي٠

أما والدتي فكانت تعارض الصمت، وتحب أن يعمّ الفرح والمرح، لا بل وأن ينفجر أحدهم ضاحكا حتى حين يكون فمه محشوا بالطعام(هكذا كنا نتغدى بحضور أمنا وغياب الوالد)٠ ولكن حين يكون رب الأسرة موجودا، تسارع الأم نفسها بدعوة الجميع إلى الصمت ؛ لأنها إرادة الزوج الذي تلخصت فلسفته كاملة بالكلمات التالية : " الكلام والضحك قبل وبعد الأكل، وليس أثناء الطعام مطلقا " ٠ وحينما كنا نحاول تغيير العرف المتبّع يوبّخ الوالد قائلا : " اسكت ياولد " ٠

* * *

أمـــي

أعتقد أن هناك مسيحيين في الدنيا. أحدهما المسيح الناصري بالذات، والآخرهو أمي الأرمنية. فهي لم تقرأ كتابا آخر سوى الكتاب المقدس. وهي تسعى طوال اليوم للقيام بعمل واحد ألا وهو تنفيذ وصايا الكتاب المقدس. كانت تجالس الفقراء وتأكل معهم، وتقوم بالأعمال الخيرية، شرط ألا يعلم أحد بذلك، وتؤدي فروض الصلاة و العبادة.

كانت امرأة تقية ورعة إلى أبعد الحدود، فضلا عن طاعتها العمياء واستكانتها. هذه وغيرها من السمات الفطرية، كانت سببا للخلافات العميقة بين أمي و أبي. كانت امرأة حريصة على تنفيذ جميع رغبات زوجها - و حتى الأثيمة منها - . كانت أسيرة له تماما، كاملة الخضوع والاذعان. ولو أن أحدا أساء اليها فرضا، كانت تقابله بوداعتها المعروفة و تسامحها السامي الذي بشّرت به الوصايا العشر.

كان والدي يطالبها بأن تكون سيدة البيت حقا وحقيقة. كان مصرا على أن تجلس في صدر قاعة الضيوف معززة مكرمة، محاطة بالارائك و الوسائد الوثيرة، وألا تهتم قط بأمور البيت.

كانت أمي تعاني الأمرين من فكرة الترفع و التعالي التي اتسم بها والدي .وكانت تناضل بصمت وهدوء ضد كل مظاهر الكبرياء الزائفة .فكانت توصينا مثلا بالا نخبر الأب عن أعمال خفيفة تؤديها كأن تساعد الغسّالة، وتكنس البيت، وتمسح الأرضية مع الخادمات، وتطهي الطعام، وتشعل النار .. مختصر القول: كانت تمارس جميع الأعمال التي تقوم بها النساء العاديات في الولاية. كانت - الى جانب ذلك - بعيدة النظر في تدبير بيتها و رعاية و تربية أولادها.

ولولا تلك الواجبات التي تشغل نفسها بها، لكانت قد فارقت الحياة من شدة الهموم التي يكبدها اياها زوجها.

حينما كان الحمار يتجه بأبي الى مكان عمله، ينقلب كل شيء رأسا على عقب. فأمي وكل من في البيت يرتدون ملابسهم الأنيقة النظيفة و كأنهم ذاهبون الى العرس. بيد أن خروج والدتي غن العرف الأرستقراطي، لم يكن خافيا على أبي، الذي كان يعبّر أحيانا عن غضبه بتكشيرة أو تصعيرة، فتبتسم له الوالدة وتمسك براحته وتضعها صاغرة على خدها.

فيصمت أبي بدوره مذعنا لدلالها و غنجها. ويصعد الى غرفته الخاصة وقد لفته سورة من الغضب.

كان كلاهما عنيدان.. فسبحان الله الذي يجمع ما لا يجمع!

والدي ارستقراطي عنيد.

وأمي ديمقراطية عنيدة.

ولم يستطع والدي التصالح مع ديمقراطية أمي، و لا هي مع ارستقراطية أبي.

* * *

كانت أمي على معرفة بأن لوالدي " عشيقة " في اسطنبول.. لكن أمي كانت مطمئنة البال تماما، ليس من منطلق اللامبالاة تجاه زوجها، بل من حبها الكبير له.كان حبّها له يدفعها للهيام حتى بأخطائه وآثامه، وكانت تبرّر ذلك بقولها:

- إنه رجل وقلبه خفّاق أبدا.

أذكر فيما أذكر كيف أن أخي الأكبر حين شرع - بعد وفاة والدي - يتجوّل في مدن البحر الأسود ويسافر إلى اسطنبول، كانت أمي ترسل هدايا نفيسة لعشيقة زوجها، أي لضرّتها. أتذكر جيدا كيف سلّمته صرة الهدايا وهي تذرف الدمع، ليس بسبب زوجة اسطنبول، وإنما لغياب والدي. كانت تقول والغصّة في حلقها:

– ليته بقي حيّا و أحب ألف امرأة.

شاعت أمي أن تكون إحدى ذكريات المرحوم والدي– وأعني بها زوجة اسطنبول – موضع تقدير واحترام. ويحكى أن الأسطنبولية تسلمت الهدايا المرسلة بعيون مغرورقة بالدموع؛ وذلك من فرط حبها لأبي.

لقد سَمِعتْ بخبر النعيّ من أخي الأكبر.

كانت المرأتان تبكيان رجلا واحدا، رجلا ملأ روحيهما معا بالرعشة الحلوة، وامتص رحيق الحب من شفاههما.

حكى أخي الأكبر لأمه كيف ذهب لرؤية المرأة الاسطنبولية التي تعرّفت عليه بمجرد رؤيته، فعانقته مقبّلة والدموع تتساقط من عينيها شآبيبا. قال أخي:

– إنها امرأة ذات قدٍ رشيق، وشعر مرسل ، وعينين خضراويتين كالجوز، وأنف يوناني، وعلامة فارقة سوداء فوق حنجرتها.

كانت أمي تنصت بشوق وابتهاج إلى كلام أخي وتتمتم من خلال دموعها قائلة:

–لقد أصبحت المرأة المسكينة أيّم ...

لم أتمكن قط من إدراك ذاك الحب العميق الذي كنته أمي لتلك المرأة/ الضرّة. وحينما أحاول الإمعان في التفكير لإستيعاب جوهر ذلك الحب، يصاب رأسي بالدوّار، وتتملكني الرعشة في فؤادي.

فأمي امرأة غير مثقفة، إذ أن تعليمها لم يتعد نطاق الكتاب المقدس. ولكن وقوعها تحت تأثير المحبة الكاملة أوصلها إلى آمادٍ بعيدة من سكينة الروح وإطمئنان الخاطر.

* * *

كان والدي يرتدي بزته الرسمية مرتين في العام. يلبسها. وهو يلعن ويشتم؛ لأنها تحول دون ركوب الحمار بيسر وسهولة. أما الزيّ الرسمي فهو عبارة عن

معطف طويل آسود، مزرور من أعلى إلى أسفل، ذي ياقة مرتفعة عليها شارة مطرزة بخيوط ذهبية اللون، ومن الكتف الأيمن يتدلى على الصدر شريط أخضر متماوج. كان أبي يذهب لحضور العرض الرسمي ثم يقفل عائدا إلى البيت بأسرع مايمكن، فيخلعه للحال وهو يتمتم " اوف.. اوف .. لقد خلصت منه... ".
في ذلك اليوم يعّم البيت صمت مطلق. ويتم تنظيف بلاط فناء الدار تنظيفا يعكس صورة من يمشي عليه. وكانت واجهة الدار تزيّن بالأعلام التركية، والباب بأغصان الصفصاف، وتضاء المصابيح المتعددة الألوان.

❊ ❊ ❊

في الصيف.. كان والدي يقضي معظم أوقاته في حديقة المنزل قرب البئر عند شجيرة الورد الجوري. ومنذ الصباح كانت تُنزلُ إلى البئر سلة " صغيرة مملوءة بالخضروات والفاكهة وزجاجة من العرق؛ كي يتم تبريدها جميعا. وبمجرد جلوس أبي قرب البئر تُسْحَبُ السلة فورا وتقوم والدتي بترتيب محتوياتها على طاولة صغيرة موضوعة تحت ظلال الورد .
تقوم إحدى أخواتي بخلع حذاء والدي وتستبدله بالشحاطة.
بينما كان أبي يشرئب بين الحين والآخر ليمسك بغصن الورد فيشده إليه ليشتم الوردة الأكبر القانية كالدم.
ذلك العالم السحري تحول اليوم إلى أطلال من الرماد السنجابي، ولكنه لايزال ماثلا في ذاكرتي.فاستنشق عبير الورد، وأحس كيف تسيل عصارة الورد الأحمر كالدم قطرة قطرة مثل الندى.
لقد انهارت قبة السماء الزرقاء فوق كل ذلك، كما تنهار قبة المعبد القديم الفيروزية إثر صدمة الزلزال المدمر.

❊ ❊ ❊

قبيل ليلة عيد رأس السنة كنا جميعا، ولا سيما نحن الأطفال، ننتظر بصبر نافذ قدوم " البابا نويل " ليحضر لنا الهدايا. لكن الموت هو الذي طرق بابنا في هذه السنة. أمسك بيد أبي مصافحا اياه بحرارة، ثم تأبط والدي و الموت ذراعي بعضهما البعض الآخر، خرجا معا من الدار سائرين على الثلج الناصع.
ذهبا و لم يرجعا قط.

أسلفت القول إلى أن أمي كانت تجد قمة سلواها في الإنزواء في ركن من الغرفة لقراءة الإنجيل في الليل أو في الآحادي. كانت تقرأه أولا - تغمدا على روح الفقيد الغالي زوجها. وثانيا- تطلب التوفيق والعودة بالسلامة لأخوتي المسافرين بعيدا عن البيت.

قبل الشروع في القراءة تغرق عيونها الكستنائية البراقة بالعبرات المرّة. وبعدها تفتح الكتاب وتقول :

- لأقرأ إصحاحا لإبني كيفورك!

وبعد أن تقرأ الإصحاح تردد قائلة :- والآن إصحاحا لأجل إبني ليفون.

كنا جميعنا نمتلئ رهبة ورعشة، وتحيط بأرواحنا رجفة غريبة. وتصبح أمنا في أعيننا امرأة من نوع آخر، لا بل قل أنها ملاك المحبة والرحمة.وبعد القراءة تصلّي خاشعة صامتة .

وفي كل مرة يسألونها عن أحداث وشخوص الكتاب المقدس، كانت تجيبهم بتفسيرات متميزة وفريدة.

كنت يوما مستلقيا على السرير في حالة بين اليقظة والنوم. كانت أمي منشغلة بالخياطة، بينما كنتها الكبرى تقرأ الإنجيل بصوت مرتفع. وفجأة قطعت القراءة وسألت أمي قائلة :

أريد توجيه سؤال إليك يا أمي. لقد جاء في الكتاب المقدس أن الحيّة خدعت حواء لتأكل التفاحة ومن ثم أطعمتها لآدم، وعندها غضب الرب وطردهما من الجنة معا.. إني لا أفهم هذا الإصحاح إطلاقا...

فقاطعتها الأم هامسة : - أسكتي يا كنتي فقد يستيقظ الطفل.

كانت أمي تقصدني أنا بكلمة " الطفل ". كنت على وشك الدخول في ملكوت النوم، إلا أن تحذير والدتي لكنتها قد أطار النوم من عينيّ. ويقينا من أمي أنني كنت نائما، شرعت هي في تفسير حكاية الحيّة قائلة :

– افترضي أن لديك طفلين يا ابنتي٠٠ كلا، كلا٠٠ فأنت صغيرة بعدُ ولا تفهمين هذه الأمور٠ ولكن اسألي نفسك مثلا : لماذا لا يدللون المرأة ؟ لماذا لايسمحون لها بالصعود إلى هيكل الكنيسة المقدس؟ لأن المرأة يا ابنتي كثيرة الخطايا و معظم آثام البشرية في عنق المرأة٠ سأحكي لك القصة بكاملها ، شرط ألا تبوحي بسرها لأحد٠ الحقيقة يا ابنتي أن حواء قد حبلت وهذا ما لم يرضي الرب، لماذا؟ لأن حواء لم تطق صبرا وعاشرت آدم قبل أن يسمح الرب لهما بالزواج٠ وهكذا، طرد الله الزوجين من الجنة٠ فالحية هي النار المتجسّدة في المرأة٠ فهل رأيتِ رجلا يمسّ امرأة إلا بعد أن تحرّك هي ذيلها فتغريه وتغويه؟! يبعث لها العمى حواء٠ لقد حبلت بدنس قبل عقد قرانها مع آدم، فأوقعتنا في لهيب الآلام والمعاناة والعذابات٠ ألم يكن بمقدورها الانتظار حتى يسمح الرب لهما بذلك، وبعدها تعاشر آدم، خصوصا وأنه لم يكن في الدنيا يومئذ ثمة وجود لأي امرأة أخرى، أو لرجل آخر إلا آدم ؟!

وهنا أطلقت الكنّة صرخة نداء لاغير:

– ويْ٠٠٠

– الحكي بيننا: كانت حواء امرأة عديمة الشرف٠

هكذا اختتمت الأم كلامها٠

❋ ❋ ❋

لن أنسى أبدا الخوف الذي سببّته لأمي٠

كان الوقت صيفا٠ التجأت هربا من الحر الشديد إلى الطابق الأرضي من دارنا٠ لم أدر الوقت الذي مرّ عليّ نائما، حينما شعرت بشخص ما ينزل إلى القبو٠ فتحت عيني لأرقب القادم، وإذ به يطلق صرخة خائفة ويسقط على الأرض٠ قفزت من مكاني فورا وتقاطر أهل الدار كلهم إلى القبو باتجاه الصوت٠

كانت أمي من أغمي عليها٠ حملناها إلى غرفة النوم وأعطيناها أنواعا مختلفة من قطرات التنبيه حتى استعادت وعيها٠ لقد بدا وجهها شاحبا تماما، بينما كانت تحدّق

فينا هلعة خائفة : مرة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار. بـدت وكأنها تبحث عن أبي .
دخل أخي الأكبر(الذي يصغر أمنا بـ ١٣ سنة فقط) ثم احتضن صدرها وسألها :

- ما الذي حدث يا أمي ؟

وانفك عقال لسان أمي فتمتمت قائلة:

- ثمة شيطان في القبو تقدح عيونه شررا. .

اهتزّ أخي الكبير هلعا، ظنا منه أن ضرزرا ما قد أصاب عقلها. ولكني فهمت مـا يدور برأس أمي، فاقتربت منها وأرخيت رأسي على صدرها ذي الرائحة الذكيـة وقلت لها باكيا:

- أنا الذي كنت مستلقيا في القبو، وليس الشيطان، يا أماه.

حاول أخي الكبير إنزال العقاب بي، لكن أمي حالت دون ذلك.

وبعد الخوف والذعر اللذين استبدا بأمي، ارتسمت ابتسـامة رقيقـة علـى ثغرهـا، وسارعت لضمي إلى صدرها مرددة:

- عيونك مثل عيون الشيطان..!!

وداعبت بأناملها الرقيقة شعري الأشقر.

❋ ❋ ❋

استيقظت ليلا. نهضت من فراشي وذهبت إلى أمي.

لم تهدأ روحي بعـدُ من الخوف الذي سببته لأمي. نمت طوال الليل فـي فراشـها ويدي تـلتف عنقها بقوة.

عند الصباح تأملت عيـون أمـي وغصتُ بروحي فـي صفاتهمـا. ابتسمت أمـي فامتلأت روحي غبطة وسعادة. كانت أمي نشيطة وجميلة، يتفجّر جسدها ووجهها عافية وحسنا.

حينما أتذكر أمي، أذكر دائما شجرة السرو في حديقتنا. فهما متشابهتان تماما.

كانت تمسك طستا مملوءا بالماء وترفعه إلى أعلى ثم تفرغ ما فيه بغير عناء، معتمدة على قوة معصميها. وعند نقل أي غرض ثقيل كالطاولة مثلا، لم تكن تطلب معونة الآخرين، وإنما تؤدي جميع الأعمال الشاقة وكأنها تحرّك غصن صغير.

كانت قبيل الولادة بنصف ساعة تترك العمل المنزلي، دون أن تلمح على محياها أية علامة تنّم عن آلام المخاض. وغالبا ما كانت تبتسم ابتسامة مشرقة ثم تنزوي في ركن من البيت ، لتمسك ضلوعها ومن بعدها يولد واحد منا. يقال أن واحدا أو اثنين منا قد بدآ بالصراخ ولما تزل أقدامهما في بطن الأم. يالهم من أولاد أصحاء وافرو دم العافية لدرجة يخشى عليهم الإختناق. ويحكى أن واحدا من الأولاد قد اختنق من كثرة الدم بعد شهر من الولادة.

كانت والدتي مدرارة الحليب . كنا نفتش عن أمهات قليلات الدر فنجيء بأطفالهن لأمي كي ترضعهم بحليبها. لا أزال أذكر كيف كنت أتابع الرضاعة حتى الرابعة من عمري. كانت أمي تضغط بإصبعها على ثديها كي تملأ منخريّ بالحليب درءا لصعوبة التنفس. كما كنت أمتص الحليب بنهم ظاهر حتى يمتلئ حلقي إلى النهاية. أذكر ثديي أمي الأبيضين النظيفين العبقيّن، بحلمتيهما السمراويتين الممتلئتين بالحياة. لقد عشنا - أنا وأخوتي أي ذكور الأسرة - نعمة التمتع بنشوة ذانك الثديين.

أتذكر يا أماه سعادتك المفرطة حينما كنت وأخوتي نستسقي حليب بدنك المشبع بنور الشمس.

أتذكر يا أماه إمتعاض عينيك الكستنائيتين عندما كان واحد منا يعضّ بثنيّة الرضيع حلمتيك.

لقد أويت إلى أحضان كثيرة في حياتي، ولكن ما من حضن في الدنيا يا أماه أثار فيّ الدفء والحرارة، والفرح والسعادة - كما هو حضنك.

الأم هي العاطفة الأبدية الأزلية . إنها الشجرة الذهبية التي تنمو في فضاء هذا الكون. هاهو الحزن يخيّم علي بجناحيه حين أتذكر العبرات التي ذرفتها أمي بسبب الشقاوات التي ارتكبتها - رغم قلتها. وأتمنى أن ينزل الرب بي عقابه على ما ارتكبته من أخطاء؛ كي ترتاح روحي المعذبة، وتزول الكربة عن نفسي المتوجّعة.

هاهو الغروب ذو اللون الأحمر القاني يخيّم على جبيني.

هاهي الرياح تهرهر والبرد القارس يلف الدنيا.

فأوصدوا الأبواب ...

ومهما يكن من أمر، هاهي أمي تبتسم لي من خلال الشمس الصاعدة وراء جبالنا الزرقاء. إني أرى ضفائرها المغمسة بشعاع الشمس، وأسمع صوتها يناديني:

" ناولني أحزانك يا بني، يا أغنية ضلوعي! أنعِمْ بالربيع ياربيعي النضر! هيّا اركض ياغزالي في السهول الخضراء المعطاء.! هيّا انطلق على متن الأمواج الراغية المزبدة ! ابتسمْ ابتسامة مشرقة وضاءة بيضاء كالحليب الذي رضعته من صدري! فالعالم يا بني مملوء بالدفء والحرارة! أنت يابني شجرة سامقة إلى العلياء! يافرحي، يا حبي!.. هلليلويا! هلليلويا!"

وتنفس الصبح عن فجر مشرق لفني بجناحيه الذهبيين، فتلاشت همومي وأحزاني.

وانتشر الفرح والمرح في جميع أرجاء الكون.

وما زلت أسمع صوت أمي عبر الشمس.

فالشمس هي الأم نفسها، ولكن بعينين زرقاوين وشعر ذهبي. هاهي تنثر أغانيها وكلماتها الذهبية فوق السندس الأخضر، لتملأ كل عين وقلب ونفس بالبهجة والفرحة.

هاهو قلب أمي يخفق بالمحبة و ينشر الدفء في كل الخمائل وكؤوس الأزهار.

فاستنشق عبير الورد كثيفا كما كنت أمتص بنهم شديد حليب أمي.

وهاهو المساء مجددا بنسيمه الهادئ. هو ذا الليل، حيث تتلألأ النجوم في قبة السماء.

ولكن أمي رحلت مع مغيب الشمس. وما أعجز الزمان عن أن يطوي ذكراها ويلفها بالنسيان!

أنتظر الصباح مجددا. أنتظر نداء أمي من خلال صوت الناي يرن دائما في أذني.

جـــــدّي

لابد لي أن أتذكر جدي لأمي٠

فهو – خلافا لأمي الوديعة السجيّة – إنسان صارم الطبع ٠ كان يتشاجر مع الجميع، ويكّن الإحن والضغينة لمدى أربعين عاما٠ يتهم الكلّ بـالتواني والتكاسل، رغم أنه لم يقم بأي عمل إطلاقا طوال حياته٠ لقد بدّر ثروة أبيـه، ولا سيما علـى المحامين إمعانا منه في الإسـاءة إلـى الآخريـن٠ ولمـا جـاء علـى آخر قـرش مـن الثروة، اشتد عود أولاده وأخذ يعيش على حسابهم٠

كان صباحا يكتب على ورق السجائر ما ينبغي شراؤه من السوق– ولكنه لا يذهب عادة ٠ كانت قائمته مؤلفـة مـن اوقيتّـي سكر، و ٢٥ درهمـا مـن الزنجبيـل وزجاجة من الخـل والخـبز٠ وهـذا مـا كـان يعدّه العمـل الأساسـي فـي كـل حياتـه الباقية٠ فكان يري القائمة لأحد ما ثم يسأله باستغراب :

– يقولون أني لا أعمل٠ أخبرني بحق الله أليس هذا عملا رائعا؟!

كان يعتبر ركوب الحصان والذهاب إلى البستان والعودة منه عمـلا مرهقـا، يجعله يكيل سيلا من الشتائم إلى الناطور٠ أما الذهاب إلى الكنيسة وشتم الخـوري، فهما برأيه من الأشغال الشاقة ، لاسيما وأن شجاره مع الخوري كـان ينتهـي غالبـا بفضيحة كبيرة٠

لم يكن ينادي أحدا مـن أقاربـه أو معارفـه باسـمه الحقيقـي، بـل بنعوت مـن أمثال " كلب " و " جرو " و " القط الأسود " و " ذنب الثعلب " و " أنف الشيطان " و " الذنب" و " الوسخ " و " الثرثار " و " الأعمى " ٠٠٠وهلمجرا ٠ وحين يـدور الكلام عني مثلا كان ينعتني بـ " الكلب الأزرق " ٠

عندما يرى الكاهن الحاج أراكيل آغا في الكنيسة لم يكن يختصر أية صلاة؛ لأن جدي – وهو الحاج أراكيل آغا – كان يرتّم بصوت عالٍ الصلاة المختصرة التي لايحفظ غيرها. وذات مرة اختصر الكاهن صلاة ما– رغم معرفته بوجود الحاج أراكيل آغا – فتابعها جدي مرتّلا . ولم ينتبه الكاهن لذلك إلا حين واصل جدي الصلاة بعناد وبصوت أقوى بغية إفساد نيّة الكاهن، الذي رغب يومها في إنهاء القداس باكرا. لم ينتهِ الأمر عند هذا الحد، إذ انتظر جدي خروج الكاهن من الكنيسة ليقول له :

– لو لم تكن كاهنا لدستك بأقدامي، يا ابن الكلبة.!

ثم توجّه نحو الشماس موبخا إياه لأنه دقّ الجرس أقل من وقته، كما نزل باللائمة على المسئول عن الإنارة، إذ انتهى زيت القنديل في وسط الكنيسة ... الخ.

وبعد عودته إلى البيت شرع يشتّم رائحة أفواه أفراد البيت كلهم بغية التحقق مما إذا تناولوا الطعام قبل الصلاة. ناداهم فردا فردا للتحقيق وهو يزمجر قائلا : " قل :" هُوهْ ". كنا نلفظ هذه " الهُوهْ "، ونتلقى إثرها صفعة قوية، إذ من غير المعقول عدم تناول الطعام حتى نهاية الصلاة.

كنا نأكل الملفوف نيئا بدلا من الحلوى والفاكهة. نأكله مقطّعا أو مفروما بعد وضعه على المائدة. وذات يوم أحضر الخادم رأس ملفوف من السوق. فسارع أحد أخوالي (بارتيف) لالتقاط قطعة كبيرة منه، فزجره جدي قائلا :

– لا يجوز أن تأكل الملفوف قبل تقطيعه ووضعه على الطاولة.

لم يؤنبّه وحسب، بل ضربه على كفّه. وعندما قطّعوا الملفوف امتنع خالي عن أكله، فسارع جدي لوضع قطعة في فيه وهمّ بالضرب على رأسه وهو يصرخ:

– ستأكلها ولو متّ.

شرع بارتيف يبكي من شدة الألم وقطعة الملفوف في شدقيه. أخذت الجدة توسل لزوجها قائلة :

– سيأكلها يا حاج أراكيل آغا...

لكن الحاج استمر في ضرب بارتيف صائحا:

- أريد سماع خشيش الأكل ...

وللخلاص من الضرب المبرّح طفق بارتيف بالبكاء من جهة، وبالأكل من جهة ثانية، حتى استراح الجد لسماعه خشخشة مضغ الملفوف تحت صرير الأسنان.

كان شاربا جدي طويلين ممتدين حتى أذنيه. كان يتباهى بشاربه أمام المرآة، ويفتل كل جانب ثلاثا-ثلاثا ثم يبتعد عن المرآة.

ألِفَ جدي عادة غريبة. فعندما كان يستلم رسالة من أميركا لايفتحها إلا بالمقص وبروية لا تطاق، لاسيما وأن جدتي كانت على أحر من الجمر لسماع أخبار أولادها في بلاد الغربة .ولكن الجد يستمّر في عناده البهيمي، منتظرا وصول المقص إليه، وإن اتفق ولم يجدوه لأيام- تبدو سنينا في عمر الإنتظار- يبقى المظروف مغلقا. وبعد أن يفتح الظرف، يمسح نظّارته بتأن يقبض النفس. ثم يلّف سيجارة ويحضروا له النقاضة وكأسا من العرق ليشربه بلذّة منقطعة النظير. إثر ذلك يبدأ بالسعال الحاد والبصاق الكريه. واخيرا، يشرع في القراءة في سرّه كي يتمكن – كما يقول: " من فهم المضمون "، ثم يقرأ بصوت عال ليجعله ملكا لأفراد العائلة.

وبينما كانت الجدة تتحرق شوقا ولهفة-لإنهاء هذه العملية الفظيعة، كان الجد يخاطبها بصرامة:

- اذهبي لتحضير الطعام وبعدها ارجعي لنتابع القراءة.

كانت جدتي امرأة زهيدة الجثة ذات يدين بضتيّن وعيون سوداء كبيرة. ابتسامتها لا تفارق محيّاها، وديعة لطيفة، ومحبّة للنظافة كثيرا. كنا نشتم منها رائحة البياضات الزكية. وكانت تتكلم بصوت خافت، حلو الوقع على الأسماع، وكلامها ينّم عن ذكاء فطري.

كانت جدتي تفضل الجلوس صيفا على الشرفة المطّلة على الحديقة

المدرّجة، حيث يجري الجدول الكبير ذو الشلالات المتتابعة. فالجدول ينصبّ من الأعالي ماراً بالشُعب والوديان وصولا إلى الحقوق والسهول. وحينما كانت تتمايل أوراق الشجر، ويهّب النسيم العليل من جبل " الكورة "، كانت جدتي تغمغم بثغرها الصغير قائلة :

- قربان عيونك !

وا عجباه! كيف تعايش هذان الضدان معا، وهما كالزيت والماء، طوال واحد وأربعين عاما؟ ذلكم هو سرّ العقاب الذي أنزله الرب بالجدة حواء حين قال لها: " وإلى زوجك يكون اشتياقك وهو يتسلّط عليك ".

رأى جدي ذات ليلة في منامه أن أجداده قد أورثوه جرّة من الذهب،وأنها مطمورة على عمق متر في أرضيّة القبو. نهض من فوره وأيقظ كل من في البيت، آمرا الجميع بحفر حفرة في وسط القبو. شرعنا في حفر الأرض الصلبة بشق الأنفس، وما أن وصلنا إلى عمق المتر حتى تراءت الجرة لنا حقا. وهنا وقع جدي مغشيا عليه من فرط فرحته. كنا حوالى العشرة، فحملناه بصعوبة بالغة إلى غرفة نومه في الطابق الأعلى. وأذكر أنني كنت موكلا بسند يده كي لاتتدلى، فبدت لي ثقيلة كالطود. وبمجرد ارتداد الوعي إليه، طلب الجرة فاحضروها ، ولما رآها فارغة، أغمي عليه مجددا، ولمدة أطول، مما تطلب إحضار طبيب لإسعافه.

لم يعترف جدي قط بارتكابه لأي خطأ طوال حياته. كان واثقا تماما بأنه لم يرتكب خطأ قط. ولما كانت جدتي تذكّره بالمحاكمات المتواصلة التي كان يصطنعها بعناد فارغ خالٍ من أي مضمون، كان يجيبها قائلا :

- لو جئت ثانية إلى هذا العالم لكررتُ كل أفعالي .

لم يكن يستشير أحدا، بينما يطالب كل من يعرفه باسترشاده وطلب النصيحة منه. قد تسألني : ماهي حجته في ذلك ؟ هل هو الذكاء ؟ .. كلا، مطلقا. كل ذلك لمجرد أنه **الحاج آراكيل آغا** .وماذا يعني الحاج آراكيل آغا ؟ إنه لايعني شيئا البتة. إنه مجرد لقب يرثه ابن الغني؛ فيزداد به غطرسة وعجرفة.

لو صادف ونصحه أحدهم في أبسط الأمور، ولاقى ذلك استحسانا وقبولا في سرّه، فإنه كان يرفض تنفيذ المشورة قطعا، إذ لا يجوز أبدا أن يستمع الحاج آراكيل آغا إلى أقوال الآخرين. أذكر جيدا كيف صعد جدي يوما السلم بغية دقّ مسمار كبير في الجدار لتعليق بعض الأشياء عليه. كانت جدتي ترغب في أن يضرب المسمار بقوة، فنصحت جدي أن يضربه بهوادة؛ كي تصل إلى مبتغاها. بيد أن جدي - وهو الحريص كل الحرص على مخالفة كل أنواع النصائح - ضرب المسمار بقوة عظيمة، فكانت النتيجة كما توختها جدتي، التي افترّ ثغرها عن ابتسامة خفيفة - علامة النصر.

وإن شاءت جدتي الذهاب للاصطياف في مكان تحبّه، كانت توجّه - منذ الشتاء - انتقاد لاذعا للمصيف المرغوب فيه قائلة :

- وهل هذا مصيف للانتجاع؟ يكاد المرء يموت هناك من شدة الحرّ !

وعندما يحل الصيف يأخذ الجد جدتي إلى المصيف الذي أعابته شتاء.

* * *

عمّتي

كان لي عمة عجوز.

كان لها " في كل عرس قرص " – كما يقول المثل الشعبي. فهي حاضرة في العرس والمأتم، في معمعان القتال والشجار، في ميدان الوشاية و النميمة، في السوق والبستان، على السطح والنبع، على رأس المريض وتحت أقدام المرأة النفيسة، إبان اقتسام الميراث، في الخطبة والدبلة والشبكة في ...

يالها من امرأة ما عرفت الحب أبدا. إنها أشبه بالقطة التي أمضت شهر شباط ولم تعاشر فيه هرا، فتنطنط على السطوح وتجوب الزوايا كالنمر الجائع، الذي يبحث بعينيه المشتعلتين شبررا عن فريسة يتصيّدها، ويغرز أنيابه في جسدها.

لقد أمضت عمتي أكثر من شباط، وبالتحديد ٦٥ شباط، وهي تطوف دارنا ودور الآخرين، تتسكع في الشوارع حاقدة على البشر والكائنات ، والأشياء والأدوات، والأوقات والأزمان. هذه المرأة عدو لدود لكل ما يسمى بالسلم أو الهدوء العائلي.

جميع أعضاء جسدها يفرز المرارة.

إنها عرجاء في الشتاء ومستقيمة في الصيف. سألت أمي يوما:

– كيف يحدث يا أماه أن تستوي عظام عمتي في الصيف وتعوّج في الشتاء؟!

– تتوتّر أعصابها من برد الشتاء وتتراخى من حرّ الصيف، يا بني !

اذاً الأعصاب هي جوهر عمتي.

والعصب لا يؤثر على ساقيها وحسب، بل يتحكم في مجمل حياتها الأنسانية.

فجسدها أسود يابس. شعرها قصير وقليل. عيناها عميقتان كالليل الأعشى. أصابعها طويلة نحيلة متورّمة العروق. جبينها أعوج. صدرها خافت. بطنها- عفوا فلا بطن لها - فمن صدرها تبدأ أرجلها، التي لا تتناسق إلى الأسفل، بل تصل فورا إلى الأرض. يبدو رأسها المستطيل فوق منكبيها بلا رقبة، فطساء، جدعاء: خيشومها مضغوط من استطالة عينيها فأجبره على الاسترقاق، بينما أرنبتها محكوم عليها بالتوسع، تحمّر شهريا وتتورّم، وعلى حين غرة تتفجّر.

أما وصف الفم فمن رابع المستحيلات، لكونه متبدّل الأطوار. فشكله داخل البيت وبين أفراد العائلة يختلف عما هو بحضرة الضيوف، ويتخذ شكلا مغاير تماما بحضور والدي، إذ يصبح مزموما- مكوَّراً. ويكبر حجمه كثيرا عند النميمة والوشاية. والويل لنا إذا نامت العمة، فيتحول فمها إلى تجويف خرب مهجور يدخل فيه ويخرج منه كل شيء دون حسيب أو رقيب. ومن ذاك التجويف تنتصب أسنانها الثلاثة الفرقة الشبيهة بالصواري المغروزة في الرمال بعد تحطّم السفينة.

ثيابها بالية خلقة دائما.

إنها في خلاف دائم حتى مع الطبيعة الخيّرةالمعطاء.

تكره الأنيقين في ملبسهم، ولا سيما السيدات الجميلات.

أذكر - والعياذ بالله - ثيابها المرقعّة، معطفها الرطب المبلل، قميصها الفسيفساء- المخاط من ألف قطعة وقطعة. فما بالك بشالها، الذي حاول إنكليزي أبله شراءه بوصفه قطعة يدوية أثرية.

* * *

كان لعمتي صندوق كبير مصنوع من خشب الجوز. كان بإمكان أربعة أشخاص التربّع فيه بكل حرية. يصعب عليّ الآن استرجاع ذكرى محتوياته

كاملة، ولكن ما أذكره لكم- ثقوا أنه يرجع بزيه خمسين عاما إلى الوراء- ثياب حريرية، أحذية، أنواع مختلفة من الأزرار، خيوط ملونة متشابكة، مناشف، أغطية، جوارب، مناديل، كلاسين، قمصان، شلحات، إبر/دبابيس / مسلات، أنواع متباينة من النسيج، حلى قديمة/ لؤلؤ، مجوهرات، سجاجيد صغيرة، طاسة فضية، غلايين، سبحات، أحزمة، زجاجات عطور، لوحات، إطارات، عملات قديمة، أقلام مذهبة، محابر، نسخ قديمة من الإنجيل، صلبان من بيت المقدس، وصيّة إرث، شراريب طرابيش، كشاتبين... الخ.

كل هذا والعمة تلبس الأسمال البالية. فجواربها التي ترقعها لأكثر من ثلاثين عاما، لايمكن إدخالها في أي حذاء مهما كان كبيرا.

* * *

قبل سنين عديدة طلب أحدهم المدعو ناظار آغا يدها، لكنها رفضته. وكانت تتأوه متحسّرة :

- كم كنت حمقاء يوم لم أتزوج من ناظار آغا. لو فعلت ذلك لكنت اليوم سيدة محترمة في بيته.

تتأوه عمتي وتتوجع وتذرف الدموع الحرقى التي تتدحرج على خديها الأسودين المتجعدين.

ناظار آغا هذا يمتلك مظلة شبيهة بالسروال المتهدّل، يحملها صيفا وشتاء. شعره جاف متقصّف كأنه الشوك بعينه. يعتمر طربوشا كأنه مدهون بالدسم. أحول العينين: تميل إحدى حدقيته إلى أنفه، والأخرى إلى صدغه. كانت مشيته أشبه بحمار يرزئ تحت حمل ثقيل في الصعود فيندفع الحمل إلى مؤخرته.

لكن ناظار آغا شخص من نوع آخر- في عيني عمتي التي تردد دوما:

- ياله من رجل فارع يختال فخورا في خطواته! إنه رجل قليل الكلام، وقور رزين، بيته عامر بالخير، عمله وافر الربح. أما زوجته المدعوة ألماست فكانت دريئة لشتائمها .

كان لناظار آغا كشكا صغيرا مثلثا خلف السوق، حيث يقوم بدور الكاتب أفندي، إذ كان يخطّ رسائل جاهزة الإنشاء للجنود. أثاث " مكتبه " عبارة عن طاولة مفركشة، وكرسي مشدود بألف خيط وحبل، ومحبرْة مليئة بالشعر إلى جانبها بعض الريش للكتابة بالخط العربي/ العثماني. أضف إلى ذلك جرّة للماء وكأس يتيمة مغبّرة باهتة، ومكنسة تحولت – من قلة الاستعمال – إلى نواس للعناكيب.

كان ناظار يكتب أيضا الإستدعاءات والشكاوى وصكوك الميراث وعقود الزواج والطلاق. كان ينسخ هذه المعاملات من كتاب ضخم في القانون المدني مع تغيير في الأسماء والعناوين والتواريخ.

كان يتقاضى عشر بارات عن كل رسالة مخطوطة و ستين بارة عن كل استدعاء.

ولكن هل فكّر ناظار آغا بعمتي يوما ؟ لا أظن. لأنه حين كان يمّر تحت نافذتنا لا يرفع رأسه البتة، ولا يعير عمتي أدنى التفاتة.

سألت أمي مرة عن ناظار آغا فأجابت:

– لا أذكر جيدا يا بني. لقد شاع كلام بهذا المعنى، ولكن الكلام ظل كلاما.

❋ ❋ ❋

كنت أذهب للحمام مع نساء بيتنا.

لا أزال أكره الحمام الشرقي، إذ يذكرني برائحة البخار والطين، فضلا عن الماء الحار الذي يطفئ القلب، وصور النساء المكتنزات لحما وشحما.

لم تكن عمتي تنشغل بالاستحمام، بل كانت تحملق بالصبايا كي تتفرغ للقيل والقال بعد الحمام. والأمر الذي كان يقضّ من مضجعها أنها لا تستطيع الدوران على البيوت للشروع في الوشاية جراء التعب الذي يسببه لها الحمام. كانت تحك جلدها بحجر الخفاف، وتستعمل الأدوية الكاوية المزيلة للشعر وغيرها من العاهات – وما أكثرها في جسدها.!

أما الغد فهو " أمرٌ " بالنسبة لعمتي. كانت تقوم بتشحيم حنكها ووضع منديلها الأثري على رأسها وهي تدور على بيوت الجيران. تدخل بيت " يغيس ". وهي امرأة تخاف من ظلها، فتغلق دائما ستائر نوافذها، وتخشى ذكر واحد من الناس كي لايقال عنها " نمّامة " . كان ليغيس خانم ولد في الأربعين وابنة في الخامسة والثلاثين. لم تزوّج ابنها تحاشيا للقيل والقال في البلد، أما البنت فلم يرها أحد كي يتقدم إلى طلب يدها. كانت الأم تُخرِجها من البيت إلى الكنيسة مرة في السنة، كانت توقفها في المؤخرة وتسمح لها بإبراز جانب من أنفها، وعين واحدة من تحت النقاب.

كانت عمتي تظن أن " يغيس " ترغب في طلب يد كريمة الخانم " جوهرة " لابنها . وتبدأ عمتي في الحديث عن ابنة " جوهرة " ، التي عاينتها عارية في الحمام بقولها:

- على ظهرها علامتا سكين. ومن يعلم مابها من عاهات وأمراض ؟ فإياكِ أن تطلبيها لإبنك " سمباط ".

فتجيبها " يغيس " خانم :

- لم يحن الوقت بعدُ لزواج سمباط .

وتواصل عمتي كلامها قائلة :

- من واجبي إطلاعك على ما أعرفه.

ثم تدخل دارا أخرى فتعلن على الأشهاد :

- ابنة " هزار خانم " تدهن ساقيها بمرهم للشفاء من مرض عضال.

وفي مكان آخر تعيب صبية ثالثة فتقول :

- حقا أن وجهها جميل، لكن جسمها صلب مثل جسدي أنا.

وتثرثر عن فتاة رابعة :

- إنها مشعّرة كالرجال . وهي تثير الإشمئزاز في النفس.

وهكذا دواليك، بدون كلل أو ملل.

ذات يوم دخلت امرأة إلى غرفتنا في الحمام ورجت أمي السماح لها بالإستحمام معنا. وشرعت المرأة بصب الماء على رأسها في الوقت الذي غادرت فيه أمي الغرفة. فسارعت عمتي لطرد المرأة من غرفتنا. وتدخلت السيدة "اوغابير" مؤكدة أن السيدة " مرغريت " قد أذنت لها بذلك. لكن عمتي صاحت قائلة :

- أنا لا أعرف أية سيدة، هيّا اخرجي من هنا.

غضبت الخانم " اوغابير " وهي امرأة لسينة.

وتراشقنا بالكلام : اذهبي- لن أذهب ، كلبة من أنت ؟! لمَ تنبحين ياكلبة؟!

اجتمعت قريبات " اوغابير " وانفضت الستارة عن فضيحة كبيرة.

خلعت النسوة ماتبقى من ورق التين ولففن بها طاسات الحمام المعدنية الثقيلة وأشبعن عمتي ضربا مبرحا في وسط الغرفة.

كانت أثداء النسوة المكتزات تتمايل هبوطا وصعودا مثل رؤوس الكلاب المسعورة. زلت قدم إحداهن فسقطت على الأرض، وارتضّ لحمها وانكسر عظمها، ولكنها وقفت وقد ازدادت غضبا وجنونا.

كانت عمتي ترد هجمات الطاسات بكرسي الحمام، وتوجّه ضرباتها الى الركب وعظام الأرجل. كانت كل من تتلقى ضربة، تصرخ باكية، وتولول متأوهة متوجعة ثم تسقط مغشيا عليها. وأخيرا، رمت عمتي الكرسي على " اوغابير " خانم؛ فشقت ثديها وارتمت الأخيرة فاقدة الوعي. وصلت أمي المخلصـّة، فأوقفت الشجار. سارعت بدوري لارتداء ملابسي كي أحضر العربة لنقل عمتي إلى البيت بأسرع مايمكن.

❊ ❊ ❊

خـــادمنـــا

كان **كريكور** كبير الخدم في دارنا، وكنا ندعوه تحببا " **كوكو** " .

كوكو أمام الناس خـادم بيتنـا، لكنـه فـي الواقـع - وكمـا يقـول أبـي - مدير البيت.

كان كوكو متوسط القامـة ذا عينيـن حمراويّـن ومنكبيّـن عريضيـن قوييـن. أقدامه كبيرة، ثقيل الحركة. يلّف حول طربوشه قماشا يغطّي نصف جبينه. يجلب لنا الخضار واللحم من السوق، ويعتني بالحديقة، ويسحب المـاء من البئر، ويأخذ صرّة الثياب الى الحمام، وينظّف السطوح من الثلج في الشتاء، ويتعاقد مع الزبّال، ويدّق لحمة الكبة و ... الخ.

أضف إلى ذلك أنه كان - ومن هنا جاءت تسميته مديـرا - يقوم باصطفاء ضيوف البيت، ومن لايعجبه يخاطبه ببساطة قائلا :

- لم تعجبني صفتك* فلا تتردد على هذا البيت .

كان والدي يزجره ويوصيه بعدم التدخل فيما لايعنيه. لكن كوكو كان يعتبر ذلك في صلب مهامه. فمثلا : كان أبي يطلب إليه استدعاء " مرديروس " أفندي ليلعب معه النرد. والأخير من غير المرغوب بهم لدى كوكو، لكنـه كـان حريصـا على ألا يخرج عن طاعة والدي، فكان يذهب الى السوق حيث يلف ويدور ثم يقفل راجعا ليقول :

- لم أجد مرديروس أفندي.

أمضى كوكو خمسة وثلاثين عاما في دارنا. وخلال هذه المدة الطويلة نال

---

* استخدم المؤلف كلمة " صفة " العربية لفظا ومعنى(المترجم) .

كوكو عن جدارة واستحقاق حق الإشراف على البيت - " من قلب وربْ " - كما يقولون ٠إذا طلب أحدٌ عروسا من عائلتنا، توجّب عليه استفسار كوكو٠وإذا طلبنا عروسا لبيتنا، فينبغي على كوكو مرافقتنا لإبداء رأيه فيها٠

إقتصاديات البيت بكاملها موكلة إلى عقله وضميره٠ كان يبدي إهتماما كبيرا تجاه كل صغيرة في البيت، ويحرص على أبسط الأشياء، حتى لو كان الأمر يتعلق بهدر رأس من البصل أو الثوم ٠

عاد كوكو الى البيت يوما، فوجد معلميّن- كان أبي قدر أرسلهما لطرش الغرف٠ أغتاظ كوكو أولا - لأن ذلك تمّ دون الأخذ برأيه ٠ وبعد الدخول في سين وجيم، تبيّن له إمكانية إنقاص الأجرة المتفق عليها٠ وثانيا- قام بصرف المعلمين المذكورين وأحضر غيرهما بأجر أقل، دون أن يأخذ بعين الإعتبار الاتفاق القائم بينهما وبين والدي٠

في الربيع وحينما تبدأ البقرة بالخوار، حائلة بيننا و النوم، يناديه والدي ويوصيه بالبقرة خيرا٠ فيعّب كوكو نفسا عميقا من لفافته ويجيب قائلا :

- دعها تثور قليلا، ياج أفندي ٠٠٠

وبعد تركها أياما لتبلغ قمة الهيجان، كان يسوقها الى قرية " مورنيك " - موطن الثيران الأصيلة، حيث يُخفف من هيجانها وشبقها٠

ويرجع كوكو بالبقرة وقد ارتاحت فعلا، فلا خوار ولا من يحزنون٠ وعندما تصل البقرة الى البيت يسارع كوكو إلى خمّ الدجاج ليأخذ بيضة يضربها على جبين البقرة ثم يدهنها بصفارها٠ يالها من عادة متأصلة تدل على التفاؤل والفأل الحسن٠

لايحق عادة لأي منا أن يقطف شيئا من الحديقة٠ كوكو وحده هو صاحب الحق المطلق فيما يخص الجنينة٠ واذا تطاول غريب على غصن شجرة خارج السياج، فإن هذا يعني قتالا داميا حتما٠ يرغي كوكو ويزبد حانقا ثم يخرج الى الشارع، حيث تنتشر الجلبة والضوضاء، وينتهي الأمر أحيانا بتهشيم الأنف أو كسر الأسنان وما الى ذلك٠ فتحزن والدتي للحدث الجلل وتخاطبه برفق وحنان قائلة :

- دعهم يقطفون بعضا من فاكهتنا. ما الضرر من ذلك يا كوكو؟ أرجو ألا تحرك ساكنا في المرة القادة.

فيرد والشرر يتطاير من عينيه:

- إما أن أموت تحت الشجرة، وأما يبتعدوا عنها ،ياسيدتي!

حقا أن أحدا منا لم يكن يعتني بالبيت - كما كان يفعل كوكو.

كان يدخل غرف النوم ليلا ليطفئ الأنوار مناديا بأعلى صوته:

- هيّا الى النوم.. لقد تأخر الوقت.. بينما لاتستيقظون صباحا حتى تحرق الشمس بطونكم.

كنا نطيعه صاغرين، اذ بمقدوره ضربنا. أجل، كان مخوّلا القيام بذلك إذا دعت الضرورة.

كان كوكو يستشيط غضبا حين يرى خربشة بقلم الرصاص أو خدوشا بالأظافر على جدران البيت البيضاء، فيقوم على الفور بفحص أقلامنا وأظافرنا للكشف عن المذنب. وبعدها يكون الجزاء على قدر الإثم المرتكب، وغالبا مايكون صفعة كف.

عند الخريف يعقد كوكو اجتماعا خاصا مع أمي لتقرير احتياجات البيت للشتاء القادم. ومهما أصرّت والدتي على أن كميات السمن أو الرز أو ما شابه ذلك قليلة ولا تكفي، فإن كوكو يزداد إصرارا على ما اقترحه هو بقوله :

- يجب علينا إعتماد التوفير ياخانم!

ولا مندوحة عن الإقرار برأي كوكو.

* * *

كان كوكو متزوجا لكن زوجته لاتعيش في بيتنا، وإنما في قرية تملك فيها مزرعة صغيرة. كانت تأتي مرة أو مرتين في السنة؛ كي تراها أمي ونحن الصغار، إذ من غير المألوف ظهورها أمام أبي و أخي الأكبر. كان وجهها أحمر كالشوندر ،قصيرة البدن مكتنزة، ترد على الأسئلة الموجهة اليها بانحناءة من رأسها

أو بكلمة ذات نبرة حادة. لم يكن كوكو يبادلها الحديث في دارنا ، وإنما يوجّه إليها أسئلة شبه رسمية عن البيت والمزرعة ثم يسكت. فالكلام أكثر من ذلك يعد وصمة عار.

يصدف أحيانا – لاسيما عندما تكون زوجته في القرية – أن يغضب كوكو من غير سبب محدد؛ فيكسر الصحون أو يرفس البقرة أو غيرها من الأفعال اللاإرادية الغريبة. وعندها ينادي أبي أمي ويدور بينهما حديث من النوع التالي :

– لقد اشتد غضب هذا الرجل مجددا، فارسليه الى القرية كي يرتاح هناك.

كانت أمي تشاطر رأي والدي. وفي اليوم التالي كنا نرى كوكو راكبا الحمار باتجاه القرية. وبعد عودته من هناك كان يبدو أكثر هدوءا ولطفا، وكياسة ولباقة، فلم يكن يثور حتى لو تركنا المصباح مشتعلا حتى الصباح. والأعظم من كل ذلك أنه كان يحملنا– نحن الصغار – على كتفيه. لم أدرك آنذاك ماهية السر العظيم في تقلب مزاج كوكو.

عندما كان كوكو يزداد حدة وغضبا فيكثر من ضرباته لنا نحن الصغار، كنا نسارع بأنفسنا مطالبين أمنا قائلين :

– أرسلي كوكو إلى القرية يا أمنا العزيزة...

ويفتّر ثغر الأم عن إبتسامة حلوة وتقوم بارسال كوكو الى القرية، حتى دون استئذان والدي. كنا نتطاير فرحا أولاً، لغيابه عن البيت أياما معدودات، وثانيا– لتحوله إلى إنسان طيب فوق العادة إثر عودته.

ويمر بعض الوقت فتعود الكربة مجددا إلى نفس كوكو، فنقول :

– يا أمنا العزيزة أرسلي كوكو الى الضيعة...

– لديه أشغال كثيرة يا أولاد، ولا يصحّ إرساله في كل الأوقات...

– أرسليه بحق السماء...

وفي كل مرة كان كوكو يعود من القرية: أكثر طيبة و وداعة.

في أحد الأيام الطيبة تلك أنقذ كوكو حياتي، أو حال على الأقل دون تعويقي.

ثمت كتابة في مركز سقف قاعة بيتنا نقشت يوم بناء الدار وهي الآتية :

" أولادي هاكوب وكيفورك وليفون هم ورثة هذه الدار منذ الآن "·

وطالما أن الدار قد بنيت قبل ولادتي، فإن أسمي لم ينقش هناك· وفكرت يوما أن عدم ذكر أسمي سيحول دون اعتباري وريثا " للدار منذ الآن "· أحضرت المنصب الثلاثي من القبو، وصعدت إلى أعلاه بغية كتابة أسمي في لائحة الورثة· وما أن طفقت في الكتابة حتى أهتز السلم وتمايل· ومن حسن حظي أن ثمة خطاف حديدي بالقرب من الكتابة – نستخدمه في الشتاء لتعليق مصباح كبير– فأمسكت به وأنا واقف على المنصب·بيد أن النزول بات ضربا من المحال· فإن تركت الخطاف إنهار المنصب حتما· وهنا صرخت طالبا النجدة· تناهت إستغاثتي إلى مسامع كوكو، الذي هرع فورا مدركا حقيقة الموقف الخطر· أمسك المنصب الثلاثي بقوة، وبدأت بالنزول مطمئن البال·

بمجرد وصولي إلى الأرض بادرني كوكو بالصفعة قائلا :

- الخطاف غير مشدود، فلمَ صعدت السلم ؟!

وتقبلت الصفعة بارتياح كبير·

عند المساء أجلسني والدي على ركبته وسألني وهو يمسّد شعري الذهبي قائلا :

- لمَ صعدت ياواهان ؟!

أثار حنان والدي الشجاعة في نفسي فأخبرته بالحقيقة كاملة· إستغرق والدي في الضحك وأعلن على الحضور مايلي :

- كل ثروتي لإبني الصغير العزيز· أما البيت فهو ملك له بعد مماتي·

بعد وفاة أبي بسنين طويلة، وحينما دعت الحاجة لإقتسام ثروة الوالد إبان غيابي، اقترحت أمي أن يكون الدار من نصيبي تقديرا واحتراما للوعد الذي قطعه لي الأب، رغم أن ذاك الوعد لا يعتد به قانونيا، بل هو من باب التندر والمزاح · ورثت البيت حقا رغم غياب اسمي في وصية الميراث·

عصيـــان

بعد وفاة أبي تعلق كوكو بعائلتنا بحب صوفي لا حـد لـه، رغم المتغيرات التي طرأت على العلاقات في الآن نفسه ٠فالعلاقة بين والدتي وكوكو بقيت على حالها، بينما تبدلت تبدلا جذريا مع أخوتـي، باستثناء أخـي الأكبر ٠ شرع أخوتـي بالتململ والتمرّد ظناً منهم بـأنهم " ورثـة الدار منذ الآن " ٠ كما ظهرت بوادر التمرد ضد سلطة كوكو عبر سخريتهم من أسلوب إدارتـه، لكنـه لم يعرهم أدنـى التفاتة،إذ كانت أمي تردّد على الدوام عبارة " انهم أطفال فلا تعرهم انتباها " ٠

بيد أن كوكو لم يطل صبره، وضاق صدره بالسـخرية ازائـه، حتى أنـه هدّد واحدا من أخوتي بقوله:

- أيها الغرّ، بإمكاني استنشاقك كما أستنشق السعوط ٠

ومهما يكن الأمر، فقد احتدمت وساءت العلاقة بينه وبين أخوتي، ولاسيما مع ليفون ٠

ففي أحد الأيام دعا ليفون زملائه في المدرسة الذين اجتمعوا فـي قاعة البيت للترويح عن أنفسهم ٠ فنصحه كوكو بالخروج مع زملائـه الاثنـي عشر - وكلهم أشقياء مثله - الى حديقة الدار، حيث يقدم لهم الطعام والشراب٠ لكن ليفون رفض الإنصياع للأمر كونه صادرا عن كوكو بالذات ٠

وتأهب كوكو لكسر شـوكة ليفون إحساسا منـه بأن هيبتـه بـدأت تنهار فـي منزلنا، بينما كان الأمر الناهي طوال أربعين عاما٠ غير أن والدتـي هدأت من غضبه قائلة:

- لا تأبه لهم ياكوكو!

فما كان منه إلا أن أطلق أنّة جريحة وقال :

- لقد قصمتِ ظهري، أيتها الهانم.

وشرع الشبان في هرجهم ومرجهم في القاعة، والذي تعَدى أبسط قواعد اللياقة والأدب. كانوا يدخّنون بلا إنقطاع ويرمون أعقاب السجائر على الأرضية، ويرمون بعضهم البعض بالوسائد، الأمر الذي انتهى بكسر المرآة .

صبر كوكو طويلا وهو يشّد على نواجذه إمتثالا لوصية أمي بالتروي والحلم، ولكنه عندما أيقن أن القاعة قد انقلبت رأسا على عقب، صعد إلى القاعة وطردهم منها واحدا إثر الآخر.

وعندها استشاط ليفون غضبا، ولكنه كان عاجزا عن المجابهة، فشرع يقضم شفتيه بأسنانه. كان مجبرا على الامتثال لهذه الإهانة لو كان الوالد حياء ولكنه - بعد خروج زملائه - رفض الإذعان صارخا بأعلى صوته :

- أنا واحد من ورثة هذه الدار، ولا يحق للخادم التدخل بأمورنا.

فأجابه كوكو :

- و أنا أيضا .

- أما أنت.. فلا...

- وأنا أيضا..

- فصرخ ليفون :

- بل ستخرج أنت من هذا البيت...

كانت هذه " الضربة الرسمية " الأولى الموجهة لسلطة كوكو.

سكت كوكو على مضض. صمت لِيس لعجزه عن الرد، بل لإختناقه بالأسى والمرارة. لقد خدم هذا البيت مدة أربعين عاما أظهر فيها أسمى آيات الوفاء والإخلاص، والعفة والطيبة، وتربى جميع الأطفال، ومن بينهم ليفون، على يديه وكتفيه، وهاهو الآن يتعرّض فجأة لمثل هذه الصدمة العنيفة. اغرورقت عيناه

بقطرات من الحزن والكآبة، وامتلأت أخاديد وجهه بالوحشة والكربة لإنفطار قلبه المكلوم. واستمر ليفون في صراخه الحاد قائلا :

- ستخرج من هذا البيت...

توسّط أخي الأكبر هاكوب لإسكات ليفون، لكن الأخير أعلن الوصيّة القائلة: "هاكوب وكيفورك و ليفون ورثة هذه الدار منذ الآن ".

وعندها تدخلت أمي التي أبدت خالص ارتياحها من صبر كوكو. بدأت أمي الكلام بلطف ورقة، سعيا منها لتخفيف غضب ليفون دون المساس بمشاعره. لكن الأخير استغل هذه اللهجة الهادئة، واستطرد في الإلحاح على طلبه بقوة وعنف بارزيَن. فجابهته أمي قائلة :

- يا بنيّ، لقد عاش كوكو في هذا البيت أكثر منك بثلاثة وعشرين عاما، بينما أنت صبيّ الأمس تحت هذا السقف. واذا كانت قواعد هذا البيت لا تناسبك، فبامكانك مغادرته على الفور.

سكت ليفون . ساد الوجوم فيما بيننا . فالأم قد طردت ابنها من البيت. ياله من أمر خطير حقا .!

صمت ليفون وخرج من القاعة. تابعت الأم كلامها قائلة :

- لقد اعتنى كوكو بهذا البيت، وعانى وشقي في سبيله أكثر منا كلنا. كل حجر في هذه الدار تعرف قدره، فمن الذي يتجاسر على طرده ؟ ياللعار !

وأيقنا أن الوالدة قد وجهّت أصابع الإتهام إلينا جميعا، فأطرقنا خجلين. اقترب أخي الأكبر نحو الأم محاولا التخفيف من حدّة قرارها ازاء ليفون، فقالت:

- أنا لم أطرده من البيت، ولكنه اذا أصرّ على طرد كوكو، فيجب عليه هو مغادرة هذا البيت.

بعد هذا الكلام الصريح، اقترب كوكو من الوالدة والدموع تتطاير من عينيه. قبّل يدها قائلا :

- أرجوك ياسيدتي أن يبقى ليفون في البيت وأغادره أنا٠٠ إنـي راضٍ*عنك تماما٠٠٠

فأجابته الوالدة بلهجة شبه تقريعية:

- لا تكن صبيا مع الصبيان ياكوكو٠٠ دعهم يقولون ما يريدون، ولكن عليك الإستماع لي أنا٠٠٠خرج كوكو صامتا ومن ثم توجّه إلى المطبخ، حيث شرع ينفخ في نارالموقد٠

لم تستفسر الأم عن وجود ليفون فـي البيت٠ تناولنـا العشـاء بهدوء وصمت شديدين٠ حاول كل منا الإنتهاء سريعا والصعود الـى أعلـى٠ بعـد العشـاء أحضـر كوكو لأمي فنجانا من القهوة العربية٠ كان ذلك الفنجـان الصينـي، الـذي يسـتعمله والدي ولم يُسْتخدم بعد وفاتـه قـط٠ أمسكت أمـي الفنجـان والعـبرات تتهمـر مـن عينيهـا العسـليتين الكبـيرتين٠ ولاحظنـا فجـأة بكـاء كوكـو، فانضمننـا اليهمـا بـاكين طويلا حتى قطعت الأم الصمت الطويل بقولها:

- لن يكون هناك أي تغيير في هذا البيت٠٠٠

كان قرار الأم حاسما فأثار الرعشة في نفوسنا٠

استيقظ ليفون صباحا وخرج الى الحديقة، حيث كان كوكو يسقي الأزهار٠

كان صباحا نقيا صافيا كالدمع٠

اقترب ليفون رويدا رويدا ، مترددا حـائرا، ومـن ثـم متشـجّعا ليعـانق كوكـو بحرارة شديدة٠ وللحال وضع كوكو المّرش على الأرض ثم عانق ليفون مقبّلاً اياه وهو يتمتم بحب عميق :

- يا عزيزي٠٠ يا جميلي٠٠ يا روحي !!!

* * *

---

* استخدم الكاتب كلمة " راضٍ " العربية لفظا ومعنى (**المترجم**)

أخـــــي الأكبـــــر

كان أخي هاكوب شغوفا جدا بحصان عربي ولد في دارنا، ولم ير أشجار النخيل قط، كما أن سنابكه لم تطء أبدا رمال الجنوب الدافئة.

بيد أن عينيه كانتا تعكس مناظر الطبيعة الخلابة الساحرة في الجنوب. كنا نحسّ من خلال صهيله الحنين والشوق اللذين يكابدهما نحو الصحراء المترامية الأطراف.

كان الحصان الذي سمّاه هاكوب " **نجم** " أسود كالهرمان، لامعا عاريا، أبيض القوائم، وثمة غرّة بيضاء على جبهته. لم يعرف الحصان اللجام قط. كان حرا طليقا في الدار أيضا. عندما كنا نتحلق حول مائدة الغداء، كان يسارع إلى هاكوب واضعا خطمه على كتفه ريثما يلقمه قطعة من السكر. وبعدها ينتقل الى الوالد والوالدة، التي تمنحه قطعة السكر الأخيرة عن طيبة خاطر والابتسامة تعلو شفتيها كالعروس الجديدة، ثم تأمره بالإنصراف الى الحديقة.

يقضم " **ماران** " السكر ويتجّه نحو الحديقة، حيث يطلق منها صهيلا ينذرنا بأنه بات في الحديقة. ومع الصهيل ينتصب أخي هاكوب واقفا دون أن يتمكن من دفع لقمته الأولى الى فمه، فيتورّد خداه من شدة الفرح والسرور ويتمتم قائلا :

- يا حبيبي!

كان هاكوب ينهض ليلا من فراشه لإلقاء نظرة على " **نجم** " وملاطفته ومن ثم يعود إلى فراشه. كانت حجرة " **نجم** " (معاذ من أن نسميها زريبة) تحت غرفة أبي مباشرة. وعندما كان والدي يسمع حمحمة الحصان الوديعة اللطيفة يقول:

- لقد ذهب هاكوب الى حبيبته ۰!

كان هاكوب يصطحب جواده الأصيل كل أحد الى الحقل المحروث، حيث يطلق سراحه ۰ فيتطاير " **نجم** " كالريح منسابا فوق التراب كانسياب أمواج البحر الهادر ۰وكان الفرح يستبد بالشبان الذين يجتمعون لمشاهدة الحصان المتطاير كالشرر ۰ ولما كان يصل الى تخوم الحقل يقف رانيا بعيونه المشرقة الى الأفاق البعيدة۰ ترى بماذا كان يحلم ذلك الكائن السحري ؟ ! وبعدها يعود أدراجه كالموج المتدافع؛ ليقف عند أقدام هاكوب الذي يفتح ساعديه معانقا اياه وهو يلثم بحرارة ناصيته السوداء المعرورقة۰ فيردد الناس قائلين:

- انه يتطاير فوق السحاب۰

كان هاكوب يعود مع " **نجم** " الى البيت، حيث ينتظرهما كوكو ممسكا ببيضة طازجة يكسرها هاكوب على جبهته كي لايصاب بالعين وهو يردد المثل السائر" عين الحسود لا تسود " ۰

كان " **نجم** " السلوى الوحيدة لهاكوب۰ عندما أنهى دراسته الثانوية عرض عليه أبي الذهاب الى اسطنبول أو أوروبا لمتابعة دراسته العليا، لكنه رفض العرض خوفا من لوعة فراق حصانه۰

كان أتراب هاكوب قد استبّد بهم الشوق الى الجنس الآخر، فيبحثون عنه في المنعطفات والشوارع والكنائس، ومن خلال شقوق الأبواب والنوافذ، وأمام باب الحمّام، وكانت معظم أحاديثهم تدور حول المرأة، تلك المخلوقة الجذابة الساحرة، اللغز المبهم ، التي كانت تعصر أفئدتهم وتسحق أرواحهم بمجرد همسة أو غمزة أو كلمة۰

لقد تزوج الكثير من زملائه وانجبوا أولادا، والبعض منهم لايزال مخطوبا، والبعض الآخر مفضوح بسبب علاقاتهم الجنسية اللامشروعة إذ انضبط عدد منهم في بيت العاهر " **ماريتسا** "۰ لكن هاكوب لايحب سوى حصانه الذي يملأ الفراغ المعشعش في ثنايا روحه۰

ان الذهاب مع حصانه الى المروج من أروع الأوقات وأسعدها في حياته• كان يصطحب معه خيمة وفراشا وغيرها من الأدوات الضرورية لتهيئة الطعام• كان يعيش مع حصانه لمدة ثلاثة أشهر، ينام لياليها تحت الخيمة حانيا رأسه على رأس " **نجم** " • ولما كان الحصان يرعى العشب الأخضر ويقضي حاجته منه، يقف تحت الشمس ويشرع في هزّ رأسه الى أعلى فأسفل ، بينما يراقبه هاكوب الجالس تحت ظلال خيمته فرحا مسرورا •

كان هاكوب يتسامر وحصانه وكأنه من البشر لساعات طويلة، طارحا عليه المزيد والمزيد من الأسئلة التي يتلقى أجوبتها فيمتلئ نشوة وحبورا• وكان أحيانا يلومه على ما بدر منه من ثغرات وهفوات• كان يسأله مثلا :

– هل أكلت اليوم جيدا ؟

فيجيبه بالصهيل موافقا •

– هل سنعود الى البيت قريبا ؟

فيهز الحصان رأسه وذيله متجوابا •

ويدنو" **نجم** " من هاكوب ليمسك بطربوشه ويرميه في الهواء•

هكذا كانا يتحادثان مثل صديقين حميمين• فلم تكن بينهما أية خلافات أو مماحكات، وإنما صداقة ووفاء • ففي الأماسي يستلقي هاكوب أمام الخيمة رانيا ببصره الى السماء وهو يغني ما يطيب له من أغان أو يشدو بألحان عذاب• وعندها يكون الحصان مستمعا لبقا لا يحرّك ساكنا• وعندما ينتهي هاكوب من الغناء يطرق " **نجم** " رأسه حزنا وكآبة فيسأله هاكوب :

– هل تريد أغنية أخرى ؟

فيرسل " **نجم** " صهيلا مرنانا ينّم عن الرضى والإستحسان•

وفي نهاية الخريف يعود هاكوب و " **نجم** " الى البيت فيستقبلهما والديّ استقبال صديقين ودودين• يرجع هاكوب قوي البدن،عظيم الروح وقد أحرقت

الشمس بشرته السمراء كما تحرق عنقود العنب• كان أريج الأزهار العبقة والأعشاب الخضرة النضرة، يفوح من جسده المليء بالعافية• كان كالإنسان الساكن في قارورة العطر• بينما كان الحصان يمور بالحيوية والنشاط ، وازدادت عيناه بريقا ولمعانا، وانصقل صوته فبات صهيله جميلا مرنانا كالذهب الخالص•

ويجلبان معهما الى البيت نضارة الحقول البعيدة، وموسيقى النجوم التي ترصّع القبة الزرقاء• وعندما كان "**نجم**" يطلق أول صهيل له، كنا نشعر أن الدار الباهتة قد امتلأت بالضياء والسناء، ويخيّل لنا أن النجوم قد تساقطت وتفجّرت فوق صفائح الذهب•

فتصرخ أمي قائلة:

- لقد استردت الدار سعادتها ياحاج أفندي!!

هاكوب وصديقه الحصان هما من يبعثان المسّرة والحياة في الدار• ذلك الحيوان الأليف الوفي، الذي ينتشر صوته عبر الزوايا والأركان، والسقوف والجدران، والفنن والأغصان في أشجار الحديقة•

كان هاكوب أحيانا يجّر حصانه إلى فناء الدار، حيث ينام الطفل في مهده (يقصد الكاتب- **المترجم**) ثم يأمره قائلا :

- هيّا•• اقفز فوقه•

فيثب الحصان مرسلا صهيلا خفيفا ثم يطير فوق السرير ويعود أدراجه ليلعق يد هاكوب، الذي يبادله الحب بطبع قبلة على غرته •

ومن الأشياء المسليّة التي كان يؤديها الحصان أنه كان ينظر في صفحة الماء ويرى صورته ، فيثب في الهواء ليعاود النظر ويرى شاكلته مجددا، ثم يقفز إلى أعلى وأعلى، معاودا الكرة مرات ومرات• وبعدها يدنو من الماء ليرسل بخطمه عطسة تثير دوائر الماء التي تطمس معالم صورته، فيسر سرورا عظيما لانتصاره على الحيوان الرابض تحت الماء• غبّ ذلك يرسل صهيلا قويا وينطلق

باتجاه أشجار الكرز ويعدو سريعا بين صفوف مختلف الأشجار حتى يصل إلى حرج البستان الظليل.

وإن حدث وذهب هاكوب ضيفا إلى مكان ما، واضطر للبقاء فيه طويلا، كان يغتنم فرصة سانحة للإنسلال من بين الضيوف بغية زيارة حصانه " **نجم** " والإطمئنان عليه، ثم يعود متخفيا من حيث ذهب. وإن اتفق ولم يحضر هاكوب، فهذا يعني أن الوالدة قد قطعت له وعدا بمراقبة " **نجم** " وألا تحيد ببصرها عنه .

وإن اتفق واصطحب " **نجم** " معه (وكان مايأخذه معه غالبا لكون الدعوة عائلية)، كان يضع بيضة على عجزه كي لايصاب بالعين. كان الحصان يسير الهوينا، ويبدّل مشيته بين آن وآخر، مترنحا ذات اليمين والشمال. وكان الناس في الشارع يتوقفون لمشاهدة هذه اللعبة الصعبة التي يؤديها " **نجم** " بمهارة ونجاح.

هكذا عاش الصديقان هاكوب و " **نجم** " .

* * *

ذات يوم ظهر ورم في أعلى ساق " **نجم** " . ورم لايتعدّى بثيرة صغيرة ما لبثت أن تحولت جرحا كبُر وامتلأ قيحا. وعجز بيطري البلدة عن تطبيبه. فدعا هاكوب الأطباء البشريين الذين أظهروا عجزهم أيضا، بينما الجرح يتسّع رقعة ويزداد تقيحا وتقرحا.

بداية لم يتأثر " **نجم** " كثيرا، لكنه طفق يفقد حيويته تدريجيا، فاختفت إشراقة الفجر من عينيه، وتسللت البحّة إلى صهيله الجميل. وانعكس مرض الحصان على حال هاكوب وسلوكه. وتأثر والدي كثيرا حينما رأى ابنه هاكوب غارقا في بحر من الهموم ، ما أفقده مرحه وفرحه ونشر الهّم والغم على جبينه المشرق.

تناهى إلى مسامع أبي أن هناك بيطريا مشهورا في بلدة سيباستيا ، فأبرق اليه داعيا اياه لمعاينة الحصان. وجاء الرد بأن البيطري سيغادر سباستيا بعد يومين. وعندما قرأ هاكوب البرقية ارتسمت ابتسامة حزينة على شفتيه وانهمرت الدموع من مقليته.

عانقت أمي ابنها القوي مثل هرقل الجبار، ومسحت العبرات المنهمرة على خديه ثم همست قائلة :

- سيأتي البيطري ويشفيه، وإن عجز هذا يحضر أبوك طبيبا من ديار بكر ..

لاتبكِ ياعزيزي...

- آه يا " **نجمي** " العزيز ...

تمتم هاكوب مقبلا أمه وقد تعلقت دموعه من هدبه كما تتعلق النجوم في السماء.

فسّر الكثيرون مرض الحصان بأنه إصابة عين. فأخرجت أمي من صندوقها فيروزة كبيرة علقتها على جيد الحصان .

تأخر البيطري الذي سيقل عربة تقطع الطريق في ثمانية أيام - على أقل تقدير. وذات صباح توفي " **نجم** " .

التففنا جميعا حوالى هاكوب الذي كان يقص علينا حكاية حصانه بكلامٍ مغمّس بالدموع، حكى لنا بالتفصيل عن حوار جرى بينهما، مركزا على الكلام الذي "نطق " به الحصان . ولو قُدّر لأحد من الغرباء الحضور والاستماع إلى كلام هاكوب، لما استنتج أبدا أن الكلام يدور حول الحصان .

اعتنت أمي بترتيب فراش هاكوب ونقلته الى غرفة النوم. ونسي الوالدان كل واجبات البيت، وحرصا حرصا شديدا على الاعتناء بأخي هاكوب؛ كي يخففا من حزنه وأساه على فقدان صديقه. كان والديّ يحبان هاكوب حبا عميقا، ليس لكونه الإبن البكر وحسب، بل ولكونهما لايزيدان عمرا عن هاكوب كثيرا. فأمي تكبره بثلاثة عشر ، ووالدي بسبعة عشرعاما . كانت أمي طفلة حين شعرت لأول مرة بحركته في بطنها. أضف إلى ذلك الصداقة الحميمية التي كانت قائمة بين أمي وهاكوب. لا بل، وأن والدتي لا تتذكر أبدا وقتا من الأوقات، لم يكن هاكوب موجودا في حياتها .

تصرّم شهر كامل وحزن هاكوب يزداد عمقا و اتساعا.

قرر والدي تقديم اقتراحين له: السفر أو الزواج. كان والدي مقتنعا بـأن أحـد الأمرين سيخفف من حزنه أولا، ومن ثم ينسيه الحصان مع كر الأيام. ولذا ذكـره والدي بمقطع من اغنية تقول : " اللي ينساك انساه "*

_ واختار هاكوب السفر طبعا.

اتخذت أمي الاستعدادات اللازمة. أخاطت له ثيابا جديدة واشترت لـه فـروة، وملأت حزامه بالليرات الذهبية.

عانقناه جميعا. انفصلت الأم عنه بشق النفس. قبله والدي رابط الجأش قائلا:

- اعتن بنفسك جيدا.

استغرب الجميع تماسك الحاج أفندي عن البكاء. ولكن عندما تحركت العربـة وابتعدت حتى توارت عن الأنظار، ولج أبي غرفته وفتح الخزانة ثم احتسى كأسين من الشـراب، وبعدهـا رأينـاه والدمـوع تتسـاقط قطـرات مـن عينيـه، وقـد اعتصـر الحزن قلبه وسحق روحه.

اقتربت أمي منه نائحة، بينما شدّ أبي على شفتيه دون أن ينظر اليهـا.وأخيرا، عجز عن الصمود فاجهش بالبكاء وهو يقول :

- لقد مات " **نجم** " للتو...

تفوّه بهذا الكلمات وطلب مزيدا من المشروب.

فهمست الأم متمتمة :

- لم يشأ الرب فرحا لإبني.

وصب والدي جام غضبه على القدر، بينمـا خرجت أمـي راسمة اشـارة الصليب مستغفرة رب العالمين.

رجع هاكوب معـافى سليما، قـوي البنيـة، لا بـل وقـد اشتدت قامتـه وصلـب عوده.

كان المعارف والأصحاب يسألون الأم :

---

* في الأصل " يوم ويمرّ فلا تبك " والمقصود لاتبك على مافات(**المترجم**)

- هل عاد هاكوب حقا ؟!

فتجيبهم بزهو وفرح :

- أجل، لقد عاد غصن البان ٠

لقد متّع هاكوب ناظريه برؤية البحر والعديد من المدن الكبرى: اسطنبول وصمصون وازمير وفارنا٠ كان يحكي لنا ما شاهده لأيام مديدة، وكنا جميعا معلقين في شفتيه٠ ولما كان الوالد قد رأى كل ذلك، لذا كان يوجّه اليه العديد من الأسئلة :

- هل رأيت اسكودار ؟
- أجل٠
- وقرية بوياج ؟
- نعم رأيتها٠
- هل أكلت المقادم قرب اسطنبول ؟
- أكلتها٠
- مرحى لك اذا٠٠ لقد زرت كل الأماكن المشهورة٠٠٠

حينما سمعت الأم أن ابنها زار كل المدن التي طرقها زوجها استبدت بها فرحة طاغية لم تشعرها من قبل٠

- هل استحميت في حمّام غوزة ؟
- كلا يا أبي٠ لم يسمح لي الوقت بذلك٠
- و أسفاه٠٠ كيف يصل الانسان غوزة ولا يستحم في حمامها؟ إن قدر لك المرور بها ثانية فاستحم به حتما٠
- أجل يا أبي !

انقضى شهر كامل وشغلنا الشاغل الرحلة التي قام بها هاكوب٠ كنا نستمع اليه بفضول وشوق عظيمين، ونأكل ما أحضره مما لذّ و طاب، ونلبس ما قدّمه لنا

من هدايا. كان قد أحضر لي حذاء أحمر. انتعلته وخرجت الى الشارع، فخيّل لي أن كل سكان البلدة يسترقون النظر اليه.

بعد انقضاء الشهر، قام هاكوب خفية بفتح باب منامة " **نجم** "، التي قفلها بيده و سافر. خرج منها وقد خيم الحزن عليه. أن ذكرى " **نجم** " الأليمة، وغياب أماكن التسلية في المدينة- باستثناء الحدائق الفردوسية الغناء - أثارا في دخيلته مشاعر الأسى والكآبة. الأمر الذي لم يعره انتباها في البداية، ولكنه أثار تدريجيا قلق الوالدين.

وفي أحد الأيام - وبينما كنت جالسا في حضن أبي الذي كان يداعب شعري الأشقر- نادى والدي أمي ودار بينهما الحوار التالي عن هاكوب:

- يجب أن نزوّج الولد، يا امرأة.

شعّت عينا الأم فرحا وقالت:

- هلا أقنعته بذلك ؟

- سيقتنع. لقد تضخم شارباه ويبدو أنه دسّ أنفه في صدور فتيات اسطنبول، وأنه بات متبصرا في الأمور، وأن الصبي " عقلو براسو وصار يعرف خلاصو".

لم تستحسن الوالدة لهجة الغمز واللمز هذه فسألته :

- وكيف عرفت ذلك ؟

فرّد بايجاز قاطع :

- اسألي، فأجيبك يا امرأة.

وعدته أمي بنقل رغبته الى هاكوب ثم أوصاها يقول :

- أخبريه بلباقة.

وقررا معا أن تكون العروس جميلة فاقترح والدي قائلا :

- المهم أن تكون جميلة ولا يهّم أصل وفصل العائلة.

وصعقت الأم لهذا الكلام الصادر عن أبي المتمسك بتلابيب الحسب والنسب، والأصل والفصل؛ وكل ذلك بغية إظهار حبه العظيم لإبنه هاكوب. ولكن أمي أضافت تقول :

- يجب أن تكون جميلة وابنة حلال.

- زيادة الخير خير، يا امرأة.

أعرب هاكوب عن ارتياحه لهذا الاقتراح وبدا أن والدي كان محقا حين قال بأنه " دس أنفه في صدور الفتيات ". وبدأت عملية البحث عن فتاة. واتضح لنا جميعا أن الوالد لا يبدي أي تسامح ازاء عدم الأهلية والكفاءة، والمروءة والشرف، لا وبل تجاه أقل الصفات الانسانية . واخيرا، أشارت أمي الى فتاة جميلة جدا، لكن والدي اعترض عليها بقوله :

- ليست مرفوعة الرأس.

وينست أمي من فكرة ايجاد عروس مثالية كما يتصورها والدي في ذهنه، إذ لم يكن لها وجود في الواقع. وذات يوم أعلن يقول :

- أنا لا أريد فتاة، بل تمثالا .

انقضى شهر كامل. لم تعد الوالدة تتحدث عن الزواج اطلاقا.فسألها أبي مستفسرا:

ألم تجدي عروسا مناسبة ، يا مرغريت ؟

- إنك تريد ملاكا يا رجل. فهل ثمة ملائكة في هذه الدنيا ؟

- " يسلم تمّك يا امرأة " .. حقا أني أريد ملاكا طاهرا.

- ما من ملاك قط.

أجابها والدي بحزم :

- بل هناك ملاك وقد وجدتها.

- من هي ؟!

- ابنة كريكور آغا.

- إنها صغيرة !

- لتكن صغيرة. ألم تدخلي أحضاني وأنت في الثالثة عشرة من عمرك ؟!

سكتت والدتي خجلا وأيقنت أنه كان على صواب. وأخيرا سألته بصوت مضطرب :

- هل يعطوننا اياها ؟
وهنا انجرح كبرياء الأب الذي قال بنبرة حادة :
- سأطلبها منهم وليرفضوا إن استطاعوا لذلك سبيلا. الفتاة في الثالثة عشرة وابني في الثامنة عشرة، فما الداعي للرفض.
أضافت الأم فخورة :
- إنه شاب كالضرغام.
كانت " اليصابات" بنت كريكور فتاة جميلة جدا. كانت الصبية المثالية التي ارتسمت في مخيلة والدي. إنها أشبه بالإلهة فينوس مع اختلاف في بشرتها الوردية، وشامة سوداء فوق حنجرتها. كانت سريعة الحركة، رخيمة الصوت. ولما سمع هاكوب بالأمر تطاير فرحا وعانق أمي بفرح منقطع النظير.
وذات مساء ذهب والدي الى كريكور آغا. وبعد حديث مطوّل عن شتى المسائل والقضايا، كلمّه عن اليصابات. فردّ عليه كريكور آغا قائلا :
- ابنتنا طوع بنانك ياحاج أفندي، ولكن امنحني فرصة للتشاور مع أمها.
أجابه أبي :
- حسن جدا.
في مساء اليوم التالي تسلمنا من بيت كريكور آغا صينية بقلاوة كبيرة علامة للرضى والقبول. وهكذا استمر تبادل الهدايا بيننا وبينهم لأيام متتالية.
وبعد سبعة أيام عادت والدتي من الحمّام وصعدت فورا الى الأعلى. أخبرت والدي بأنها شاهدت اليصابات في الحمام، فسألها على الفور :
- هه، كيف هي ؟
- انها قمر الزمان.
وحكت له كيف أن اليصابات – باشارة من أمها – أقبلت عليها ولثمت يدها. وكيف أن أمي مانعت في عودتها الى أمها، بل أبقتها عندها فقامت بتحميمها وتمشيط شعرها وتلبيسها، وكيف أنها أرسلت أفراد العائلة كلهن بعربة خاصة. وهنا صرخ أبي قائلا:

- أحسنت يا بنت الحلال !

ولم يدم الانتظار طويلا، اذ تمت الخطبة والزيجة بأسرع ما يمكن.

حرصت الوالدة على أن يكون العرس كاملا لاتشوبه أي شائبة. ولكن جدالا عقيما احتدم بين أبي و أمي، اذ رفض هو أن يتزوج ابنه على يد كاهن. كان مصرّا جدا على ذلك بقوله :

- سنأتي بالعروس من بيت أبيها الى بيتنا وينتهي الأمر.

فترد عليه أمي قائلة :

أنا معك، ولكن هل يوافق أهلها على ذلك ؟

كان والدي يدرك تماما استحالة إدخال العروس الى البيت بدون اكليل، ولكنه لم يكن يطيق صبرا تدخل الكهنة في الأمر. وأخيرا، وبعد جدل طويل، تنازل أبي وقبل أن يتزوج ابنه في الكنيسة، شرط الا يدخل الكاهن بيته بعد الاكليل. وافقت الأم على مضض، ولكنها استقبلت الكاهن خفية عن والدي، وأمرت الخدم بالا يخبروه بالأمر. أجل، لقد أبلت بلاء حسنا في اكرام الكاهن وودعته بما استقبلته به من حفاوة وتبجيل. ربما كان والدي على علم بأن أمي ستفعل ذلك لا محالة، لكنه لم يكترث للأمر كثيرا كونه يجري في السر، وتظل مشيئته قيد التنفيذ، ولو من الناحية الشكلية.

عمت الفرحة دارنا مع مقدم اليصابات. كانت فتاة صغيرة تلعب معنا بالكرة، وتتراكض معنا في شتى أرجاء الحديقة، لا بل وتسبح معنا في الحوض. وعندما كان هاكوب يعود الى البيت يحتضنها بقوة رافعا اياها الى أعلى وهو يرسم قبلاته على خديّها ويحملها الى غرفته صائحا بأعلى صوته :

- أنتِ " نجمي"، ياعزيزتي " نجم "...

* * *

أخـــي كيفـــورك

أتذكر أخي كيفورك الأصغر من هاكوب باعجـاب وفخر، لكونـه الوحيد فـي الأسـرة المتحرر من الاضطـراب النفسي. كـان قـادرا علـى تبديد الغضـب ومعادلته بالصفر المطلق. ولما كان الغضب يستبّد بأحد ماء ويتطـاير الشـرر مـن عينيه، ويهدر كالرعد المتصاعد من أرضية الغرفة الى السقف، وليس كالنازل من السماء- كان كيفورك يبتسم ابتسامة نضرة، ويطلق ضحكةمدويّـة، أو يحكـي نكتـة تحيل الجو المكفهّر المكهرب الى سماء صافيـة تسـودهاالراحة النفسية. وكـم مـن حالة عابسة مشبعة بالهم والأسى، بدّلها بحالة ضاحكة ترفرف عليها أجنحة الفـرح والطرب. ويحدث أحيانا أن يتخاصم اثنان ويبرق لمعان السكاكين الحادة، فيتدخـل كيفورك سريعا بين المتقاتلين بهزله وسخريته المعتـادتين، فيعّم السـلام و يستتب الأمن بين الطرفين.

كنت – ولا أزال – معجبا به وفخورا. فهـو خفيـف الـروح، حـاضر النكتـة، لطيف المعشر، لين العريكة، ثابت الأعصاب- الأمر الـذي أوصلنـي الـى استنتاج مفاده : أن الانسان يكبّر ويمجّد الصفات التي لا يتحلى بهـا. فكيفـورك كـان بعيـدا جدا عن الشهوات والنزوات. ولعل أعظم شهوة عنده هو حبه المتنـاهي لـلزبيب. فهـو لا يعتبره نوعـا مـن الحلوى والأطـاييب، وانمـا يعده بمثابـة طـائر الأحـلام الأزرق. كان يقايض الزبيب بأغلى ما يملك.

أصيب كيفورك يوما بالحمّى. اقترب والدي منه واضعـا يـده علـى جبينـه ثـم سأله:

- هل تريد زبيبا، ياكيفورك ؟

فتح كيفورك عيونه وشعر وهو في أتون الحمى باشتياقه الشديد للزبيب، لكنه أجاب بنبرة يائسة :

- لا، لا أريد، فأنا مريض.

وهنا يأمر والدي باحضار الطبيب فورا؛ لأن رفضه للزبيب يعني أنه في حالة يرثى لها. كما كانوا يختبرون تماثله للشفاء بالزبيب أيضا، اذ كانت أمي تسأله قائلة :

ماذا تشتهي يا قرة عيني ؟

وتلمع عيناه السوداويتان، وتتخذ شفتاه شكلا يتضح منه أنه سيقول :

- أريد زبيبا.

* * *

أخـــي ليفـــون

أذكر أيضا أخي ليفون البرونزي اللون، والذي كنا نسميه في البيت "لولو"• كان لولو رجلا أسمر البشرة نقيّها، حليق الذقن دائما، رافع الرأس، فارع الطول، قويّ الحنك، أسود الشعر • كانت عيناه سوداويتين نجلاوتين•

كانت عيناه تقدحان شررا عند الغضب، ويدوي صوته في أرجاء البيت، ويلمع نصل السكين في يده• هذا الشاب المرهوب الجانب كان يتحلى بطيبة قلب الحمامة الوديعة•

لم يكن كيفورك يغضب البتة، ولم أره باكيا قط•

بينما كان ليفون كالوحش الكاسر في ثورته وغضبه، ويبكي مثل طفل أجعد الشعر فقد كعبا يلعب به•

لم يكن يدرك مثله الأعلى في الحياة•لم يمت ميتة طبيعية، بل أغتيل إغتيالا• لكنه واجه الموت بشجاعة قلّ نظيرها• كانت المواجهة مأسوية الى حد بعيد•

كان ثمة تعبيران يرتسمان على قسمات وجهه: ابتسامة الطفل و تكشيرة الوحش•

كنت مأخوذا ببرودة أعصاب كيفورك، ولكني كنت مغرما بروح المغامرة التي اتصف بها • كنت مولعا به جدا ، لاسيما حين كان يقصّ علينا ماجرى معه من أحداث باسلوب مثير جدا :

– لما نزلنا الوادي وتوارت الشمس عن الأنظار، رشقتنا السماء بوابل من البَرَدِ كل حبة منها بحجم الرأس و ••• الخ•

لقد مرّ من خلال النار والماء في معترك الحياة، ولم يجد شيئا واحدا ينسجم مع حماسه و اندفاعه سوى بورصة نيويورك، المدينة الرهيبة في الغرب• لقد

انخرط في معمعان البورصة تحدوه شهوة الثروة والغنى، فتقلب في صواعدها وهوابطها. وصل الى قمة الثروة، وسقط الى مهاوي الإفلاس. عاش لحظات رهيبة في حياته : امتلك يوما الملايين، وتطلع يوما الى الفلس الأخير، ولكنه في كلتي الحالتين بقي محافظا على ماء وجه، ورجولته وإقدامه، واندفاعه وحماسه المتجددين دائما. فما من شيء على وجه البسيطة أثار الرعب في نفسه. كان كمن يرمق بعيونه السود الآزال و الآباد.

استقبلني لأول مرة على ظهر الباخرة الفرنسية " له تورين " وسألني فجأة:

- كيف الوالدة ؟

- بخير، ولكنها تبكي كثيرا حين تتذكرك وكيفورك.

ولمحت الدموع في أعماق عيني ليفون .

أمسكني بيدي ودخلنا معا الى اليابسة الأميركية.

وفي تلك الليلة عرّفني لولو على نيويورك وقال:

- أترى هذه المدينة العظيمة ؟ هذه بلاد ما بعدها بلاد أخرى. وكل ما ترغب فيه من علم ومعرفة ستجده هنا، فأرني همتك ياعزيزي.

كان يومها مالكا لأسهم السكة الحديدية.

لم أدخل عالم البورصة مثل أخي لولو، بل عالم الكتاب، وبذات الحماس والاندفاع اللذين دخل فيهما ليفون دنيا المال.

* * *

أســــــتاذي عاشــــور

علمّــي الأبجدية الأرمنيـة أستاذ آشوري يدعـى **عاشور** • كـان ربـع القامـة، عريـض المنكبيـن، ذا جبين عريـض بـارز العظـم، أصلـع الـرأس، بـارز الوجنتين، أزرق العينين • كـان لـه شـاربين عريضيـن يستدقان ويسـترقان ليتدليا على جانبي الفـم المنفتـح دائمـا، فتخالهمـا ذيليـن صـغيرين يغطيـان الأسـنان العليـا الكبيرة وتجويف الفم الأفوه- والعياذ بالله• لـم يكـن الأسـتاذ عاشـور متمـايزا عـن التماثيل البابليـة القديمـة الصنـع إلا بنظارتيـه، وهـو مـاحطّ مـن هيبتـه وقـدره بيـن النـاس•

كان عاشور شاعرا أيضا ينظم القصائد باللغة الأرمنيـة شبه القديمـة، ويحـذو حذو فطاحل الشعراء فـي انتقـاء عنـاوين قصـائده، مـن أمثـال : " ترنيمـة الطفـل " و" مرثيـة المرحـوم والمغفـور لـه النبيـل نقـولا آغـا أظنافوريـــان " و " الملائكــة " و"لأجل خلاص الأسرة " و " بنات السماء " وغيرها من الأشعار التي كان يكتبهـا، وكلها مهداة لهذا أو ذاك من الناس أو للمناسبات •

الأستاذ عاشور هو أول من علمّني تهجئة جملة " نجني أيهـا الصليب "•كـان الكثير من الأطفال يجدون صعوبـة بالغـة فـي تهجئـة هـذه الجملـة• ولكـن للاستاذ عاشور طريقة بسيطة جدا للتغلب عليها، وأعني بها ضربة العصـا• وإنصافـا منـا للحقيقة نقول أن تلك العصا، كانت تطال المواضع الهشّة من جسم التلميذ• الأمـر الذي كان يلاقي استحسانا لـدى الأهـالي الذيـن كـانوا يشـجعونه بقولهم " حـذار أن تُورّد المواضع البضّة من الجسم "•

بعد تعلم الحرف والتهجئة والقراءة، تركنا الأستاذ عاشور وانتقلنا إلى المدرسة•وفي الختام تلا علينا خطابا مكتوبا على صفحة كبيرة لم نفهم منه شيئا لكونه بالغرابار (وهي اللغة الأرمنية القديمة) • كل ما أدركناه، أنه توخى تقديم مزيد من النصح والإرشاد• كان عنوان العظة " وأما بعد " والتي لم نفهم معناها إلا " فيما بعد "•

لكن الأستاذ عاشور لم ينسنا قط• كان حين يلقانا في الشارع يستوقفنا آمرا بقوله " اقرأ كتاب المطالعة الأرمنية "• بدا وكأنه يرغب في معرفة مدى اجتهادنا وتقدمنا• وحينما كنا نجيد القراءة، كان الأستاذ عاشور يتمتم بفرح عظيم " ما شاء الله•• لقد نبتت بذرتي "•

ظهر الأستاذ عاشور يوما في دارنا وعلامة الرضى على محياه وقد اتسعت عيناه الزرقاويتان• قبل ظهوره بأسابيع قليلة، كنا قد وارينا الثرى ابن أخي الأكبر المدعو ديكران• وكنت قد نظمت في رثائه قصيدة أرسلتها سراً إلى جريدة "الصحافة الشرقية " التي تفضلت ونشرتها، فكانت باكورة ماكتبت طراً • لقد حضر الينا الأستاذ عاشور بعد قراءته للقصيدة والبسمة على ثغره والفرحة في عينيه•

وبعد أن كال لي بعض المديح والإطراء أعلن على الأشهاد قائلا :

- ماشاء الله•• لقد أعطت غرستي ثمرا•••!

وشعرت أنني في السماء السابعة•

* * *

أخـــــواتـــــي

كانت لي أخوات ثلاث وهن : خاصيك وسيرانوش وتزاينيك.

خاصيك أصغر من أخي الأكبر، وأكبر من كيفورك وليفون، وأنا الأصغر بين أخوتي. لكن سيرانوش وتزاينيك أصغر مني سنا.

خاصيك أتذكرها مقرونة بوالدي، إذ كانت تحضر له خُفيّه وتصب له الماء فيغتسل. كانت متفانية في حب العمل، وتشعر بسعادة طاغية جراء خدمتها لأبينا.

لا أدري كيف ولعت برجل قادم من أميركا ذي أسنان ذهبية. كل ما أدركه الآن، أنها كانت تعيسة الحظ معه. كانت متفانية في خدمة الآخرين وتقديم كل ما تستطيع اليه سبيلا.

كانت سيرانوش فتاة ذات عينين نجلاويتين سوداويتين وبشرة بيضاء وشعر كثيف. امتازت بطلاوة الحديث، وروح النكتة البارعة المثيرة للضحك، لا بل والإنفجار في الضحك. لم تكن تميل للمجابهة مع خصومها، بل تتبع أسلوب السخرية الرقيقة . وهكذا كانت أيضا مطرزاتها الرقيقة الرائعة.

كنا نذهب معا الى المدرسة. كنت أسير في المقدمة. وعندما نبتعد عن البيت، كانت تمسك بيدي وتلتصق بي رويدا رويدا، فأشعر بالفخر كوني أدافع عن فتاة رقيقة. كنت أحبها كثيرا؛ لأنها لم تضايقني، ولم تسخر مني أبدا.

عاشت سيرانوش عيشة تعيسة أيضا لأن أيدٍ شريرة اغتالت زوجها.

تزاينيك هي صورة طبق الأصل عني، لو قُدّر لي أن أكون أنثى. زرقاء العينين، سوداوية الحاجبين وأهدابها أشبه بالرماح، شعرها أسود فاحم، بيضاء البشرة. وكانت إذا غضبت لحظة، أشرقت اللحظة التالية. كنت متفهما لها جدا. كانت لغزا عصيا على الآخرين، ولكنني كنت أقرأ طباعها و سجاياها، وحتى

تصرفاتها في اللاوعي تماما، كما أقرأ كتابا مفتوحا. تلك الأعمال التي كنا ندعوها بالمبهمة والغامضة، كنت على استعداد للقيام بها تماما مثل تزاينيك.

كم أتذكرك يا أختي، يازرقاوية العينين. وكلما أتذكرك تمتلئ روحي بالصور: أتخيّل الحديقة والسطح وشجرة الأكاسيا المزهرة. أذكر أوراق الخريف الصفراء تسوقها الريح لتجمعها أمام دارنا. أسترجع صورة ندف الثلج البيضاء وكيف كنتِ تتطوطين فوق الثلج. وإن نسيت فلن أنسى أبدا الأمومة التي تجسّدت فيك من خلال أمي. لقد كنت يا أختاه آخر من رقص بين ضلوعها، وبكِ أنت صمتت قيثارتها الى الأبد. كنتِ آخر من رضع حليبها الطاهر، كنت البنفسجة الأخيرة، والأغنية الأخيرة، والفرحة الأخيرة بالنسبة لأمنا.

* * *

فتيـــات طفولتـــــي

ثمة فتيات عدا أخواتي - كن يكبرن مع طفولتي، كن يزدهرن ويشتعلن على شواطئ طفولتي.

لاتزال أصواتهن ترّن في مسامعي، وتزهر ابتساماتهن أمام ناظري. كنّ ربيعا يركض في الربيع، وأزاهير يتمايلن في أحضان الزهور.

احداهن " **كريستين** " الممتقعة اللون كالعسل النقي البارد، ولكن ما أن تنظر اليها حتى يتوردّ خداها، ويحمّر وجهها، فتخالها ستشتعل على الفور. كانت صغيرة مكتنزة ذات يدين بضتين مستديرتين.

كنت أدنو منها خلسة، محاولا الإمساك بشعرها، فتهرول هاربة مقهقهة. كانت ضحكتها شبيهة بألحان سيمفونية خالدة.

كانت كريستين تهرول في دروب الحديقة كما تخفر الظباء والأيائل في الأدغال. وكانت تصعد إلى الطابق العلوي لتفتح نافذتها سريعا وترشقني بوابل من ضحكاتها المرنانة.

لم تكن كريستين سوى نجمة سقطت من السماء.

- هيا انزلي.

- لن انزل، ستشدّ شعري.

- تعاليّ، لن أشدّه.

وتنزل الى الحديقة. أبتعد الى داخل الأيك فتلحق بي. أقف في موقع لا يقدر أحد على رؤيتنا فيه، ولو نظر الينا من السماء.

تقف كريستين في الخميلة الغنّاء فتبدو مثل شعلة أوقدتها يدٌ خفيّة وغابت عن النظر ٠ أقترب منها خلسة٠ وعندما تراني تحني رأسها٠ فيختلج قلبي متراقصا في قفص صدري٠ أمسك بشعرها سائلا :

- هل أشدّه ؟

فتهمس كريستين :

- شـدّ ه !

- لا، لن أشدّه ٠

أقول ذلك وألثم شعرها بأطهر قبلـة، وانتشق عبيره الذي يبزّ أذكى أزهار الحديقة٠ وحينما أمسك يدها كانت تتوقد عيناها، فتهرب مجددا مثل خشفة مذعورة خشية أن يباغتنا أحد ما٠

ليس هناك الآن أي مشعل في تلك الخميلة الخضراء٠ رحمات الله عليك يا كريستين٠

إنني أذكرك يا كريستين! يانجمة سقطت من السماء وتجسّدت فيكِ، وتخلدّت بكِ٠

* * *

كنت أرى " فيرون " مرة في العام٠ كانت أمي قد خطبتها لي وهي في مهد الطفولة٠ وهذا السبب كان كافيا لتهرّبها مني٠ إني أتذكرك أيتها الفتاة الرادنية الصغيرة ذات الأسنان العاجية٠ أتذكر غمازتك، ويدك البضّة التي لم أرها إلا على صدر الجوكندا٠ كما أذكر جبينك العالي والعريض٠

لقد تناهى الى مسمعي أن السماء قد أطبقت على حدائقك الغنّاء فجعلتها أثرا بعد عين٠

لكن ذكراك ما تزال ماثلة في خاطري ٠ أنتِ يامن انطفأت حياتها في ربيع العمر٠

* * *

أذكر أيضا " **ريبيكا** " ابنة خالتي٠

كانت ريبيكا فتاة صحيحة البدن، سريعة الحركة، مليئة بالحيوية والنشاط، ذكية فطنة، وشاعرة٠ عيناها الزرقاوان النجلاويتان كافيتان لرفع السماء المنهارة إلى عمادها٠

لقد انهارت السماء فوق أزهار السوسن البيضاء العالية التي تفتحت مع بزوغ فجر ريبيكا٠ سمعت أن الأتراك ساقوها الى الصحراء العربية٠ وسمعت أيضا أن العرب الأمجاد قد وشموا وجهها المنير؛ كي ينقذوها من براثن البرابرة والوحوش الكاسرة٠٠٠

انني أنحني إجلالا وتكريما لقدرك الرهيب، يا أختاه ٠٠٠

وتقبلي من أخيك دموعه الحرقى٠٠٠

❊ ❊ ❊

أســــتاذ الرياضيــــات

كـان شارعنا جزءا من طريق الشرق القديم، الذي امتد من روما وصولا إلى عاصمة الامبراطورية البيزنطية، حيث ينقطع بالبحر الأزرق ثم يواصل خطه الدائري حول آسيا الصغرى ليمّر من أمام ببيتنا ، ويتابع مسيرته الى بغداد - " نهاية الدنيا "٠

كانت بغداد المدينة الأقصى بالنسبة لنا٠ فلم يكن هناك أي بلد في معلومنا وراء بغداد٠

رجل واحد من دنيانا سافر إلى بغداد، ولما عاد منها خرج نصف سكان البلد لاستقباله وهم يصيحون قائلين :

- ياللعجب ! لقد سافر الى بغداد ورجع سالما معافى!!

حين بدأت دراسة تاريخ الإغريق والرومان والحملات التي شنّوها نحو الشرق، وتعرفت على سيرة الاسكندر المقدوني ويوليوس قيصر، واطلعت على حروبهم مع الفرس، وقرأت عن الطرق التي أنشأتها الامبراطورية الرومانية- ازداد حبي لشارعنا واعتزازي به٠ كنت أتخيّل جيوش الاغريق والرومان مارة أمام دارنا٠

عندما كنت في الثانوية - ولست أدري الآن عن أية حملة كنت أتحدث- نجحت تماما في تمرير الجيش الغازي بشارعنا، فضحك الأستاذ في سرّه ولم يشأ تصحيح الخطأ التاريخي الذي وقعت فيه٠

* * *

وشارعنا هو في ذات الوقت صلة الوصل بين مدينتنا وبين المدن والقرى والدساكر الأخرى٠ففي جميع فصول السنة يمرّ صباحا بشارعنا أصحاب الحوانيت و الحرفيون و المزارعون القادمون من المدينة القديمة والقرى المجاورة ليعودوا أدراجهم عند المساء٠

من بين هؤلاء الناس أستاذ الرياضيات في مدرستنا العليا٠ كان يمتاز عن بقية الأساتذة بكونه يرتدي قميصا ذا قبة بيضاء منشاة، ويركب حمارا أبيض٠ ولا أبالغ إذا قلت أن الحمار كان أكثر شهرة منه بالذات٠ لماذا ؟ لأنه كان كل صباح يرسل نهيقا منكرا يوقظ جميع أهل الحارة الذين يرسمون الصليب طالبين الرحمة والغفران من رب العالمين٠

كان كل من يملك ساعة في البيت يضبطها على نهيق الحمار: السابعة والربع صباحا٠ أما الذين لايملكون ساعة في دورهم، فكانوا يلعنون الحمار وصاحبه الأستاذ قائلين:

- بئس الأستاذ و الحمار معا٠٠٠

التأم في بيتنا اجتماع برئاسة نقولا آغا حضره أستاذ الرياضيات أيضا٠ حين دخل الأستاذ الغرفة، أخذ الخادم حماره وربطه الى الشجرة٠ كنت طوال الاجتماع واقفا عند عتبة الغرفة وقد تلخصّت مهمتي في إشعال لفائف السجائر، التي قد يرغب في تدخينها أي من أعضاء مجلس الإدارة ٠

شبّ أثناء الاجتماع جدل حاد حول ترقية راتب أستاذ الرياضيات٠ أصرّ الأخير على العلاوة، بينما رفض المجلس طلبه٠ كان الأستاذ يعيش في القرية ويرفض السكن في المدينة٠ ومن الواضح أن ذلك يفرض نفقات كثيرة تتعلق بالذهاب والعودة٠

وأخيرا، نطق أحد أعضاء المجلس الذي امتدّ شاربه ليختلط بشعر قفاه - نطق بصوت أجش قائلا:

- أما حان للحمار أن يستريح، ياحضرة الأستاذ ؟

وقبل أن يرد الأستاذ عليه – نهق الحمار نهيقا قويا ارتج على أثره زجاج النوافذ المطلة على الحديقة. واستدار الأستاذ نحو الرجل ذي الشاربين الطويلين وقال له:

- هه، هل تلقيّت الجواب ؟

بيد أن الرجل لم يرتبك وإنما رد بحزم مهاجما:

- إن كنت تعتمد على الحمار أيضا في تدريس الرياضيات، فعلى الدنيا السلام.

واتضح لي من خلال النقاش الحاد أن المجلس هو الذي خصّص الحمار للأستاذ واسطة للنقل، وهذا ما نصّ عليه صراحة العقد المبرم . ومن هنا بالذات كان الذين لايستفيدون صباحا من شهيق الحمار في ضبط ساعاتهم،يلعنونه وحماره قائلين:

- تبا لك من أستاذ يركب الحمار على حساب الأمة!

* * *

المومـــس

بعد أيام من ذاك الاجتماع تعرّض رئيسه المتغطرس نقولا آغا للتهكم والسخرية في عموم البلد. كان في مدينتنا امرأة واحدة مشهورة بسمعتها السيئة تدعى **ماريتسا**. ويحكى أن العاهرة التي سبقتها كان اسمها ماريتسا أيضا، فكان الناس يطلقون اسم ماريتسا تحاشيا منهم لذكر كلمة " العاهر ".

فمثلا يسأل احدهم الآخر:

- من أين ؟

- من عند ماريتسا.

كانت أصابع الإتهام توجه إلى ماريتسا من كل حدب وصوب: من الزوايا والأركان، من النوافذ والأبواب، ومن على سطوح المنازل. كانوا يشيرون اليها دون التجرؤ على الحديث معها، وإلا تعرضوا للعار والشنار.

حتى الآغوات الذين يقضون لياليهم معها ويلعقون كالطلاب أقدامها- كانوا يغضّون الطرف عنها ويتعامون عن رؤيتها اذا التقتهم في الشارع. لا بل أن جاريها أغلقا النوافذ المطلة على فناء دارها، ريثما ترحل هذه الآثمة وريثة أهل " سدوم وعمورة " إلى بيت آخر أو مدينة أخرى.

وكانت النسوة اللواتي رأينها في الحمام يوشوشن قائلات :

- يالنعومة بشرتها وطراوة لحمها اللتين تسحران الرجال !.

كانت النساء تخشى الاحتكاك بها خوفا من اصابتهن بعدوى الدعارة.

لم تكن ماريتسا تمسك طاسة الحمام، بل تجلس على كرسي وتقوم عجوز شمطاء – أنهت فترة عملها في مدرسة الدعارة وخرجّت جيلا كاملا من شباب الشهوة- كانت تقوم بتحميم الشابة العاهر، فتسكب أنواعا متناسقة من العطور

والطيوب، وترشّ على جسدها ماء معطرا ثم تقودها إلى غرفة خاصة، حيث تنشّفها وتلبسها ثيابها.

كانت ماريتسا تسير الهوينا في الشارع وتمشي وصيفتها من وراءها حاملة مظلة زرقاء اللون. وكانت تضع على رأسها مشطا أشبه بحمامة ممدودة الجناحين. كانت تتفنن في هز وركيها ذات اليمين وذات اليسار، وتلقي بين الحين والآخر نظرة على الرجال إمعانا منها في إشعال الشهوة المشبوبة فيهم،أو كانت تبتسم إبتسامة ملغومة بأكثر من معنى ، ومبطنة بآلاف الألغاز.

لم تدخل الكنيسة أبداء إذ حرمت حتى من حق الدخول إلى بيت الرب. ولكن الكاهن الشاب كان يدعوها بين فترة وأخرى " ليبشرّها بكلام الرب " .

* * *

انتشرت يوما ضجة قوية في أعالي الشارع أخذت في الارتفاع تدريجيا. قذف الرجال بأنفسهم الى الشارع، وتعلقت النساء بالنوافذ، وصعد الأطفال الى السطوح.

ثمة حشد كبير من الأطفال ينزل الشارع مهاجما.

كان الحشد يطارد رئيس مجلس الإدارة نقولا آغا.

كان الأطفال يصرخون بأعلى صوتهم:

- كان عند ماريتسا...

- زه، زه، لقد خرج من بيت ماريتسا...

كان نقولا آغا يلتقط الحجارة ليرمي بها الأطفال المشاكسين. كانوا يفرون هاربين مثل أسراب الطيور ومن ثم يتجمعون ليصرخوا مرددين:

- خرج رئيس مجلس الإدارة من عند ماريتسا...

وانضم الكبار الى جموع الأطفال، بينما كان نقولا آغا يبرّر نفسه قائلا:

- كذابون والله ...

كان يركض مذعورا هلعا، خجلا مضطربا، ينظر في الأبواب علّه يجد بابا مفتوحا يلجه فيخلّص نفسه من براثن العار والمذلة.

وكان الجميع يغلقون أبوابهم دونه مخافة أن يشاركوه في الإثم، الذي يقع فيه كل الرجال في كل زمان ومكان.

حين وصل نقولا آغا بابنا أنزلت النساء ستائر النوافذ وأوصدن الباب دونه. كنت واقفا على السطح أشاهد نقولا آغا عن كثب والعرق يتصبب منه كالماء المتدفق، والبخار يتصاعد من قمة رأسه، وانتفخت أوداجه، وانسال المخاط فوق شاربيه، وتصلبت شفاهه، وانتصب الخوف في عينيه كالسكين. صرخ البعض قائلا:

- لقد أمضى طوال الليل عند ماريتسا...

وصاح الآخرون :

- تبا لك يارئيس الادارة...

كان أبي جالسا على التخت. لم يقترب من النافذة قط. كان يدخّن لفافته متمتما:

- اهتموا بعملكم أيها الأوغاد !

ولما وصل نقولا آغا إلى ساحة السوق اختفى بين الجمع الغفير.

وتفرّق الجمهور المطارد مرتاحا قنوعا.

بعد هذا الحادث لم ير أحدٌ نقولا آغا في الشارع و بقي حانوته مغلقا.

قالوا أنه امتنع عن إستقبال أحد في داره، وأنه اختلى بنفسه في عزلة تامة. كان يذرع الغرفة جيئة وذهابا، هازا رأسه متحسرا متأوها، يدخّن بلا إنقطاع، لاعنا حظه ومؤنبا ضميره

شاع بعد أشهر ستة خبر مفاده أن نقولا آغا ركب وأسرته عربة تحت جنح الظلام وهرب من المدينة بعد أن بصق لآخر مرة على ترابها، ونفض غبارها عن حذائه.

ولم يدر أحد أنى اتجه وإلام انتهى مصير نقولا آغا.

الحـــــدّاد

الفصل ربيع. تزهر في شارعنا أشجار اللوز والتفاح والدراق والخوخ والأكاسيا. في البعيد، وعلى قمة جبل " **ماستار** " ما انفك الثلج يقاوم خطر الذوبان. لكن الشمس رفعت رايات النصر في الحقول، حيث الزهور والورود، والخضرة والنضرة تأخذ مجامع القلوب وتسحر الألباب.

تعبر عربات القرية صباحا شارعنا مرورا إلى المدينة وقد ازدانت قرون الثيران بأغصان الأشجار المزهرة الناصعة البياض. كما كان سائقو العربات يزينون قبعاتهم بأزهار التفاح الوردية لتمييزها عن أزهار اللوز. ففي الصباح الباكر تسمع قعقعة العربات المزعجة، أي مع تباشير الفجر السحرية التي يحلو فيها النوم حلاوة لا تقاوم.

كان صرير العربات يؤرقنا في أفرشتنا. لقد إعتدنا هاتيك الموسيقى التي تأسرنا وتنقلنا إلى عالم الرؤى و الأحلام الوردية، رغم ما يشوبها من خفةٍ ورقةٍ عند مطلع الفجر.

قرقعة العربات تدوم زمنا طويلا تخاله سرمدا أزلا.

وبعد الاستيقاظ يبدأ يوم العمل الذي يستمر نشطا حتى الظهر.

تلك القرقعة الرتيبة البطيئة يمكن تشبيهها بأي لحن فرح أو حزين تبعا للمزاج الذي يسيطر على المستمع اليه. حين كانوا يؤنبونني في البيت ينعصر قلبي فأميل للبكاء. وعندها أحس أن قرقعة العربات ترثي حالي وتواسينني، وأن صرير كل دولاب فيها يتناغم مع أنين روحي.

ومع دوي العربات كان يتناهى إلى مسامعنا صجيج مطارق الحدادين، التي تتفاوت في سرعتها وبطئها. الحدادون كثيرون في شارعنا. كنت أهيم في الوقوف أمام دكاكينهم لمشاهدة نار الموقد التي تزداد أوارا مع إطراد النفخ في الكور. وكان يخيّل لي أن ضرامها ناجم عن شدة إثارة الغضب فيها.

وعندما كان الحداد يخرج قطعة من المعدن المحمّى يصل حماسي إلى القمة. كان الحداد المطلي وجهه بهباب الفحم، يمسك بيده الخشنةالمحروقة مطرقة ثقيلة ينهال بها ضربا على الحديد المحمّر؛ بغية تطويعه و كسر عناده.

كانت أمنيتي الوحيدة تتمثل في القدرة على تطويع قطعة حديد بالشكل الذي ارتأيه. وحينما كنت أعجز في البيت عن ثني سلك حديد سميك نوعا ما، كان جارنا الحداد يمر بذهني، إذ كان بمقدوره تطويع أكبر وأسمك قطعة من الحديد وإعطائها الشكل الذي يبتغيه.

كان الحداد بطلا في تصوري.

وفي كل مرة يسألونني فيها عما أريد أن أكون في المستقبل، كنت أجيب بحماس منقطع النظير " حدادا "

لم أكن أتصور مهنة أعظم بطولة من الحدادة.

كنت مغرما بوجوه الحدادين، ولاسيما بعيونهم تزداد احمرارا مع وهج النار، وبوجوههم تسّود من هباب وسخام النار. كنت مسحورا أبدا بعيونهم التي تشتعل وتحمّر، وتتوهج مثل نار الموقد.

كنت أتأمل النار والعيون في وقت واحد.

كنت أقف قريبا جدا من السندان كي تحرق الشظايا المتطايرة ثيابي، سعيا مني للظهور بمظهر الحداد.

كنت موقنا بأن على الإنسان أن يكون حدادا كي يأكل بشهية بعد انتهاء العمل.

والحداد عادة يحب أكل الخبز اليابس مع البصل.

كنت أعود إلى البيت سريعا فآخذ خبزا وبصلا وأحاول أكلهما بنهم وشهية مثل الحداد، فلا أوفق في ذلك. ولذا كنت مؤمنا بأن الانسان يجب أن يكون حدادا.

حاولت بناء موقد وإنشاء كور في البيت.. ولكني فشلت أيضا.

* * *

الكـــــــلاب

حينما أتذكر الآن شارعنا، تنتصب الكلاب أمام عينيّ. الكلاب هم أصدقاء طفولتي. قضيت معظم طفولتي مع وفاء الكلاب وإخلاصهم. قلبي ينفطر دما حين أرى أحدا يرفس كلبا، فأتذكر للتو أصدقاء طفولتي.

ليس ثمت كلب واحد منهم لا يحمل أثرا مني. كنت بمجرد ولادتهم من بطون أمهاتهم- أبتر ذيولهم. لماذا ؟ لأنهم كانو يبدون أكثر جمالا وجاذبية في عينيّ.لم اك أحب الأذناب وتمنيت دوما أن يولدوا بدونها.

كانت الكلاب تحبني بدورها كثيرا، وحبها لم يكن شبيها بحب البشر. إنه الحب المنزّه عن المنفعة والمأرب، حب بلا مقدمات وشروط. تصوروا أنها- لفرط وفائها و ولائها - لم تكن تتذكر ما ألحقت بها من أذى.

كنت أحيانا أضربها بقدمي فتوعوع من الألم لحظة، ثم تدنو حذرة لتقبع عند قدمي وتلعقها. تلك القدم التي سببت لها الوجع قبل هنيهة.

ذاكم هو الحب الحقيقي: حب الكلاب.

كنت مارا بالطريق الروماني القديم محاطا بالكلاب. كانوا يتحلقون حولي فيسير البعض منهم أمامي - والخيار خيارهم- والبعض إلى جانبي، والبقية ورائي.

كنت أعرف أسماءهم جميعا ولكن بغير كنيّة - تماما كما كنت أعرف أسماء المشاهير أمثال نابليون والاسكندر وغيرهم. كنت أذكر سني ولادتهم وشجرة نسبهم أبا عن جد، رغم أنهم لا يدركون آباءهم وأمهاتهم، واخوتهم وأخواتهم.

والذكر من الكلاب لايتعرّف على أخته إطلاقا؛ ولـذا يقاتلها ويعاضضها ومن ثم يواددها ويضاجعها؛ فتلد له جراء يواصلن ذات اللعبة بالغريزة.

لقد نسي " آلو " مثلا أخته وأنجب منها جراء. ونسيت الجراء بعضها البعض وتابعن ذريتهن .كانت الكلاب تدرك بالفطرة موعد خروجي من المدرسة. كانت تصطف أمام الباب لاستقبالي ومرافقتي حتى البيت.

وعندما أدخل البيت تتصرف الكلاب لحالها.

وحينما أخرج تصطف أمامي بعيون بشوشة وابتسامات ودودة مشرقة.

أتذكر الكلاب وأدرك كنه الحب الحقيقي.

* * *

مالك الحزيـــــن

بنى مالك الحزين عشا له على شجرة الحور الباسقة المنسابة نحو السماء مثل المآذن في الجوامع الاسلامية.

وبما أن عودة مالك الحزين من الجنوب دليل على مقدم الربيع، فإن أمي لم تكن تسمح لأي منا بتغيير الملابس الشتوية قبل أوبته. وإن اتفق وعاد ورأيناه بأم عيوننا ولمّا تشاهده أمنا بعد- كنا نقفل راجعين إلى البيت حيث نرمي معاطفنا جانبا ونخرج إلى الشارع، فتسارع الأم للسؤال قائلة:

- لماذا خلعتم معاطفكم الشتوية ؟

- لقد عاد مالك الحزين..

- حقا عاد ؟!

وتصعد أمي إلى السطح لتشاهد مالك الحزين بأم عينيها.تراه مصفقا بجناحيه من قمة شجرة الحور. ولا أدري لماذا كانت أمي تصلّب عند رؤيتها له. ولكنها كانت تتفاءل خيرا ببنائه لعشه على شجرة حديقتنا. كنا نخوّل أنفسنا حق التلاعب مع الطيور الأخرى المستوطنة أشجارنا، بل وكنا نتجرأ على تخريب أعشاشها. الأمر الذي لم نتجاسر على فعله مع مالك الحزين. وأقصى ما كنا نقوم به هو رميه بحجر من المحال أن يرقى إلى عرشه المرتفع جدا. كان من المستحيل التسلق على الحورة، ومن النافل التفكير في تخويفه،إذ لايعيرك أدنى التفاتة. مختصر القول: رمية حجر لا أكثر، رغم الحظر المفروض علينا من قبل والدينا.

. غاب مالك الحزين في أحد السنين فزارنا الموت بدلا منه. ورغم أن توافق غيابه مع الموت ليس إلا من قبيل الصدف، لكن أمي تؤمن بذلك مثل ايمانها بالقدرة الربانية.

وحدث أن غاب الطير سنة أخرى٠

فاشتدت الكربة على أمي التي كانت تردد بحزن وأسى قائلة :

- الموت آت لامحالة٠

كانت الأم تعامل كل واحد منا بعطف وحنان، ربما لقناعتها بأن الموت حق ولا مناص منه٠ وكنا نحاول تبديد مخاوفها بالقول:

- لا تصدقي الترهات يا أمنا٠

فكانت تجيبنا بايمان عميق :

- لن يكتمل العام حتى يأتي الموت٠

وقبل أن يتم العام حضر الموت حقا٠ لقد ذهب والدي مع الموت ولم يعد الينا قط٠

كانت الأم تنوح قائلة :

- كنت متأكدة من ذلك٠٠فمالك الحزين لم يعد٠٠٠

* * *

الفَـــعَــــلَـــةْ

كان الفعلة يشتغلون في مزرعتنا من شروق الشمس حتى مغيبها.

فالوقت والساعة – صيفا وشتاء – عبارة عن قواعد صارمة بالنسبة لنا في البيت . فعندما تشاء الشمس تشرق وتغيب، ولكنا كنا محكومين بالاستيقاظ وتناول الفطور في ساعات محددة، نذهب للعمل ونعود للبيت، فنأكل وننام في ساعات محددة. بيد أن الفعلة محكوم عليهم وفقا لنزوات الشمس الشريرة : فكل العقود معهم يتم ابرامها وفقا لقانون الشمس أي من الشروق إلى الغروب.

والشمس مجحفة بحقهم جدا إذ تحرق أجسادهم. تصوروا معاولهم تدق الأرض من الصباح حتى المساء، وحين يسحبونها من بطن التراب تلمع تحت شعاع الشمس لمعانا شبيها بزرقة البحر. وعند الظهيرة كانوا يجلسون " للغداء " تحت أعظم شجرة لوفرة الظلال. وما غذاؤهم إلا الخبز والبصل، وأحيانا قليلة البطاطا المسلوقة، ونادرا جدا البيض المسلوق. وحينما كان الرغيف اليابس يأبى الانسياب إلى حلاقيمهم او تتحجّر اللقمة في أفواههم، كانوا يستلقون على بطونهم ليشربوا ماء الساقية البارد، ثم يمسحوا بجانب من أسمالهم البالية شواربهم المبللة بالماء.

وعند الغسق، أي حين تستطيل ظلال الأشجار إلى أبعد مدى ممكن، لتمتزج بأجنحة الظلام المنبثق من الأرض، يتركون مجارفهم وأدواتهم ويأخذون أكياس زادهم ويقفلون راجعين إلى بيوتهم.

كان التعب باديا على وجوههم وفي أيديهم، على صدورهم المفتوحة وأقدامهم العارية . كان التعب صباغا مطليا على أجسادهم.

التعب...

إذا كان العالم بأسره تقريبا يستقبل شروق الشمس بفرح وسرور، فإن الفعلة والعمال يحييون ويكبرون مغيب الشمس؛ لأن الظلمة تخفف من تعبهم وضنكهم، وتهبهم الهدوء والراحة الجسدية.

حينما كنت أشاهد معاولهم مسندة إلى الجدار أتخيّلها تعبة ومستسلمة للنوم. ويحدث أحيانا أن يبقى معول أو اثنان مغروزين في التراب،فأشعر أنهما يواصلان العمل وقد هدّهما التعب. .

لم تكن أمي الطيبة القلب إلى حد بعيد تهتم بأمور العمال . تلك المرأة التي كانت تدعو كل يوم أحد فقراء الناس إلى دارها، فتطعمهم وتقدم مساعدات مالية للأسر المحتاجة، وتبكي وتذرف الدموع الحرقى لرؤيتها الجياع- كانت تصرّ على أن الشغيلة يجب أن يبدأوا عملهم عند الشروق وينهونه مع المغيب. كانت على قناعة تامة بأن مفاتيح بركات الحياة وخيراتها في أيدي الشغيلة .

حقا أن تعب العمال ينعكس بالضرورة على ظهورهم المقوسة وكأنها تنوء تحت رزء الأثقال رغم خلوها من الأحمال. ويبدو الاعياء بشكل خاص في عيونهم وسواعدهم و زنودهم.

وفي أماسي السبت يأتون الى دارنا فيصطفون إلى الجدار لتصفية حساباتهم ومن ثم يصرفونهم.

فيعربون عن خالص شكرهم ويذهبون.

يذهبون وفي عيونهم أمل النهار الجديد.

* * *

ضحيـــة الحـــب

عنـد الشـفق شبّ حريـق وردي فـي الأفـق، وتلـون غبـار الشـــارع بـــاللون الزهري• انخفضت صفوف الناس الذاهبين إلى القرى• بدا الشارع وسنانا نعسانا، نصبا تعبا•

يرتقـي أفـراد الأسـرة واحـدا إثـر الآخـر إلـى السـطح، حيـث يمـدّون فرشـهم البيضـاء؛ كـي تتبخّر منها حرارة الظهيرة اللاظية•

المدينة في سكون تام• لقد توقف خوار البقر، إذ علفوهـا وحلبوهـا وأعطوهـا فرصة للراحة والاجترار•

– النجدة ياناس•• قتلوها •• ذبحوها•••

صـرخات استغاثة تحولت تدريجيا إلى مأساة فظيعة• الصـوت مـألوف تمامـا: إنها جارتنا المقابلة لدارنا•

كان الصراخ آتيا من القبو المظلم، ذلك الجزء مـن البيـت، الـذي لاتطـأه قـدم انسان طوال الصيف•

تراكض الجيران• كان أخي الأكبر أول من وصل إلـى مكـان الحـادث كونـه لاينزل الدرج، بل يتدلى من طنف السطح ويتعلق بغصن الشـجرة ثـم يتـأرجح فـي الهواء ويرمي بنفسه إلى الشارع•

كنـت واقفـا علـى السطح وقـد تملكنـي خـوف رهيـب• فـالصراخ والعويـل لايزالان على أشدهما، بينما نداء الاستغاثة يشق عنان السماء: " النجدة يـا بشـر•• النجدة••• "

بعد قليل ظهر أخي الأكبر كهرقل الجبار وهو يجرّ شابين، يمسك بذراع أحدهما وبتلابيب الآخر. كان الدم يسيل من فميهما،وانتفش شعرهما، وتمزقت ثيابهما، وكانت عيونهما أشبه بعيون كلبين هجم على جرائهم كلب غريب.

كان كلاهما يرغبان في مواصلة الاقتتال، لكن ساعديّ أخي القويتين حالتا دون ذلك، فجعلتهما على مسافة آمنة. ولم نكدْ – إلا بشق النفس – التعرف على ولديّ الأم النائحة وهما **وهرام و هراج .**

الأخوان وهرام وهراج أولهما في التاسعة عشرة والثاني في السابعة عشرة. وفي يوم ميلاد هراج ولدت أيضا ابنة الجيران "**فيرونيكا**" . وكالعادة المتبعة- في مثل هذه الحالات – خطبهما الأهل لبعضهما وهما في المهد. كبر الأطفال جميعا ومعا. ولكن قبل أن يشعر هراج بفوران الدم في شغاف قلبه، أحب أخوه وهرام فيرونيكا.

لقد حنث كل من وهرام وفيرونيكا بالعهد الذي قُطع في المهد وتمردا على العرف المتبع.

علم هراج بذاك الحب ولكنه لم يكن يشعر بالجنس بعد،إذ ما انفك يلعب بالكعب ويقلدني في إصدار الأوامر للكلاب. وحينما اشتد عوده التهمته نيران الأنثى، وتراقصت في ثنايا فؤاده الصغير ، فيرونيكا ملكه منذ المهد. هكذا كان العهد بين الأهل وشاء القدر.

نسي الأهل والأقارب حكاية المهد القديمة. لكن هراج أصرّ على حقه المكتسب منذ الصغر.

كان هراج في نظر أخيه عبارة عن حجر صغير كبر مع الزمن وتحوّل إلى صخرة صلداء سمراء. كان هراج يحب أخاه كثيرا. فهو الذي هزّ ارجوحته يوم كان صغيرا، واصطحبه معه إلى الحديقة، بل وتحمل مسئوليات كبيرة حين كان يغامر ويأخذه معه إلى البساتين البعيدة. لقد علمّه دروسه ودافع عنه ضد خصوم الشارع واقتسم معه ماكان ينشله من البيت، وعلمّه السباحة وما إلى ذلك. لكن

شعرة واحدة من فيرونيكا أنسته كل ذلك، إذ انقطع هراج فجأة عن التكلم مع أخيه وهرام.

لم يدرك وهرام السر في البداية، لا بل ولم يعره انتباها. لكنه لاحظ تدريجيا أن هراج قد تمادى في غيّه ونسي الأخوة القائمة بينهما، حتى أصبح كل لقاء بينهما يتحول إلى نوع من الخصومة. سأله وهرام مستفسرا:

- مابك ياعزيزي هراج ؟ ماذا تريد ياحملي الوديع ؟

وهنا نظر هراج في عيني أخيه نظرة شذراء وكأنه يريد استلال قلبه من أعماق عينيه. و شعر وهرام بالغيرة المشعشة في روح هراج فأطرق مبتعدا. ومذاك والأخوان يتحاشيان الالتقاء، ولكنهما لم يحولا دون شبوب النار وتحولها إلى محرقة عظيمة الالتهاب مثل شمس الصحراء في الجنوب.

احمّرت وجنتا فيرونيكا حتى كادتا تقطران دما لأقل لمسة. ونما شعرها مثل شلال صغير تسوق الرياح مياهه. وبدت عيناها أشبه بمصباحين منيرين يشعان من قرية نائية مغموررة في الصحراء. أما صدرها فكاعب يتراقص مع الشهيق والزفير. ضحكتها مرنانة عالية، ربما بلا هدف:

- بلى، بلى، سأفعل ذلك. سآتي، سأذهب، لن آتي إذا طلبت مني ذلك- تضحك حينا، وتبكي حينا آخرا بغية تضليل من أمامها. لاتدري أهو ضحك أم بكاء ؟ كانت دائما على أهبة الاستعداد، حيوية نشطة تمور بالحياة. عيناها دائمتا الحركة مثل عصفورة هلعة تعصرها يد لا ترحم.

في ذلك اليوم المشؤوم، نزل وهرام وفيرونيكا إلى القبو خفية. جلسا معا فوق كومة الحطب، تعانقا وتقاربت شفاههما فاحترقا معا. واحتضنت السواعد بعضها البعض كما يحتضن تياران متعاكسين من الماء.

صرّ باب القبو ثم انفتح. تسلل شاب بهدوء . خطا خطوتين-ثلاث ثم توقف وقد التمعت عيناه مثل عيني قطة هائجة.

عرف وهرام أخيه الأصغر ومنافسه في حب فيرونيكا. عرف هراج الذي . مرجحه صغيرا وأجلسه على كتفيه بغية التنزه في الهواء الطلق.

تلاقت العيون ٠ عمّ صمت طويل٠ كزّت الأسنان وبرزت النياب٠ تملكهما معا خوف رهيب مكتوم، وفجأة هاجم أحدهما الآخر٠ انطرحا أرضا لعدة مرات، وانتصبا معا مندفعين نحو الفتاة التي يحبان، وكل منهما يبغي ضمها إلى صدره للحؤول دون وصول الخصم إلى مبتغاه٠ قال هراج غاضبا:

- لقد دنستَ عهد المهد !

فصاح وهرام :

- أنا لا أعرفك٠ وفيرون ملكي أنا٠

- سنرى ملك من هي !

وحاول كل منهما الإمساك والاستئثار بفيرونيكا٠ كانت المسكينة ترتجف مثل قصبة في مهب الريح أو عصفورة وقعت في فخ لاخلاص منه٠ تشبثّ كل منهما بخناقها، فوهنت وارتخت وكاد يغمى عليها٠ ولما اشتد العراك بين الشابين كانت فيرونيكا تتلقى معظم الضربات الموجعة التي قضت عليها فسقطت جثة هامدة وانطفأت حياتها في ربيعها٠ وعندما أحس الأخوان بأنهما فقدا حبيبتهما، قررا الاقتتال حتى الموت٠

أدخل وهرام اصابعه في فم هراج محاولا تمزيقه٠ اهتزّ هراج من شدة الألم وكزّ على أسنانه حتى قضقضت عظام أصابع وهرام، فزمجر الأخير مثل وحش يعاني سكرات الموت٠

ذاك الصراخ كان سببا في اندفاع الأم الى القبو، حيث صعقت لرؤية فيرونيكا جثة ملقية على الأرض، بينما يتصارع الشابان مثل وحشين كاسرين في عتمة الغاب٠

- النجدة٠٠ النجدة يا ناس٠٠ قتلاها٠٠ قتلاها٠٠٠

كان أخي أول من وصل الى مكان الجريمة - كما أسلفت٠

انتشر الخبر في المدينة انتشار النار في الهشيم.

وفجأة سمعنا صرخات أم أخرى. كان الصراخ يعلو ويشتد مثل قصف الرعد، فيمزّق آذان السامعين:

- ياعزيزتي.. ياروحي.. ياقرة عيني...

كانت الأم تنوح صارخة وتبكي بكاء مرا يقطّع نياط القلب. كانت أم فيرونيكا التي رحلت عن الدنيا والحسرة في قلبها. تلك الفتاة التي كاد خداها المتوردين يقطران دما جراء لمسة خفيفة.

حاملو جثة فيرونيكا إلى أعلى، استقبلوا والدتها التي ركضت لاحتضان رأس ابنتها الهامدة الصامتة. وارتفع عويل الأم الثكلى،التي نفشت شعرها ولطمت خديها ومزقت ثيابها وذرفت دموعها الحارقة.

كان وهرام وهراج ينظران شذرا إلى بعضهما البعض. كانا يشدان على نواجذهما بغية متابعة القتال، فكانا كمن يسعى بظلفه إلى حتفه. ولم يحل بينهما وبين الموت سوى سواعد وزنود الرجال الأشداء الأقوياء.

نقلوا جثة فيرونيكا إلى البيت. عادت إلى دارها وقد انطفأ النور في عينيها. انخفض صوت الأم تدريجيا حتى انبّح وانقطع نهائيا.

نقل وهرام وهراج إلى السجن مكبلين بالسلاسل.

تفرق الناس. صعدوا إلى السطوح. تحدثوا بلا انقطاع عن الجريمة حتى اسكتهم ملكوت النوم.

❊ ❊ ❊

الطيّـــارة

كنــت مشهورا كواحد من أعظم صانعي " الطيّـارة "٠ أصنعها كبيرة ذات ذنب طويل، بألوان متعددة، والأهم من كل هذا: مُرَفْرِفة٠ في أماسي الصيف، حين تهب ريح خفيفة فـوق السطوح وعلـى الشـوارع، كنـا نطلـق طياراتنـا مـن أعـالي السطوح والشمس لمّا تزل سابحة فيما وراء الأفق٠ وكانت العتمة البنفسجية ترتفع من الحقول، متحولة إلى أجنحة من الظلمة المنسدلة كالستائر من السماء المرصّعـة بالنجوم أكثر من أي مكان في الفضـاء٠ عندئذ كـانت طياراتنـا تحلـّق فـي الأثـير الأزرق بمصـابيح متعددة الألـوان ٠ وعندمـا تشـتد الزرقـة تختفـي الطيـارات وتشعشع أنوار المصابيح، وكأنها أقمار متأرجحة تائهة، عاجزة عن إيجاد مدارها٠ وفي كل مساء تظهر العشرات من هذه الأقمار٠ ويحدث أن تحترق احداهـا فجـأة، فيرتفع لسان النار لحظة ويختفي إلى الأبد٠

أطلقت طيارتي ذات يوم وربطت طـرف خيطهـا بمحدلـة السطح الحجريـة ، وانزويت مرتاحـا فـي ركـن مـا أتـابع متباهيا تحليقها٠ كـانت الأعلـى بيـن جميـع الطيارات المحلـّقة في السماء٠ لاحظت بغتة أن المحدلة تتدحـرج ولـم أتمكـن مـن إيقافها، فسـقطت مـن علـى سطح البيت المؤلـف مـن ثلاثـة طبقـات إلـى رصيف الشارع مباشرة٠ استلقيت فزعـا هلعا ثـم نظـرت إلـى الأسـفل علـّي أكتشـف هل سقطت المحدلة على أحد٠ وللحال تملكتني رهبة قاتلة حين تصوّرتهـا تسـقط علـى رأس أبي الذي يعود إلـى البيـت فـي تلك السـاعة تماما٠أسودّت الدنيـا فـي عينـي وتمكنت من التقهقهر بشق النفس٠ نزلت مسـرعا وبـدأت فـي اجتذاب ولـفّ خيط طيارتـي، التي حطـّت على شـجرة التـوت المرتفعـة فـي حديقـة الجيران٠ حـاولت جرّها فاشتبكت بهـا، وكنـت كلمـا أمعن فـي سـحبها، كلمـا التفـّت وتشـابكت أكـثر فأكثر ٠ فكرت في تسلق الشجرة لإخلاء سبيلها، وعندها سمعت شهيق حمار أبـي٠

سحبتها بقوة فانقطع الخيط. صعدت من فوري إلى غرفة أبي لأراقب الشارع من النافذة. كنت تواقا لمعرفة ما إذا كان والدي سيلاحظ المحدلة! وفعلا رآها وسأل الخادم عنها:

- كيف وقعت المحدلة إلى الشارع ؟!

لم يحر الخادم جوابا.دنا من المحدلة فشاهد بقية الخيط عليها. أدرك الخادم كنه الأمر وشرحه لوالدي الذي صعد إلى أعلى آمرا الخادم بقوله :

- عليّ به .

واتخذت قرارا حاسما على الفور: قفزت من النافذة وصعدت " المَفـرَش "، حيث تطوى وتحفظ اللحف والفرش والمخدات. والمفرش مغطى بستار مسدول من السقف إلى الأرض. استلقيت فوقه كي لاينطح رأسي السقف.

نبش الخادم الأرض بحثا عني فلم يجدني. دخل على والدي قائلا:

- لم أجده ياحاج أفندي !!

وهنا دخلت أمي فسألها عني و جاوبته قائلة :

- كان هنا قبل قليل وهو يطيّر طيارته.

لم تكن أمي على دراية بالأمر. ولما أخبرها والدي بما حدث، وضعت راحتيها على عينيها وصرخت قائلة :

- تبلى عيوني بالعمى...

وانكمشت من خوفي.

طفقت أمي ترتاع لمصيري. قال الأب سائلا اياها :

- صار الذي صار، ولكن أين ابنك يا أمرأة ؟!

حضر أخوتي وأخواتي. فتشوا البيت كله بحثا عني، باستثناء غرفة والدي، إذ لم يخطر ببال أحد أن اختبئ فيها.

أرسلوا أخوتي للتفتيش عني لدى الأقارب والجيران وعادوا قائلين :

- لم يذهب اليهم.

فأمرهم والدي :

فتشوا عنه على الأشجار.

عاد أخوتي بعد بحث وعناء طويلين ليؤكدوا قائلين:

- ليس هناك أيضا.

شككت والدتي :

- لعلكم لم تبصروه في الظلمة ؟!

أجاب أخي الأكبر:

- القمر منير يا أماه .

ملأ أبي كأسا من العرق (بينما كنت أتلصص من شقّ الستارة.) ثم رفعها ليعبها فتوقفت يده في الهواء. بدا متأثرا جدا حين قال:

- ماذا حدث للولد ؟!

اهتز صوته الذي اختنق في حنجرته من شدة الحزن.

وشعرت أنني لو قفزت عندها من المفرش لعانقني أبي وضمّني إلى صدره، ولكني لا أدري سبب امتناعي. قالت الأم:

- يا ابني هاكوب، اركب فرسك إلى المدينة ،إذ لابد أنه التجأ إلى أخواله **"مطلقا "**[*].

واستطردت تقول:

- خذ مسدسك معك. إن كان هناك فلا تحضره معك كي لايخاف. اتركه لعدة أيام وليعد به الشباب الينا.

بعد ربع ساعة تناهى إلى مسمعي وقع حوافر الفرس على حجارة الطريق.

عمّ صمت ثقيل كالرصاص في أركان البيت. هذا السكون الرهيب جعلني هامدا جامدا. تملكني نعاس لطيف حلو، فاستسلمت لثقلة الكرى. ولم أدري بعدها بما حدث.

(*) استخدم الكاتب كلمة «مطلقاً» العربية بمعنى «لا بد» (المترجم)

وفجأة سقطت أرضا فوق سجادة الغرفة. استيقظت واستذكرت كل شيء. توخيّت الهروب فأمسكتني أختي الكبرى. اندفعت أمي نحوي تقبلني وتبلل وجهي بدموعها. دفنت رأسي في صدرها وما رأيت بعدها شيئا . وللحال أحسست بشاربي والدي ورائحة دخانه. كان يقبلني قائلا:

- ياعيب الشوم.. ياعيب الشوم..." .

وبعد قليل رنّ في أذني وقع حوافر الفرس فوق الحجارة. كان أخي الذي ظهر في عتبة الغرفة صائحا:

- ليس هناك !!

استغرق الجميع في الضحك، بينما كنت أرقب - عبر زند والدي - عيني أخي وهما تقدحان شررا من شدة الغضب.أخي الذي ارتسمت تدريجيا على محياه - بعد رؤيته لي - ابتسامة أخوية ، عطوفة ورقيقة. هرولت نحوه فرحا. ضمّني بذراعيه القويتين ورفعني إلى الأعلى. كان فارع الطول، قويا جدا.

ورغم كل هذا، منعني الوالد من تطيير الطيارة اطلاقا.

كان الصيف الذهبي يمرّ دون أن أتذوق حلاوته وطلاوته، فينعصر فؤادي. كنت كل مساء أرتقي السطح لأراقب بحسرة وألم " الأقمار " السيّارة. بداية لم أشعر بالكآبة كثيرا، ولكن كلما كانت تكر أيام الصيف الذهبي، وكلما كانت الريح الباردة تلفح جبيني - كلما كان الغمّ يخيّم على نفسي، ويعشعش الهم في ثنايا روحي.

ذات مساء- وبينما كنت جالسا على السطح أرنو إلى طيارات الاخرين المحلقة في الهواء - صعدت أمي إلى السطح كي تلقي نظرة على المربيات المشمسة. أحسّت الأم بالألم الذي يعتصر قلبي، وبالحزن الأسود المخيم كالسحاب في سمائي. اقتربت مني وضمتني إلى صدرها سائلة :

- ما بك يا عزيزي ؟.

فأرسلت بصري إلى السماء وإلى " الأقمار " السيارة فيها، ولم أطل النظر، إذ اغرورقت عيناي بالدموع.

طمأنتني أمي قائلة :

- سأطلب مَن أبيك السماح لك بتطيير طيارتك، شرط ألا تربط خيطها بالمحدلة.

وأجهشت باكيا وأنا أقول:

- لن أربطها أبدا.

وفي الصباح شرعت في تصميم طيارة جديدة. كانت الطيارة الأكبر مما صنعت حتى ذاك التاريخ.

* * *

في أحضـــان الطبيعـــة

أعلن أحد أساتذتنا الشباب والذي تربطنا به صداقة خاصة :

- سأصطحبكم إلى قريتي يا أولاد.

سبق لنا أن سمعنا أن قريتهم تربض على سفح جبل " ماستار "، حيث الأشجار الضخمة المعمّرة، التي يتسع جذوع بعضها لسكن أسرة كاملة. وفيما سمعناه أيضا أن الماء المندفع من تحت كنيسة القرية قادر على جرّ و إغراق عربتين مع ثوريهما. وكنا نعرف من الجغرافيا أن نهر " **آراكس** " (رافد الفرات الشرقي) يسيل أمام قريتهم مثل شريط أزرق متمايل.

انطلقنا مساء سائرين كي نتحاشى وهج شمس النهار. كنا نمشي عبر أقصر الطرق، حتى لو كانت أرضا مزروعة. فالحقول الذهبية تحت أقدامنا، وقبة السماء الزرقاء المرصعة بالنجوم فوق رؤوسنا. كنا نفرح ونمرح، نبتسم ونضحك، وننحني لشرب الماء من السواقي الجارية الصافية العذبة، التي كنا نشنّف آذاننا بموسيقى خريرها يملأ الدنيا ألحانا عذابا تفعل بالنفس ماليس تفعله أبرع الجوقات الموسيقية في نفس أكبر عاشق للموسيقى. وحدث ولا حرج عن الخضرة والنضرة على جانبي النهر. كل هذه العجائب التي لا تستطيع الإتيان بمثلها إلا يد الطبيعة تشيع في النفس بهجة لا تدانيها بهجة. وخير ماتوصف به أنها لا توصف. نعم، كان اصطدامنا بالجمال قدرا يوميا.

دخلنا حقلا واسعا مليئا بالسنابل الذهبية.

انخفضت السماء تدريجيا وخيل لنا أن النجوم تتساقط في عيوننا. ولم يعكر صفو الجو سواناء والشهب المتساقطة.

قال الأستاذ :

- تعالوا نبقى هنا حتى ظهور كوكب الزهرة.

توقفنا جميعا .

اشتد السكون وانخفضت السماء أكثر .

الجو صاف كصفاء ماء الجدول الرقراق.

ياله من سكون مطبق يتخلله غطيط الرفاق النائمين الشبيه بخشخشة السنابل الذهبية.

كنت أتمنى لو توقف الكون كما هو عليه : السماء بنجومها، الأرض بسنابلها، والسكون بشفافيته الزرقاء! وهنا ابتدأت سيمفونية الضوء والظل.

بدت غمامة صغيرة بيضاء لا أدري من أين أتت، لكنها تأرجحت متحولة إلى قزَعة تلاشت واختفت تماما كالأحلام. وكلما أوشك النعاس أن يطبق أجفاني فركتها باصابعي حتى الوجع؛ كي أظل مستيقظا توقا مني لرؤية الزهرة: نجمة الصباح.

وبغتة سمعت صوت رفاقي. فتحت عينيّ لأرى الشمس سابحة فوق السنابل.لقد رشّت الشمس في الحقول عبيرا ذكيا كان قد اندّس في أحضان الليل. واستيقظت الألوان من غفوتها، فما بالك بالأطيار تصدح في كل مكان.

لقد استيقظ كل شئ مع الشمس.

* * *

العوانـــــس

عنـــد المساء يخرج جارنا المدعو " **آليك آغا** " إلى الشارع واضعا يديه فـي جيبيه،رانيا بلا حراك الى الرائحين والغادين·

يلقي الكثيرون عليه التحية فيرد عليها برفة عين·

كان الآغا في الخامسة والأربعين· كان عازبـا ولكـن الحـارة بكاملهـا تتحـدث عن قضية زواجه·

يحكـى أن أهلـه توفـوا قبل عشـرين عامـا، وأنهـم جـاهدوا كثـيرا فـي سـبيل تزويجه، لكن أحدا لم يعطه عروسا·

آليك آغا لايتعاطى الخمرة، ولا يتسم بسوء الطباع، والأهم من هـذا وذاك أنـه ليس فقيرا· باختصار: كان سلس القياد ولذلك شبّهوه بالبقرة·

سـجيته فـي كونـه طـوع الزمـام كـالبقرة كـانت تلاقـي استحسـانا لـدى أمهـات البنات، أي الحموات، ومع ذلك كـانت قسماته تنّم عـن الخشـونة و الفظاظـة التـي كانت تثير الذعر والخوف في نفوس الأطفال، لا بل وحتى في نفوس المقربين اليه من الناس· السبب ؟! طبعا لابد من سبب· فلحيته السوداء طويلة· يالها من لحيـة تحيله انسانا مريعا في عين الناظر اليه· اللحية/ البلاء هـي التي حـالت بيـن آليـك آغا والزواج من أي عروس تكون له بمثابة المنّ والسلوى في هذه الدنيا·

عدم الزواج في نظره لم تكن مصيبة، إذ توصـل إلـى فلسـفة ارتضاهـا نهجـا لحياته· ولكن ما من فلسفة علـى وجـه الأرض ترضـي أختـه " **ايسكوهي** " التـي تصغـره بخمـس سنوات· وقوانيـن هـاتيك البـلاد تنـصّ علـى عدم زواج الأخـت الصغيرة قبل أخيها الأكبر سنا· والناس يعللون ذلك بقولهم :

- بأي حق تدخل الأخت أحضان الزوج ما دام أخوها لم يدخل حضن امرأته.

وإذا، فالإثم الذي يرتكبه الأخ الأكبر وحده قادر على تبرير الإثم الذي ستقدم عليه الأخت.

لم تعد أية فلسفة تنقذ ايسكوهي البالغة أربعين عاما، رغم أن آليك آغا والأقارب كلهم وافقوا على زواجها قبل أخيها.

فمنذا الذي يدفع فلسا واحدا ثمنا لها ؟!

وهكذا، بقيت ايسكوهي عانسا.

نما في داخلها غضب هائج وحقد مائج يُعْرفُ بغضب العوانس.

يتلخص غضب العوانس في :.الصياح والصراخ، الصخب والشغب، الزعيق والبعيق، وتكسير الصحون وما إلى ذلك. وكنا نسمع من خلاله صوت آليك آغا الداعي إلى الهدوء والسكينة قائلا:

- مهلا يا أختاه ! هوني عليك، يا عيب الشوم ...

وما نفع الحياء والخجل لدى ايسكوهي التي ولدت وترعرعت وكبرت وهرمت دون أن يضمها أحد إلى صدره.

وتسمع فجأة قرقعة وفرقعة.. إنها ايسكوهي وقد قلبت الصحن بما فيه من طعام على رأس آليك آغا، فمرّغت لحيته بمرق اللحم الدسم.

لم يكن في هذه الدار الكبيرة سوى العانسيّن المتصارعيّن.

وبالرغم من أن آليك آغا كان لين العريكة، لكن طبع العانس يتصف بالعناد والقسوة.

ومع مقدم الربيع كانت ايسكوهي تثور كالبقرة المصابة بالشبق فيشتد خوارها ويقودها آليك آغا إلى القرية لقطع خوارها. لم تكن ايسكوهي تكتفي برفس البقرة وإنزال اللعنات عليها، بل كانت تفتح الخزانة وتخرج منها بعض الأطباق النفيسة القديمة فترميها وتكسرها.

كانت تحطمها لتستريح ٠

فيراها أخوها آليك آغا الذي يتمتم بهدوء معزّيا اياها- وبئس العزاء- بقوله:

- حسنا فعلتِ٠٠ استريحي الآن يا أختاه !

وفي الغداة يسوق آليك آغا البقرة إلى القرية حيث ترتاح من لوعة الشبق ويعود بها هادئة مستكينة٠

* * *

لم يكن آليك آغا العانس الوحيد في حيّنا٠ فعلى بعد عدة بيوت من داره يقطن **الحاج سليمان**٠ وفي كل مرة يدور فيها الحديث عن آليك آغا، كان الحاج سليمان يلفظ عبارة وحيدة وهي : " آليك حمار مثلي "٠

جاوز الحاج سليمان الأربعين واشتعل الشيب في رأسه٠ كان أحول العينين، ضعيف البصر والبصيرة معا، يكسب رزقه من ترقيع وتصليح برادع الحمير٠

كان الوضع العائلي سببا في عدم زواجه٠

كانت مسألة زواجه على قاب قوسين فمات والده٠ مرتْ سنوات وتوفيت والدته٠ بعد انقضاء عامين أقنعته عمته بالزواج، فزجوا به في غياهب السجن٠ وبعد إطلاق سراحه استبد به اليأس و القنوط٠

وهكذا مرّت السنون٠ فابيّض شعر رأسه وأصيب بسعال خفيف٠ اقتنع هو والآخرون بحتمية الزواج٠ وبالفعل تزوج الحاج سليمان٠

ثمة عادة في تلك البلاد وهي أن العروسين يختليان في ليلة الدخلة، بينما يتحلق الشبان بين العاشرة والسادسة عشرة تحت النوافذ ليتابعوا فرحة العرس وليتأكدوا من النتائج٠ كان كل شاب يحضر معه أداة ما تصدر عنها أنكر الأصوات٠ أحدهم يأتي ببرميل فارغ، والآخر تنكة، والثالث جرسا، والرابع طبلا والخامس مزمارا وهكذا دواليك٠ هؤلاء يعزفون ويدقون ويضربون على آلاتهم، والآخرون يصرخون ويصيحون، والبعض الآخر يشجّعون ويحمسون العروسين٠

ومع هولاء جميعا تتألب الكلاب التي أرتأت الانضمام الى رفاق نهارهم بدلا من النباح والعويل طيلة الليل.

بعد مغادرة المدعوين الحديقة في منتصف الليل- وعادة ماتقام الأعراس في الحديقة أثناء الصيف- أضاء مصباح الحاج سليمان وأسدلت الستارة على النافذة.

تجمع الأولاد تحت النافذة وبدأ الضجيج والعجيج.

كان ضجة لا تطاق. تصك الآذان وتثير الخوف في القلوب والنفوس معا.

فاقت الحارة كلها من سباتها.

نهض النائمون على السطوح بثيابهم البيضاء وتدافعوا إلى الشرفات.

وعندما كان الصخب ينقطع هنيهة للاستراحة، يبدأ مجددا وبشكل أشد عنفا وقوة. كان المجتمعون على الشرفات يقهقهون عاليا ويشجعون الأولاد قائلين:

- هيّا ياحاج سليمان !

فيردد الآخرون :

- اهجم ياحاج سليمان!

ويلي هذه الصرخات ضجيج الموسيقى الصاخبة مع أصوات الزمر والطبل والبرميل والتنك والحديد والخشب...ينادي أحدهم قائلا :

- تزوجْ يا حاج..

فتكرر الفرقة بكاملها:

- تزوجْ ياحاج سليمان...

فيرتفع الزعيق والصفير وغيرها من أصوات النكير.

كل العرسان مروا بهذه " الزفة " التي تعد أمرا مألوفا وعاديا. استمعوا اليها ساكنين صاغرين، وأنهوا واجباتهم الليلية ليتابعوا في الغد أعمالهم اليومية. لكن الحاج سليمان كان نافذ الصبر فلم يتحمل ما رأى وسمع، فتح النافذة وخرج منها وثوبه الأبيض مشمّر في وسطه. ركض وراءهم وهو يكيل لهم أقذع الشتائم والسباب:

- ألا تخجلون، يا أولاد الكلبة ؟ ياقليلي الأدب والناموس٠ هيا انصرفوا إلى امهاتكم٠٠٠

كان الحاج سليمان يصرخ بأعلى صوته حتى انبّح وطفق بالسعال٠ ولما عجز عن الكلام والصراخ، أغلق نافذته وانسحب إلى الداخل٠

ارتفعت موجة عظيمة من الضحك والسخرية انتشرت فوق كل السطوح المجاورة والبعيدة على حد سواء٠ ردد الكثيرون صارخين :

- ياله من حمار مغفل! لمَ خرج الأحمق من حضن زوجته ؟!!

وعاود فريق الساخرين هرجهم ومرجهم فما كان من الحاج سليمان إلا أن فتح النافذة ثانية وأعلن على الملأ :

- اغربوا عني يا أولاد الحرام٠٠٠

صرخ أحدهم :

- تزَوّجَ الحاج سليمان٠٠٠

وكرر الحشد :

- ما تزوج الحاج سليمان٠٠٠

فرد عليهم :

- وما شأنكم ياولاد القحبة٠٠ ماذا أقول لأمهاتكم ياقليلي الذوق والأدب٠٠٠

ولاحظ الساخرون أن زوجته في العتمة تشده الى الداخل متوسلة:

- دعهم يا حاج سليمان ٠٠ سيتعبون وينصرفون ٠٠.

- اليكِ عني يابنت الـ٠٠

ومع السخرية المنطلقة من أعالي السطوح انتشرت ضجة عظيمة ردد أصحابها قائلين:

- نام تانشوف، ياحاج سليمان٠٠٠

- الحاج سليمان " آخذ مرا ياحرام٠٠٠"

- الحاج سليمان سيصنع بردعة لزوجته؟..

- " ولي عاهالزيجة ياحاج سليمان "...

وتواصل الصياح والنباح، ودوي الطبل والزمر و..و..و.. لله ما أشد تعلق الناس بقشور الحياة دون لبابها.

وقف صبي قصير القامة، أشعث الشعر، غليظ الصوت- في الوسط وقد ارتسمت تكشيرة صارمة على شفاهه الغليظة، بدت واضحة تحت ضوء القمر. صرخ بأعلى صوته قائلا :

- لقد نام الحاج سليمان. هيا نصعد إلى النافذة!

قفز بعض الأولاد وتعلقوا بالنافذة. وعندما شرع أحدهم بطرقها، سارع الحاج سليمان لفتحها ولطم الصبي فأوقعه أرضا. لم يُصب الولد بأذى، لكن ردة فعل الأولاد جاءت عنيفة: أخذوا في التسلق نحو النافذة والغضب يشتعل في نفوسهم.

ظهر الحاج سليمان في الشارع بقيمصه وسرواله الأبيض ، وأخذ يضربهم يمنة ويسرة.

تفرّق الاولاد. أمسك الحاج بأحدهم فرماه على الأرض وأخذ يرفسه ويركله بأقدامه حتى غاب عن الوعي.

كانت عروس الحاج سليمان المغطاة بملاءة بيضاء تصرخ باكية متوسلة:

- عدْ إلى البيت .. أبوس رجلك يا حاج سليمان...

لم يكن الحاج يعي مايفعله، إذ استمر في رفس الصبي المغشي عليه.

قفز الرجال من السطوح وأمسكوا به قائلين :

- ألا تخجل يا حمار ؟ لقد مات الولد فما أنت فاعل أمام أهله وربك ؟!

- فليمتْ .. أنا انسان أيضا.

رشوا الماء على الصبي فلم يجدي ذلك نفعا. لقد مات الصبي فعلا.

وصلت الشرطة فاعتقلت الحاج سليمان بقيمصه وسرواله معا.

تفرق الحشد وعمّ صمت المقابر.

بكت العروس طوال الليل نادبة حظها التعس مرددة :

- عرسي لم يكتمل. .

كانت إحدى جاراتها تواسيها قائلة :

- لابأس عليك. ستتزوجين ثانية، واحمدي ربك أنه لم يحدث شيء آخر.

وهكذا، عجز الحاج سليمان عن ولوج عتبة الحياة الزوجية.

انتظرت العروس وخالتها أياما معدودة في دار الحاج سليمان ثم عادت إلى بيت أهلها.

كان الجيران يرددون متأسفين بقولهم:

- عادت المسكينة ولم يمسسها بشر...

* * *



عاهـــر في .. الســـلة

كان الوقت في الغسق. الطقس دافئ. ثمة أناس كثيرون في الشارع.يالها من أيام ربيعية يتربّع فيها القمر قبة السماء.

كنت ألعب في الشارع. ارتفعت جلبة وضوضاء. تجمّع الناس في موقع من الشارع مثل دجاج يتسابق لنقر الحب المنثور .

الحشد صامت. الوجوم بادٍ على وجوههم.

ركضت .

رأيت شرطيين يمسكان بجارنا " نيشان آغا " ويتجاذبانه. كان يقاومهما كمن وضع روحه في كف عفريت.

كان يحمل سلة كبيرة على كتفه. بدت ثقيلة جداً، إذ تقوس ظهره وانتفخت أوداجه.

سأله الشرطيان:

- ماذا في السلة ؟

- عنب.

ضحك الشرطيان. فالفصل ربيع وأنّى هو العنب. ارتبك نشان آغا الذي أخطأ في الرد، فحاول تصويب كلامه قائلا:

- عنب جاف.. زبيب...

أصرّ الشرطيان على إنزال السلة عن كتفه لتفتيشها.

أوجس الناس خيفة. فالأمر واضح كل الوضوح: نشان آغا ينقل الرصاص وقد القي القبض عليه متلبسا بالجريمة. ياللطامة الكبرى! سيتعرض للسجن، للنفي وربما للإعدام!!

- أنزلْ السلة وافتحها.

توسّل اليهما قائلا :

سافتحها ولكن عندما أصل البيت.

واشتد عناد الشرطيين اللذين اكتشفا جريمة ضد الحكومة يجب اشهارها على الملأ؛ كي ينالا مكافأة عليها من الطغمة الحاكمة.

توجّه نشان آغا الى الناس الذين أحاطوا به احاطة السوار بالمعصم، مناشدا اياهم التوسط لانقاذه من هذه الورطة.

ما من أحد يجرؤ على التوسط.

وأخيرا، أسقط الشرطيان السلة بالقوة. سُمِعت صرخة قوية. فتحا السلة، فخرجت منها امرأة محجبة وهي تصرخ وتبكي.

كان نشان آغا يحدّق باتجاه واحد بعينين بليدتين باهتتين.

ارتفعت قهقهة ساخرة بين الجمع المذعور. أطلق أحدهم ضحكة شيطانية وصرخ قائلا:

- نشان آغا ينقل مومسا في سلته...

ردد الآخرون :

- خرجت العاهرة من السلة...

- ياله من أبله ! وهل توضع العاهر في السلة؟!

حاولت المرأة الفرار فأمسكها الشرطيان.

طوّق البعض نشان آغا والبعض الأخر المرأة وهم يسخرون منهما.

حاول نشان آغا الهرب فطارده الحشد تاركين المرأة.

- أمسكوه يهرّب عاهرة في سلة.. ياللعار...

أطلق الشرطيان سراح المرأة المحجبة فهربت مهرولة كالمصعوقة.

لم يدر أحد من هي ولا أنّى توجهَت.

وصل نشان آغا بيته ولم يدخله. تابع سيره كي لاَ يحتشد الناس أمام بابه.

مشى الناس وراءه وهم يسخرون منه. دخل زقاقا ضيقا وانسل منه إلى الشارع الواسع علّه يتوارى عن أنظار الناس، لكنهم كانوا له بالمرصاد.

ارتفع الصخب والضجيج مع ازدياد الحشد الغفير.

ولما أيقن نشان آغا بعدم الخلاص من براثنهم، عاد أدراجه إلى شارعنا وانسل إلى داره.

تجمع الحشد أمام الباب. اشتد القيل والقال، فأصبحت المرأة امرأتين.

صخبوا وضحكوا وسخروا ساعة كاملة وبعدها تفرقوا.

لم يخرج نشان آغا من البيت إلا بعد ايام.

يحكى أنه أسرّ إلى أحد معارفه قائلا :

– لقد انفضحت في البلد من أجل خمسين قيراط من اللحم.

* * *

الجمـــــل

تمرّ القوافل من أمام بوابتنا قادمة من بلاد الرافدين مرورا إلى سبسطية وغيرها من مدن آسيا الصغرى ذات التجارة الرابحة. وفي الخريف حين تينع بساتيننا بالثمار والفاكهة اللذيذة، تعود القوافل أدراجها إلى الصحارى اللامتناهية ومدن البلاد العربية الغنية بالأحجار الكريمة الشبيهة بالنجوم البراقة المشعة.

كانت الجمال تحمل ألينا تمور الجنوب الحلوة. عندما تأتي القوافل تتفجر أسواقنا بالحيوية والنشاط، وتتحول المدينة بكاملها إلى أغنية موسيقاها رنين أجراس الجمال، وينتشر هدير الجمال ذات النظرة الحكيمة في الأجواء تعبيرا عما نزل بها من تعب وشقاء.

ونظرة الجمل هادئة مثل سماء الصحراء. يالها من نظرة لا تغيب عن ذاكرتنا ومخيلتنا ردحا طويلا من الزمن. كانت الجمال ترسل بصرها إلى جدران شارعنا وهي التي اعتادت لا نهائيات الجنوب، فتبدو عيونها باحثة عن آفاق هادئة، وتحدق بغير مبالاة في جموع الأطفال، الذين كانوا يتراكضون وراءها لينتفوا بعض وبرها بغية تأمين الصوف اللازم لحياكة الجوارب الشتوية الدافئة.

هاهو ذا جمل مزين كالعروس الشرقية بالمرايا الصغيرة، والأجراس المرنانة، والرقع الحريرية، والمطرزات الصوفية البديعة الألوان. انه جمل أسرة صاحب القافلة، الذي يصطحب معه عائلته لإطلاعها على بلاد الشمال العجيبة الغريبة- على أرمينية.

ثمة هودج على سنام الجمل المرتفع الضخم، انسدلت السجف الحريرية منه متمايلة مع إيقاع حركة الناقة. كانت وجوه النساء مغطاة حتى خياشمهن، بينما تلمع عيونهن الدعجاء مثل شمس الجنوب. كانت أفواههن تمضغ بلا انقطاع مع حركة توقيعية بين أحناكهن و تمايل الناقة. يمضغن بتكاسل وهدوء وهن يحدقن

بالنوافذ والسطوح، والرجال والنساء. كن غائصات بين الوسائد الملونة المنتفخة انتفاخ الصدور الكاعبة. نساء الصحارى الشهيرات بعيونهن الحالمة، يتمايلن مع تمايل النوق ليلا ونهارا من بلاد بابل وصولا إلى مدن ودساكر ارمينية.

* * *

هاهي القافلة تتأهب للسفر من المدينة. ينتصب الجمل مرسلا بصره إلى الأفق المحدود. يسارع الخادم الأمين لوضع السلم الصغير على بطن الجمل كي يرتقي سيده ويستلقي إلى جانب زوجته.

وتسمع عن بعد صوت القبلات وأنغام الأجراس. وتشاهد حركة الجمال والاستعداد التام لسفر سيد القافلة. تسير القافلة ليلا نهارا، لاتقف إلا حين تظهر الحاجة لإنزال الأحمال أو مقايضة البضائع، للبيع والشراء ومن ثم تغذّ السير مجددا.

عندما تصل القافلة في منتصف الليل، نسمع طنين الأجراس المجلجلة في عنان السماء الصافية المرصعة بالنجوم المتلألئة. كانت القافلة تسير الهوينا، ولكن بثبات وعناد باتجاه المدينة. كان الحادون النعسون يتمايلون مع حركة الإبل حتى تتوقف القافلة في إحدى ساحات المدينة أو لا تتوقف، بل تتابع سيرها وسلسلة الأجراس تدوي طويلا حتى يغيب صداها في أحضان سمائنا الزرقاء المزدانة بالنجوم.

* * *

حطّت إحدى القوافل رحالها لأيام ثلاثة في الساحة المتصلة بشارعنا. انتشرت رائحة مميّزة من وبر وبعير الجمال، ولاسيما من ألبسة وعباءات الجمّالين. أضف إلى ذلك شقشقة الإبل التعبة ونظراتها الرأنية الهادئة. ضربت خيام البدو المصنوعة من الوبر، واشتعلت المجامر ليلا. يالها من عيشة بسيطة جدا. فالجمّالون يعلفون إبلهم ويؤانسونها. والبدو لا يضحكون عاليا، وإنما تفترّ ثغورهم عن ابتسامة لطيفة تكاد لا ترتسم على شفاههم، وإن ارتسمت لا تتفكّ

تختفي وتتلاشى سريعا. بيد أن نظرة البدوي متوهجة كالشمس، حارقة كاللهب، رطبة كالندى. عيونه ذكيّة فطنة، تشعّ منها حرارة رمال الصحراء، فضلا عن سكونها وهدوئها.

ولما استعدت القافلة للرحيل مجددا انتشر هدير الإبل وقرقرتها وشقشقتها في أجواء المدينة بكاملها.

بيد أن جملا واحدا ظل نائخا، وامتنع عن الحركة والوقوف، ورنا ببصره إلى البعيد. تحلّق الجمالون حوله وتفرسوا أعماق عينيه، ففهموا قرارة نفسه: لقد ركبه العناد. امتقع لون الجمّال المهتم به خوفا من غضب سيّده. لقد حرن الجمل من فرط سوء معاملة الناس له. عاد صاحب القافلة وأمر الجمّال قائلا:

- ابقَ مع الجمل حتى ينكسر عناده ثم اتبعنا !

انصاع الجمّال للأمر. رنت أجراس القافلة السائرة، بينما لوى الجمل الحرن جيده وأرسل رجسا شجيًا قويا. أوقف الرئيس القافلة ظنا منه أن الجمل لا يريد الانفصال عن زوامله. ولكن ظنه خاب. فالجمل حرون لا يبارح مكانه قيد أنملة. وغذّت القافلة سيرها إلى بلاد الرافدين نحو الصحارى العربية البابلية.

مرت أيام والجمل لا يتخلى عن عناده البهيمي، بينما عيل صبر الجمّال من كثرة مداعبته ومؤانسته. وظل قلب الجمل قاسيا مثل صخرة صلدة في الوادي.

أثار برد الخريف الخوف في قلب البدوي. لقد انتهى زاده وهو الغريب لا يعرف أحدا يطلب منه طعاما، فاضطر لأكل العجين الرخو المُعَد لإطعام الإبل. كما أقنع الأولاد، الذين كانوا يسرقون الوبر من مؤخرة الجمال، بأن يجزّه بنفسه ويقايضهم إياه بالطعام.

وبعد أيام أصبح الجمل عريانا تماما، إذ باع الجمّال كامل وبره. طفق الجمل - بطل الصحراء - يرتجف من شدة البرد. ولم يبق وبر يقايضه بالأكل، فداهمت البدوي مجددا أيام الجوع والمسكنة.

كان أولاد الحارة يجلبون له الخبز والطعام ، وكان البدوي يحتضنهم مقبلا اياهم للتعبير عن امتنانه لهم، وقرر بعض الشبان الأشداء مساعدته حين أجمعوا على استنتاج مفاده:

- لو وقف مرة واحدة سيصل الصحراء دفعة واحدة !

أحض الشبان وتدين أدخلاهما بشق النفس بين قوائم الجمل النائخ، وشرع عشرون شخصا في حثه على الوقوف، هبّ الجمل متأوها متكاسلا، متوجعا متألما، عمّت الفرحة الجميع، وعجز ابن البادية عن التعبيرعن سعادته المفرطة؛ فابتسم ابتسامة مشرقة وعانق هذا وذاك وهذاك، وبعد دقيقة أو دقيقتين ترنّح الجمل إلى الأمام والوراء ثم أناخ وبرك، استبد الهّم بالبدوي وصاح الجميع:

- ياله من جمل عنيد !

سقطت ندف الثلج الأولى التي ما كادت تصل الأرض، ولكن عندما كانت تقع على ملابسنا السوداء، كنا نرى في ذرات الثلج البيضاء التي تبدعها الطبيعة جمالا ورونقا أعظم مما تبدعه يد الإنسان من مطرّزات أنيقة فاخرة،

كنا نراقب الثلج والفرح في قلوبنا، بينما أثار الثلج الأول الخوف والهلع في قلب ابن البادية،

نظر الجمل نظرة غريبة إلى ندف الثلج، وحينما كانت تقع ندفة كبيرة على أهدابه، كان يغلق عينيه ويهزّ رأسه بحركة عصبيّة،

وللمرة الأولى ركع الجمّال أمام الجمل ملتفا بعباءته وأجهش بالبكاء مرا، كنا ملتفين حوله وقد أحضرنا له بعض الزاد، لكن البدوي لم يعد يعير انتباها حتى للأكل،

كانت الدموع تحرق أجفان البدوي- رغم ندف الثلج الباردة- وتتدحرج عبراته على جانبي أنفه لتتلاشى في ثنايا شاربيه ولحيته المتناثرة، وكان الجمل

يتفرّس الجمّالَ بشرس ظاهر، ويغوص في أعماق دموعه. بينما كان الجمّال ينظر بدوره في عينيّ الجمل؛ فتتساقط الدموع وتحترق الجفون.

لقد امتزجت فرحتنا الناجمة عن تساقط الثلج مع مأساة رجل الصحراء.

وفجأة مدّ الجمل نُخرته نحو أنف الجمّال فاختلطت أنفاسهما. رغا الجمل رغاء المتوسل ولهث عدة مرات ثم همّ بالنهوض.

صرخنا فرحين:

– لقد تركته العفاريت...

كفكف الجمّال دموعه ولملم ما أحضرناه له من زاد. أمسك رَحْلَ الناقة واقتعد سنامه ثم انطلق فرحا نحو الصحراء.

وقف الناس على جانبيّ الطريق يراقبون الجمل الحرن، الذي كاد يطير طيرانيا وهو يرنو ببصْره إلى الآفاق البعيدة.

بينما كان الجمّال يحيّي الناس الواقفين في الشارع والذين كانوا يرمون له ما تيسر من دراهم و خبز يملأ به خرجه وهو في طريقه نحو الصحراء العربية، نحو شمس الجنوب.

لقد رحل عن بلادنا تماما مع بدء الشتاء القاسي، الذي كنس الخريف بكل أوراقه الصفراء والحمراء.

❊ ❊ ❊

الشـــــتاء

يتأخر الخريف عن الرحيل في بلادي ارمينيـة ليمهل النسـوة الفقيرات مـن جمع اللقاط، أي ما تبقى من عناقيد العنـب فـي الكـروم بعد قطـاف الموسـم، ومـن سنابل القمح بعد الحصاد، وريثما ينجزن صنع المربيـات المختلفـة المعقّـدة بأشـعة الشمس دون سواها.

ففي الخريف وحده ندرك قيمة الشمس الدافئة الحلوة، اللطيفة واللذيذة حقا.

أشجار حديقتنا تصفـرّ و تحمرّ كالدم القاني. وتتسـاقط أوراق الشـجرة كبيرة بحجم الكف، متأرجحة بتؤدة وتكاسل على الأرض وقد تلونت بشعاع الشمس مثـل ألسنة اللهب المنفصلة عن النار العظيمة.

يشبّ الصراع قويا بين الشمس والريح. وأخيرا، تنهزم الشمس الجبـارة أمـام الريح العاتية التي تتحول تدريجيا إلى صبّارة لا ترحم أبدا.

انـه الشـتاء القـارس المديـد. تنهمر نـدف الثلـج مثـل أوراق كبيرة، تغـطي الشارع وترتفع حتـى النوافذ، وتدفـن البيـوت فـي عمـق الأرض وتُسّـد الأبـواب، ويتسـاوى الشـارع مـع سـطوح المنـازل، فيسير النـاس مـن الشـارع إلـى السـطح مباشرة، حيث ينزلون من بابه إلى داخل البيت.

وبعد أن يغـطي الثلج الشوارع يتوقف عن السقوط فترة مـن الزمـن. ويحـوّل البرد القارس الثلج إلى مادة صلبة تسمع خشخشـتها عنـد السير عليها.تسْمعَ وقْـعَ الأقدام فتعرف عدد المارة في الشارع لإستحالة النظر من النوافذ المغطـاة بـالثلج.

وأكثر من ذلك. كان بمقدورنا تمييز كيت و كيت من جيراننا بمجرد الإنصات إلى وقع أقدامهم. كانت أمي الأكثر ألمعيّة بيننا جميعا. حدث ذات مـرة أن استيقظت في منتصف الليل مُعْلِنة:

– انه كيراكوس آغا.. أين يذهب في مثل هذه الساعة ؟ لعل ثمة مريض في البيت ؟! هذا الرجل لم يخرج في هذه الساعة منذ ثلاثين عاما، لابد أن طارئا ما نزل بهم ؟!

وفي الصباح تسارع أمي لإرسال الخادم إلى بيت كيراكوس آغا للاستفسار عما إذا وقع مكروه ما في بيتهم . ويرجع الخادم مبلغا إياها كلام كيراكوس آغا:

– بلغها سلامي وقل لها: أن مغصا ألمّ بالطفل فذهبت لشراء الدواء.

وتقلق أمي كثيرا من مباغتة الموت في ليالي الشتاء. كان هذا الهاجس يقّض من مضجعها حقا، ولكنها كانت تعزّي نفسها بالقول:

– الموت حق ولا مناص منه. كل شيء يهون دون الموت.

يدوم الثلج والبرد ثلاثة أشهر .

تنشغل الأسر الفقيرة بفرز براعم القطن. بينما تتصرف العائلات الغنية للأكل والاجترار طوال الوقت، فتنتفخ أجسادهم بالورم ويعانون من التخمة، فيستبد بهم الكسل والتراخي، والاستسلام للنوم في غير مواعيده. يتكلمون بلا معنى أو هدف، يثرثرون ويقهقهون حيث يتوجّب الصمت والسكون، والجد والجهد. ينامون طويلا فلا يستيقظون إلا ليأكلوا أو يجتروا ثم يستسلمون للرقاد والنوم من جديد . ينتشر داء الورم على الرجال والنساء معا . فالرجال يورمون من كثرة الأكل، والنساء من الأكل والحمل معا، فتبدو بطونهن منتفخة في أواسط الشتاء.

في منتصف الشتاء ينتفخ ساكنو بيتنا– باستثناء والدي وأخوتي. فالنساء يأكلن المخلل والكبيس بلا انقطاع وخفية عن بعضهن البعض. وبعدها تنطلق الأنات من مختلف زوايا البيت، تتبعها صرخات المخاض ومن ثم نغنغة المواليد من الأطفال. كان من الصعب جدا المرور بالمطبخ، حيث انشدّت حبال الغسيل لنشر فوط وملابس الأطفال. ستة شهور بكاملها والحبال لا تخلو لحظة من الغسيل المنشور فوق بعضه البعض بسبب قصر الحبال.

عندها يفور والدي من الغضب. فالثلج والبرد في الخارج، والفوضى والضوضاء في الداخل. كان يردد يوميا ذات السؤال:

- كم اليوم من الشهر ؟

ويُسَرّ جدا حين يأتيه الجواب قائلاً:

- الثلاثون من الشهر.

- الحمد لله .. لقد خلصنا من هذا الشهر أيضا.

يتمتم في سره ويتأهب للسفر. كان يلتجأ إلى اسطنبول للخلاص من صراخ و زعيق الأطفال. ولكنه كان يأخذ معه لائحة بأسماء الأطفال كي لا ينسى أحدا. كان يجلب الهدايا للجميع وبدون تمييز. وكانت أمي ترسل له في سفره أسماء جديدة لحديثي الولادة ومزيدا من الطلبات مبررة ذلك بقولها:

- ليحضرها معه فقد نحتاجها.

يسلم والدي بعد عودته صندوقا لأمي مليئا بالهدايا، ولا يتدخل في بقية الأمور. ولكن ثمة عادة متبعة في البيت وهي أن الأمهات كنّ يتقدمن مع أبنائهن لتقبيل يد الوالد، الذي يرد عليهن بقوله " عفارم " [مرحى] ثم يقبّل الأولاد. وبعد انتهاء الصف يتمتم الوالد قائلا :

- بَهْ، بَهْ، بَهْ.. ماشاء الله.. ما اشتغلتم غير شي...

* * *

نـــــداء القلـــــب

كان عندنا بستان في " **اوفا باغلار** " ٠

" **اوفا باغلار** " غوطة واسعة الأرجاء تقع على مشارف المدينة، عامرة بأشجار اللوزة والكرمة٠ كان بستاننا في وسط الغوطة تقريبا٠ في أواخر الخريف يحين موسم القطاف، فينتقل أصحاب المزارع إلى بساتينهم لفترة ١٠-١٥ يوما٠ يضربون خيامهم البيضاء ويشرعون في جمع الثمر٠ الليالي باردة عادة، ولذا تُضرَم النار في كل مزرعة٠

كانت غوطة " اوفا باغلار " - إذا راقبتها من أعالي الجبل - تبدو مثل سماء مشتعلة بالمحارق٠ كنا نغني ونرقص حول المحرقة، وكان يُسْمَحُ للآنسات بالرقص حول النار في تلك الأيام٠ وعلى قدر ما يشتد سعير النار، كانت تزداد وجوه الراقصين توردا وحمرة٠ في تلك الأيام تجد معظم الفتيات خطيبا لهن٠ فالدم يفور في قلوب الشباب والشابات من كثرة الرقص والغناء، واللف والدوران حول النار ٠ وكان كل من يجد قلبا عاشقا يختفي مع فتاته وراء الدغيلات - بعيدا عن المحرقة، حيث عرائش الكرمة والعنب الأحمر الحلو المذاق، وحيث تتأجج نار الحب القدسي الأزلي٠

تحت ضوء القمر، وفي الليل الأزرق البارد، تتلاقى الشفاه العطشى، وتتحد أرواحهما في روح الكون السرمدي٠ عندما كان الشاب يعانق حبيبته تشعر الأخيرة أن بركانا ناريا يحرقها فيذيبها٠ ويظن الشاب أنه يضم إلى صدره الطبيعة بكل ثمارها وعناقيدها الملوّحة بحمرة الشمس، وكأنه يستنشق عبير الخضرة النضرة المنتشرة عبر الحقول، وكأن الفتاة التي بين ذراعيه ليست المدعوة "**زاروهي** "، وإنما ألسنة من النار الحارقة٠

كنت تسمع بين الحين والآخر العبارة التالية :

- لنرَ أين ذهب الآخرون...

ويتجمّد العاشقان في مكانهما وقد تلاقت الصدور وتلاصقت الشفاه.

بينما يتعمّد الرفاق الأشقياء مباغتة العاشقين المتوارين عن الأنظار تحت أغصان الأشجار وعناقيد العنب.

ويزداد الوالهان التصاقا، وتشتد السواعد التفافا، فتصبح اللحظة أبداً سرمدا.

ومع انتهاء موسم القطاف يعودون إلى البيوت، حيث يشعر الأهل بالسعادة التي تغمر الشبان والبنات، ولا سيما عندما يمعنون في تلميع شعورهم كي تبدو كالهرمان تحت ضوء القمر. ومما لا شك فيه أن الطبيعة الحبلى بالخيرات تساهم في دغدغة أحلام الشبان، ومداعبة شغاف قلوبهم الشفافة.

وعلى الفور يقوم أهل الشباب بزيارات رسمية لأهل البنات.

زيارات لا يعرف بداية هدفها إلا الفتيات اللواتي تسلمن من أحبائهن قصاصات على السطح تقول: " سيزوركم والديّ اليوم لطلب يدكِ. فإن سألوكِ، لا تخجلي، وامنحيهم موافقتكِ ".

فيرد أهل الفتاة قائلين:

- نحن موافقون، فلنر هل البنت موافقة أيضا ؟

وعند منتصف الليل تسأل الأم - الأم وحدها - ابنتها :

- جاءوا يطلبونك فما رأيك يا ابنتي " زاروك " ؟

الفتاة لاتجاوب عادة ، وهل السكوت إلا علامة الرضى . ولكن، يتورّد خداها، وتفرّ مبتسمة.

ثم تنقل الأم نتائج مداولاتها إلى زوجها الذي يقول:

- الله معها " عقلها في راسها بتعرف خلاصها " .

يصبح الأمر واضحا تماما، ولكنهم لا يعطون الجواب فورا- فهذا دليل على تقدمة رخيصة - بل قد يستغرق أحيانا ثلاثة أشهر بحجة أنهم يقنعون الفتاة.

وعندما يُعطى الجواب، يسارع أهل الشاب لتقديم الشبكة دلالة منهم على رغبتهم في تسريع عملية خطبة الفتاة التي اختاروها بمحض ارادتهم.

ولكن يحدث أيضا أن الحب المتوقد في ظل أغصان الشجر وتحت ضوء القمر، لا يصل إلى مبتغاه بسبب العلاقات القائمة بين أهل العاشقين. فتتراكم السحب الدكناء، وتقع مآسٍ أليمة مؤسفة جدا. ولم يكن النصح والإرشاد يجديان نفعا لإقناع الأهل المتعنتين، المتصلبة قلوبهم كحجر الصوان. ولا غرو في ذلك اطلاقا. فهم عنيدون وخشنو الطباع أوليسوا هم من سكان الجبال.؟!

وفجأة ينتشر خبر فاجع: لقد رمى شاب نفسه من السطح فتناثرت تلافيف دماغه. وتسمع نبأ مأسويا آخر مفاده أن الفتاة قد شربت السم. ويتضح فيما بعد أن الشاب هو الذي سلّم بيده السّم إلى حبيبته - قبل انتحاره.

* * *

الجنـــون.. فنـــون

لاوجود إطلاقا لأية مؤسسة رسمية أو اجتماعية لرعاية المجانين.

الشوارع مليئة بشتى أنواع المجانين. البعض منهم جاء من الريف، والبعض الآخر من المدن الأخرى، وأغلبيتهم من سكان المدينة العاقلين سابقا الذين أصيبوا بمس الجنون فانطلقوا من بين جدرانهم الأربعة إلى الأزقة والشوارع.

لعل الكثير منهم قابل للعلاج- كما أعتقد - ولكن تشردهم في الشوارع يحول دون شفائهم. فالأولاد الأشقياء يطاردونهم ويثيرون غضبهم ويؤججون نار الإرباك النفسي في أرواحهم السقيمة المريضة.

إن التقاليد الريفية البالية البعيدة عن الأخلاقية لا ترحم أمثال هؤلاء الناس المساكين، الذين تعرضوا لهزات نفسانية بسيطة، ربما لم تكن لها ذات العواقب الوخيمة التي أدت إلى مختلف أنواع الجنون- لو أن الصالحين من البشر مدوا لهم يد العون والمساعدة. كما أن مناصري هؤلاء الأشقياء ترتاح صدورهم بمجرد رؤيتهم للتحرشات الشيطانية التي يمارسونها بحق هؤلاء المعتوهين.

* * *

أذكر هنا السيد بغدسار. كان رجلا طويل القامة ذا لحية طويلة كثيفة كالحة السواد، وحواجب كثة خشنة وسميكة فاحمة. كان أستاذا هامَ بحب ابنة المختار الذي رفضه بقوله :" انت أستاذ رأسه مليان وجيبه فارغ ". وهاهو المسكين الولهان يرتدي بزة سوداء فرنسية الطراز، ويتسكّع في الأزقة هلعا مذعورا.

انه يخاف شيئا ما.. فيهرول مرتاعا. ترى ما الذي يتراءى له ؟ لا أحد يدري بذلك، وما من أحد يرغب في معرفة ذلك.

كان الأشقياء يصرخون عندما يرونه :

-جاء السيد بغدسار ٠٠٠

فيرغي المسكين ويزبد، ويفور الدم في عروقه ويطلق ساقيه للريح مثل فرس أدهم رهوان، وقد استبدت بعيونه هالة من الرعب والخوف٠ كان أحيانا يعود القهقهرى، يتفرّس في الوجوه ومن ثم ينطلق راكضا من شارع لآخر ٠ ويتعالى الصراخ والضحك من شتى الأرجاء، من الأبواب والنوافذ، والسطوح وزوايا الشوارع٠

لم يكن أحد يعلم بماذا يقتات هذا الإنسان (السابق) وأين ينام ؟ كانت أظافره تتقلّم بالتكسّر، ويطول شعره الكث الوسخ بلا إنقطاع٠

لا أزال أشعر بالمرارة والخجل كلما مرّ هذا الإنسان بخاطري٠

* * *

ولم يكن السيد بغدسار فريدا٠

كان هناك مجنون تركي الأصل٠ يبدو عادة هادئا وذكيا، يتحدث في مواضيع متباينة، ولكنه عندما تثور ثائرته، يحطم ويهشّم كل ما تقع عليه يداه٠ كان يثور حين يقول له أحد ما كلمة " فِسْت " ٠ فما أن يسمع هذه حتى يستحيل شيطانا رجيما٠ وهي كلمة لا معنى لها إطلاقا، إنها مجرد نداء٠ والذي يميّز هذا المجنون عن السيد بغدسار أنه لا يثير الرحمة والشفقة ، بل ويهرب الناس منه خائفين مذعورين٠ كان هذا المجنون يرتاح بمجرد إلحاقه الضرر لعدد من الناس أو يقوم ببعثرة الفاكهة المرصوفة أمام المحال أو يكسر الزجاج٠

إثر ذلك يهدأ روعه ويستكين غضبه، ولكنه لو سمع - لا قدّر الله -تلك الكلمة اللعينة " فِسْت " مجددا، فانه يرغي ويزبد، ويثور ويفور مهشّما كل ما تقع يداه عليه٠

* * *

كانت ثمة فتاة قبيحة المنظر ذات رأس مشوّه، وشعر أشعث مجعّد٠ أذيال

ثوبها لا تستر عريها، ودائما بلا سروال. ساقاها عاريتان متفسختان وسختان. تقف أمام كل واحد من المارة مقهقهة كابليس، ثم ترفع ذيل ثوبها لتعرض عليه "مفاتن " جسدها.

حينما يعود أبي إلى البيت ويرفض تناول الطعام، كنا ندرك جميعا أنه قابل- ولا شك- تلك الفتاة على الطريق.

* * *

هناك مجنون آخر يختار يوميا أحد الشوارع. ينطلق من نقطة معينة إلى أخرى، ويكرّر العملية عودا على بدء طوال النهار. كان يبدو غارقا في بحر من الهواجس والأفكار. يضع يديه خلف ظهره، ويمشي بهدوء واتزان دون أن يعير الصارخين حوله أدنى التفاتة. كان يتوقف أحيانا لينظر بلمحة بصر إلى امرأة عابرة، فيبتسم لها ابتسامة ساخرة ثم يتابع سيره جيئة وذهابا، بخفر وخيلاء عجيبين. لم يكن هذا المجنون من أبناء البلدة. ولم يدر أحد من أين جاء هذا الرجل القصير القامة، المكتنز البدن، المستدير كالبرميل، المتورّد الخدين، الأشقر الشعر.

إن أعطاه أحدهم خبزا كان يتقبّله برضى واستحسان، لكنه ينادي على الكلاب ويقت الخبز أمامها. ينتظر حتى تلقمها وتنتهي منها، فيقطّب حاجبيه ثم يغوص في بحر وساوس الشيطان.

المجانين كثيرون ومتنوعون وهم يتكاثرون مع الزمان. ولكن ما من أحد يفكّر في لمّ شملهم والاعتناء بهم. فالناس لا يبصرون بعيونهم، ولا يفهمون بقلوبهم.

أذكر جيدا حين جاء أحدهم من أميركا وأعلن على الملأ أنهم يجمعون المجانين هناك في دور خاصة أشبه بالقصور، حيث يهتمون ويعتنون بهم ويؤمّنون لهم مقومات العيش. فاستغرب الجميع ذلك وقالوا: " يا لها من بلاد غريبة هذه الأميركا ".

ذات يوم استشاط والدي غضبا من أمر ما فصرخ يقول : " سأجّن ياناس ". تملكني شعور عظيم من الرهبة، وتصوّرت أن أبي قد يرمي بنفسه في الشوارع والأزقة.

المجانين.. يا لله ما أكثرهم في هذه الدنيا.

هناك مجنون آخر يبدو عاقلا في الظاهر، ولكن للجنون فنون- كما يقولون. لقد ضمّ أصابع كفه كلها وحوّلها إلى قبضتين مستديمتين لم يخرجهما من جيبه طوال سبع سنوات. اجتمع يوما نفرٌ من الرجال الأقوياء وتمكّنوا بشق النفس من إخراج يديه.كانت قبضتاه متعفنتيّن مثل جثة ملفوفة بالكتان ومطمورة تحت التراب. كانت ابنتاه وابنه الوحيد يلقمونه الطعام.

كان ثمة مجنون آخر يرتقي السطح يوميا ويجلس على طنفه مدليا برجليه، مهدّدا برمي نفسه إلى أسفل. لم يكن أحد يجرؤ على الإقتراب منه خوفا من أن يرمي نفسه حقا. وأخيرا، فقَدَ يوما توازانه وسقط أرضا من سطح بناية ذات طوابق ثلاث. سقط وتناثرت أشلاؤه شذر مذر.

ويتفق أحيانا أن يكون للمجنون أسرة و أهل، فلا يسمحون له بالخروج إلى الشارع، بل يهتمون به داخل البيت. ماذا يفعلون ؟ يقيدونه ويشدّون وثاقه ثم يستأجرون رجلا قويا عديم الرحمة يرميه في القبو أو في ركن من مستودع الحطب أو الفحم، ويشبعه ضربا بالعصا لتأديبه.

كان " العاقلون " يرددون قائلين:- إنها العصا السحرية ولا مناص منها.

والعجب العجاب أن الأهل كانوا يقرَون المرتزق بالطعام والشراب كي يزداد قوة وبأسا للبطش بضحيته المسكينة. ولا يتوانى هذا الجلاد عن التباهي بقوله:

- لا عليكم، سوف أؤدبّه كما يجب.

وينزل الرجل إلى القبو متحمّسا جدا. وتسمع بعدها صيحات بهيمية ناجمة عن لسعات القضيب، الذي يتكسّر على جسد المريض المسكين.

تلكم هي الطريقة الطبية الوحيدة المستعملة في علاج المجانين.

* * *

الدجـــــالون

في صيف ما٠٠ ظهر في مدينتنا رجل عاري الساقين، حافي القدمين، حاسر الرأس، يرتدي فراء ثعلب لا يكاد يصل ركبتيه، يمسك بيده عصا طويلة أعلى من فروة رأسه، أسمر كالعربي أو الهندي، ذو لحية متناثرة ولكن دقيقة الطرف جميلة، على جبينه شامة وذو شفاه قرمزية شهوانية٠ كان يعلـّق بالكتف اليمنى كشكولا يتدلى منها إلى الجانب الأيسر بواسطة سلسال ناعم من الحديد٠

كان الرجل أخرسا لا يتكلم أبدا، بل يطوف آناء النهار والليل، جامعا الدراهم في مخلاته٠ وسرعان ما انتشر خبر مفاده أن هذا الرجل سيتكلـّم – وبقدرة الرب– بعد سبعة أعوام، و سيبلـّغ البشرية بالوصية الأخيرة على لسانه٠

منْ هو ذاك الأخرس ؟ من أين جاء ؟ وكيف انكشف سر نبوءته؟

هذه وغيرها من الأسئلة لم تخطر ببال أحد من الناس٠

لكن هذا الرجل القادم من الجنوب – كما شاع – نال تقدير واحترام الناس أجمعين، لا بل ازدادوا في تكريمه حين اقتنعوا أنه ليس نفعيًا بدليل أنه كان يرفض تسلـّم أي شي – مهما كان ثمينا – لا يدخل في كشكوله٠ ومن هنا، حرص الناس على إعطائه النقود، وقد يجود بعضهم بالليرة الذهب٠

كان يبيت ليله في مقبرة الأتراك تحت خيمة صغيرة ينيرها بسراج باهت٠ يُحكى أنه لا ينام قط، بل يصرف الليل في الصلاة والتعبد٠ أي أنه كان يتجّول طوال النهار ولا ينام الليل، فمن يسأله كيف يعيش ؟!

لن يتكلم سبعة أعوام بَعْدُ٠ لن ينام سبع سنوات٠ سيصلي سبعة أحوال٠ وبعد ذلك ستسمع البشرية منه كلام الرب٠

كان يرتقي كل يوم منذنة جامع المدينة الرخامية، مرسلا بصره إلى السماء ساعة كاملة وهو يضع يديه على صدره ومن تحتهما عصاه الطويلة . وفي الأسفل يحتشد جمهور غفير. وتطير الأساطير حول أنه يكلّم الله، وأن الله واقف إلى جنبه فلا يتراءى للبشرية الخاطئة.

كان البعض منهم يروّج أن ما نراه مجرد صورة له، و أنه قد صعد في الواقع إلى الرب وسيعود قريبا من لدنه.

لكن بعض المحتالين في المدينة حالوا دون إنقضاء الأعوام السبعة وحرموا البشرية من نبوءة الرب الجديدة. كيف ذلك ؟! لقد خمّنوا أن ثروة طائلة قد تجمّعت تحت فراء الثعلب الذي يرتديه ذاك الرجل، فهاجموه ليلا وسرقوه.

نجا اللصوص بفعلتهم ، ولكن حكايتهم انتشرت في المدينة كانتشار النور عند انبلاج الفجر.

واتضح من تلك الحكاية أمر جوهري جدا وهو أن الأخرس الأصم، قد رشق - بقدرة قادر أيضا - السارقين بوابل من الشتائم القاذعة، وأن ذلك الورع التقي الذي كرّس نفسه للرب - قد ارتأى التضحية بروحه على أن يضحّي بماله. لقد حوّل الدريهمات التي جمعها إلى ذهب، إذ لم يجد اللصوص درهما واحدا.

في الغداة توارى الرجل عن الأنظار دون رجعة. ولم يدر أحد بما نزل به وأنّى ارتحل. وهكذا، صار نسيا منسيا.

❊ ❊ ❊

سأقص عليكم حكاية أخرى .

جاء مدينتنا رجل أميركي الأصل يدعى المستر جاكوب.

المستر جاكوب مبشّر يوزّع الروح القدس.

نعم، يوزّع الروح القدس لا أكثر ولا أقل.

كيف يفعل ذلك ؟!

كان يدعو جماعته فيقرأ عليهم موعظـة بالإنكليزيـة يترجمها أحد ما. وبعد البشارة يغمض عينيه ويصلي رافعا يديه نحو السـماء. وبعد الصلاة يعمّ صمت عميق لعدة دقائق ثم يقول:

- ليقف كل من تناول الروح القدس.

بداية كان الواقفون قليلين. تكاثروا في المستقبل وأصبحوا حشودا غفيرة.

لا أحد منهم يقدر على تفسير الشعور الذي يتملكه عقب حلول " الروح القدس"، لكنهم كانوا يقفون وبأعداد كبيرة.

متناولو الروح القدس كانوا يفرغون جيوبهم في صندوق المستر جاكوب.

مرّ شهر كامل ولا حديث للناس سوى الروح القدس. وظهرت جماعة من المرائين الذين قطعوا علاقاتهم مع أبناء طائفتهم لرفضهم تناول الروح القدس ، لا بل وانقطعوا عن إلقاء السلام عليهم.

خيّمت الفوضى في المدينة، وتأججت الحزازات بين أفراد العائلة الواحدة. فالأهل يتناولون الروح القدس، بينما الأبناء يرفضون أو بالعكس. الزوج يتقبله والزوجة ترفض ، فيشبعها ضربا أو يكيل لها الشتائم والسباب .وهكذا دواليك.

اولئك الذين كانوا يسخرون ممن تناولوا الروح القدس في البداية، شرعوا بعد تناولهم إياه بالسخرية ممن لم يتناولونه بعدُ.

امتنع المتناولون عن فتح حوانيت التجارة، لا بل أن أصحاب المهن المتواضعة والبريئة اعتبروها من الأعمال الآثمة. وهكذا، أغلقت الكثير من الحوانيت، وتعطلت الأعمال.

أصبحت مسألة الروح القدس - أستغفرك يا رب - مادة للحديث والتندر بين الناس. كانت عمتي الصغرى المتزوجة من رجل متديّن من أوائل المتناولين. لما سمع والدي بالخبر، أمر باحضارها اليه. لم تلبي أخته الدعوة فحضر زوجها الذي قال لأبي :

- إنها تخشى الحضور إليك ياحاج أفندي.
- مادامت تخاف مني فأي روح قدس تناولت يا ترى ؟!

وبعد أن اعتبر المستر جاكوب رسالته منتهية، أقام صلاة ختامية وجمع ماترتب عن ذلك من أموال ثم ابتعد.

بعد شهر من الزمن انتشر خبر يقول: أن المستر جاكوب قد قتل على يد مجرمين مجهولين خلال سفره من ديكراناكيرت إلى الموصل.

* * *

سـارق الأكفـان

كان لنا قريب - بعيد في القرابة - ندعوه: صهرنا " **مانوك** "٠ لم نكن وحدنا ندعوه هكذا، بل المدينة بأسرها٠ ..

كان الصهر مانوك نحيلا جدا، طويل القامة، ناتئ العظام، عيونه زرقاء غائرة وصغيرة جدا لدرجة أن عمتي كانت تقول فيهما " مثل ثقب المسلة "٠

في كل مرة يظهر فيها الصهر مانوك بدارنا (وقلما ما كان يزورنا) كان الكبار يتوجسون منه خيفة، وينظرون اليه نظرة شذراء، فتقول عمتي :

- لقد جاء مقصوف العمر !

لم يكن الصهر مانوك يلقي بالا لمثل هاتيك الأقوال والنظرات، بل على العكس من ذلك، كان يرسم ابتسامة طفيفة على ثغره ويسأل :

- هه، كيف حالكم ؟

فلا يجيبه أحد٠

وبعد صمت طويل تقطعه عمتي مهجّئة:

- ال ص ه ر م ا ن و ك٠٠٠

- كلامكِ سكّر، فلا تتكلمي٠٠٠

وتسكت العمة فورا رغم أنفها، إذ قد يسخر منها سخرية مرّة٠ وبعد أن تصمت عمتي، ينشغل مانوك بنا- نحن الصغار٠

كنا نحب الصهر مانوك لاشتهاره بالاقدام والشجاعة٠ كان يقصّ علينا حكايات مليئة بالبطولات والإثارة ، يبدأها مثلا بقوله : " اشتدت العاصفة الثلجية ونحن على قمة الجبل، وفجأة حاصرتنا الذئاب الجائعة٠٠٠ الخ "٠

حكايا من هذا القبيل تسحرنا وتأخذ بمجامع قلوبنـا ٠ وحينمـا كـان يقطعهـا كنـا نصرخ بلسان واحد :

– "تابعْ ٠٠ نبوس رجلك يا صهرنا مانوك٠٠٠ "

فيتابع كلامه بحماس منقطع النظـير ويصـوّر لنـا مـا لـم يكـن وكأنـه كـان، أو يصوّر لنا ماكان على غير ما كان٠

كانت عيناه تشتدان جحوظا وهو يقصّ علينـا حكايـاه، تكـبران لدرجـة تـرى فيهما الزرقة بوضوح ٠

ومع الزمان أدركنا – نحن الصغار – معنى عبارة عمتـي " مقصـوف العمـر مانوك "٠

لم يكن للصهر مانوك حانوتا أو مهنة يرتـزق منهـا، لكنـه كـان يعيـش عيشـة هانئة جدا٠ وعندما أقول مهنة لا أقصد أي مهنة عادية٠ كانت " مهنته " (مجـازا) تتلخص في اخراج جثث الأتراك من القبور ٠ تسألونني بالطبع : كيف ولماذا يفعـل ذلـك؟ ٠ الميـت مـن الأتـراك يُلَـفُّ بـالكفن* المصنـوع مـن الحريــر أو القمــاش النفيس٠ واذا كان مانوك يبيع الأكفان٠

تصوروا انسانا يدخل في عتمـة الليـل الحـالك السـواد مقبرة الأتـراك، ينبش القبر الذي دفن فيه الميت في ذات اليوم، يخرج المرحوم إلى أعلـى، فيمـدده علـى الأرض ثم ينزع كفنه ويلفّه في وسطه هو٠ وبعدها يعيد الميت إلى القبر ويواريـه الثرى مجددا، وبشكل لا يثير الشك والريبة في الصباح٠ ومن ثم يرمي بنفسه إلـى الشارع من فوق سور المقبرة، ويقفل عائدا إلى بيته، حيث ينام مطمئن البال٠

بعد انفضاح السر أصبح الصهر مانوك أكثر بطولة في أعيننا، رغم أننا بدأنا نخاف منه خوفا مريعا٠ وحينما كانوا ينصحونه بترك هذه " المهنة "، كان يمطمـط قامته ويقول :

---

* استخدم الكاتب بين هلالين كلمة " كفن " العربية لفظا ومعنى (**المترجم**)

- ياله من عمل مريح (راحة) *

عُرف الصهر مانوك بميزة أخرى وهي النباح مثل الكلاب تماما. هذه الميزة أنقذته مرارا وتكرارا من الوقوع في الفخ. فحينما ينبش القبر ويتناهى إلى مسمعه وقع أقدام بشرية، كان ينبح كالكلب المسعور فيفر الناس هلعين مذعورين. كان الخوف يتملك حتى الأرمن الذين يسكنون قبالة المقبرة بمجرد سماع نباح الكلب في منتصف الليل، فيمتقع لونهم ويبادرون إلى رسم شارة الصليب على صُدورهم وهم يتمتون خاشعين:

- إنه مانوك.. ينبش قبرا.. نجنا يا أم الرب...

في النهار، وعندما يمرّ موكب الجنازة في الشارع، يراقبه مانوك من النافذة ويضحك في سرّه قائلا :

- واه، لقد توفي الحاج مصطفى.. سهّل الله طريقك.. ستلاقي وجه ربك عاريا كما خلقك عاريا

وبعدها ينام طوال النهار مرتاحا ليعمل بجد ونشاط في الليل.

* * *

كان لصهرنا مانوك حمار خدمه سنين طويلة حتى هرم ولم يعد يجديه نفعا. فكر في بيعه، لكن الناس نصحوه بإطلاق سراحه. وأصرّ مانوك على رأيه، باعتبار أن اطلاق سراحه يعني فلتانه في الحقول، حيث يرعى العشب مسببا الأضرار للآخرين، والتمرغ بالتراب حتى يتعرض يوما للهلاك.

وبالفعل، باع الصهر مانوك الحمار. تملكت الدهشة والاستغراب الجميع. فقال والدي مثلا :

- شاري الحمار هو حمار!

---

* أورد الكاتب كلمة " راحة " صفة للعمل (المترجم)

بعد ثمانية أيام ذهب الشاري إلى القاضي طالبا نقض البيعة،معللا ذلك بقوله أن الحمار عاجز عن طحن(يقصد مضغ) الشعير، فيخرجه من أحشائه مثلما ابتلعه تماما، وبالتالي فأنه سينفق سريعا. اشتكى للقاضي قائلا :

- و ماذا أفعل بالشعير؟ هل أرميه للدجاج في الشارع ؟!

وأيقن سامعو القضية أن مانوك لن يجد جوابا مقنعا، لكنه قال :

- لقد بعتك حمارا وليس طاحونة.

واتخذ القاضي قرارا يقول أن شكوى الشاري لا أساس لها من الصحة، وعليه لايجوز الغاء عملية البيع.

❊ ❊ ❊

مفـــــارقات النــــاس

الحياة غريبة وعجيبة على الطريق الروماني القديم. والأغرب من كل ذلك أن الأرمن العائدين من أميركا قد جلبوا معهم الهندام الأميركي وبعض الكلمات الإنكليزية، علاوة على أفواههم الموروبة. كان لسانهم يعوّج ليس فقط أثناء التكلم بالإنكليزية، بل وبالأرمنية.

فمثلا " الحمار" * اوهانيس المعروف – لا أدري كيف أصبح " السيد " اوهانيس بعيد عودته من أميركا، والذي إذا تكلم الأرمنية تخاله يسخر من اللغةُ الأم، إذ كان كمن يلوك في فمه لقمة ساخنة. كان أبناء البلد البسطاء يرددون – بنوع من الفخر – أقوالا عصيّة على مفاهمهم مثال ذلك :

– إنه يجيد الإنكليزية لدرجة أن ابنه يتكلم الأرمنية كالانكليزية.

وكرهت اللغة الإنكليزية لأنها تجسدت في مخيلتي عبر المبشرين الأميركان وأرمن أميركا. وفي المستقبل حين امتلكت ناصية الإنكليزية، ونلت تعليمي في أميركا، أيقنت حقا أن النطق بها مثل شكسبير و ديكنز و بايرون لم يكن يتطلب بالضرورة اعوجاج الفم و تصعير الوجه.

لكن اعوجاج الفم لدى أرمن أميركا كان يستمر لسنوات معدودات. فما أن تهترئ الثياب الأميركية الطراز، وتتبدل بالزي البلدي حتى ينصقل اللسان ويعود إلى طبيعته الأرمنية، فينتفي اللفظ الأعوج، لا بل والمنطق الأعرج، فضلا عن الترخيم و التفخيم.

(*) تستخدم كلمة «حمار» في اللغة الأرمنية المعاصرة دلالة على الإنسان المغفل والأحمق. (المترجم).

يمتاز العائدون من أميركا بالأسنان الذهبية· فلا تجد واحد منهم إلا بأسنان من الذهب·

كانت أسنان الذهب عندنا بمثابة الكلمة الربانية " **كن فيكون** " أو الكلمة السحرية " **شبيك لبيك** " ·وبما أن المهاجرين امتازوا بمثل هذه الأسنان فقد أغروا أجمل الفتيات وتزوجوا منهن· أصبح ٩٩ بالمائة منهم في مصاف الأشراف؛ لأنهم امتلكوا مثل هاتيك الأسنان · وأقول هنا أن أختي الكبرى ذهبت ضحية لواحد من ذوي الأسنان الذهبية·· ولكني لا أريد التطرق إلى هذه الواقعة لكونها تحزّ في نفسي كثيرا، لا بل وحتى ذكراها يفطر قلبي دما·

كان للحمار اوفانيس (السيد اوهانيس) إثنان من أسنان الذهب في مقدمة الفك العلوي· ومن بين جميع المهاجرين لم يتمكن هذا الحمار وحده من إيجاد زوجة له أولاً – لأنه بالغ جدا في تقدير قيمة سنيه الذهبيين، فطفق يدّس أنفه بين عليّة القوم· وثانيا – لأنه حمار بحق وحقيقية·

بعد سنوات قليلة من عودة الحمار اوفانيس ظهرت تجاعيد جديدة على وجهه؛ لأنه كان يضحك كثيرا بغية إبراز أسنانه ليراها الناس· وبات الضحك عنده عادة ممجوجة تثير الإشمئزاز في النفوس· فكثرة القهقهة شوّهت وجهه بظهور نتوءات اصطناعية· إن سأله أحد مثلا :

– هل اشتريت خبزا يا سيد اوهانيس ؟

فيجيبه ضاحكا ببلاهة :

– أجل اشتريت هه هه هه هه···

– كيف حالك يا سيد اوهانيس ؟

– حسن هي هي هي هي هي···

وأكثر من ذلك· فإن قال أحدهم " إنها تمطر " كان يعلـّق :

– إنها تمطر ·· ها ها ها ها ها···

وما من نهاية لهذه المهزلة إطلاقا·

مات الحمار اوفانيس • صرخ ساعتين كاملتين متوجعا من مغص ألـمّ بـه ثـم أسلم روحه•

كان الناس يتقولون :

– لم يأكل الحمار سوى الهشيم فأصيب بعسر الهضم•••

انغلقت شفتاه بالطبع بعد الموت واختفت أسنانه الذهبية• واتخذ أهلوه قرارا بالكشف عن أسنانه قبل أن يدفنوه• ومهما حاولوا فتح شفتيه مانعت الأخيرتان في ذلك• تعرّض الأهل لمشكلة عويصة باعتقادهم، إذ يجب إظهار الأسنان من كل بدّ• كانت الخالة تستغرب نائحة :

– واهٍ ، كيف لا تظهر أسنانه الذهبية ؟!

استفسروا الكثيرين بلا جدوى• وأخيرا، اهتدى أحد الأقارب إلى وسيلة – عدّوها اختراعا– إذ باعدوا بين الشفتين بعودين من الثقاب، تمّ تغطيتهما بطرفي شاربيه•

أثناء موكب الجنازة كانت خالته تصرخ مولولة :

– إني فداء لأسنانك الذهبية•••

وهكذا، غادر الحمار اوفانيس هذه الدنيا فاغر الفم وكأنه يبتسم لزرقة السماء الصافية•

* * *

كــان الأرمن المهاجرون يعودون حاملين معهم أحيانا بعض الأمراض "المتمدينة " كالزهري وغيره من الأمراض التناسلية، ولكن هذا " التمدّن " لا ينسيهم عاداتهم الإقطاعية، التي عفا عليها الزمن•

كانت لنا أسرة مجاورة مؤلفة من الأم والابن والبنت •

يقال أن الأب قد رحل إلى أميركا منذ زمن بعيد• وأن ولده هوسيب(يوسف) قد ولد بعد سفره بشهرين• وأن أبا هوسيب كتب رسالتين من هناك و سكت للأبد• وأن الأم كانت تطرق أبواب الناس، فتغسل الثياب لتقوم بإعالة ولديها

وتصون ماء وجهها. و هكذا، أنهى ولداها المدرسة وأصبحا معلميّن في المدرسة، فأراحا أمهما من التعب الجسدي والضنك الفكري.

كانوا يعيشون عيشة بسيطة جدا ترفرف السعادة عليها بجناحيها الرؤفين.

وذات يوم ظهر بين هذه الأسرة رجل محدودب الظهر، شائب الشعر، نحيل البدن، أشبه بالهيكل العظمي، دائم السعال كأنه مشقوق الصدر.

لم يعترف الولدان بالرجل، لكن الأم أخبرتهما بأنه والدهما.

استقبله الولدان ببرودة يشوبها بعض الإحترام، رغم تخليه عن واجباته الأبوية والزوجية لمدة ثماني عشرة سنة، عانوا خلالها ما عانوا من حرمان وبؤس ومسكنة.

مرت أيام معدودة. انتشر ذات صباح خبر مفاده " أن هوسيب قتل أباه ". وخلال دقائق معدودة انقطع الشك باليقين. حقا أن هوسيب قد قتل والده بشناعة، إذ حطم رأسه بضربه بالجدار.

وعلى الرغم من صحة النبأ، فإن عارفي هوسيب على حقيقته شككوا في ذلك؛ لأن هوسيب كان معروفا بطيبة القلب، وصفاء الروح، وهدوء الطبع. وهو أعجز من أن يذبح ديكا، فما بالك يفظّع بأبيه أبشع تفظيع.

اقتادوا هوسيب إلى السجن . جرت المحاكمة بعد شهر.

لقد اتضحت الكثير من الأمور قبل إنعقاد المحكمة؛ ولذا هبّت المدينة بأسرها للدفاع عن هوسيب. قامت حملة واسعة لجمع التواقيع تأييدا له، وقُدمت العرائض والإلتماسات المطالبة بالعفو والإفراج عنه. كما انبرى عدد من المحامين للدفاع عنه مجانا. لكن هوسيب شكر لهم صنيعهم، وأصرّ على الدفاع عن نفسه أمام المحكمة.

واليكم الملابسات التي وقعت فيها الجريمة.

ففي اليوم الأول لعودة السيد جون (أصبح اوهانيس في أميركا جون) شرع في تأنيب وتقريع زوجته، مدعيا بأنها مارست حياة تهتكية لا أخلاقية خلال ثمانية

عشر عاما من غيابه، وأنها عاشرت عددا من الناس " مجهولي الهوية "٠ توسّط هوسيب وأخته مؤكدين أن أمهما كانت مثالية في تصرفاتها وقد صانت عرضها وشرفها، رغم أنها صابحت الحاجة وماست الفاقة٠ وحتى لو لم تكن -فرضا- على ما كانت عليه من دماثة الأخلاق حتى ظهور المدعو جون، فانه لا يحق له إدانتها لتركه طفليه عالة عليها، ولقطعه العلاقة معهم كلية ليس من الناحية المادية وحسب، بل وحتى من الناحية المعنوية التي تمثلت في توانيه عن إرسال مجرد "رسالة جاف "٠

لكن السيد جون ركبه العناد وأصر على معاقبة زوجته بناء على معلومات مسبقة ادعاها٠ جاهد الولدان أياما ثلاثة لإقناع الأب العنيد الصفيق٠ لكن الأخير رمى يوما المكواة المحمّرة على زوجته بغية تحطيم رأسها فأصابت - لحسن الحظ - إصبع قدمها٠

لم يفقد الولدان الأمل بعد هذه الحادثة، فواصلا مساعيهما لرفع ذات البين والتلبين من قناة جون الذي وصلت به الحماقة لإشهار مسدسه الذي أحضره معه من أميركا٠٠٠

اعتصر هوسيب والده بذراعيه القويتين٠ أخذ منه المسدس، ونزل عليه بالضرب ساعتين متواصلتين، مهشما رأسه على الجدار حتى أسلم الروح٠

وهكذا قتل هوسيب أباه العنيد الوقح الذي قابله لأول مرة في حياته٠

بعد إنكشاف الحقيقة، وجّه الرأي العام سهامه ضد القتيل دفاعا عن الأم البريئة والابن القاتل رغم أنفه٠

لم يحك هوسيب أثناء المحاكمة سوى قصة أمه المسكينة المعذّبة٠

يالها من حكاية حزينة مؤثرة استدرت عبرات القضاة والحضور على حد سواء٠ أشار هوسيب في معرض كلامه أن أمه انشغلت ليلا نهارا في غسل ثياب الناس؛ ولذا فان راحتيها المشققتيَن تقطران دما اليوم ٠ وأكد أن عددا من الأغنياء والشباب طلبوا يدها مرارا، لكنها رفضت الزواج كي لا تترك طفليها تحت رحمة

الرّاب ، وبعد كل هذا يأتي إنسان غريب أو المدعو بالسيد جون ليملأ كأس سعادتهم الأسروية بالمر والعلقم،

وأطلقت المحكمة سراح هوسيب،

عندما عاد هوسيب إلى البيت عانقته أمه والدمع يترقرق على خديها ساخنا مدرارا،

لم يشأ هوسيب العيش في المدينة القديمة، أخذ أمه و أخته ورحلوا إلى مدينة أخرى للخلاص من المكان الذي سيذكرّه على الدوام بالمأساة التي ألمّت بهم ،

* * *

قصيـــدتي البكـــر

تصفـّحت أسبوعية " الصحافة الشرقية " الصادرة في إزمير، قلّبتها أمام كـوة البريد، حيث نتسلم رسائلنا وجرائدنا(لا تقضي العادة بإحضار الرسائل إلى البيت) وقرأت اسـمي مذيـلا بقصيدتـي. وخيّل لـي – ومـا زلـت – أن توقيعي مطبـوع بأحرف من ذهب. وظننت كذلك أن أقدامي ارتفعت عن الأرض وشرعت في الطيران والتحليق.

كنت مغرمـا بالشـعر منـذ وقت طويـل، أطالعه وأكتبـه فـي جريـدة المدرسـة المخطوطة أو المنسوخة على العجين (الهكتوغراف). كما أنني حررت عددا أو اثنين مخطوطين لمجلة شهرية لم تصدر وقتها. حين كانت أمي تراني في غرفتـي أقرأ و أكتب ليلا ، كانت تخاطبني قائلة :

– هيا إلى النوم يا عزيزي.. فجنسنا لايطلع منه بولس– بطرس.

تقصد بذلك لا يخرج منا كاتب.

لم أصب بالغرور بعد نشر قصيدتي، ولكنـي مـا دريت لمـاذا اعتراني الجّد قليلا ولبعض الوقت، فقلت لأمي : " قلتي لـي مـا بيطلـع منـا بطـرس- بولـس .. كيف طلع ؟! " طبعا، لـم يكـن بمقـدور أمـي تقييـم كتابـاتي، ولكـن تقديسـها للكلمـة المطبوعة دفعها للابتسام وطبع قبلة على خدي.

كانت غرفتي الصغيرة وسطا بين الطابقين الثاني والثالث، ولها درج خـاص. غرفة صغيرة جدا مليئة بالصور وكتب الأدب، ومعظمهـا شـعرا. كـانت النافذتـان الصغيرتان تطلان على سطح الطابق الثاني. كان الأفق يتراءى مـن خـلال قمـة شجرة توت جيراننا، وعبر الزرقة المرئيـة بيـن أوراقهـا. فـي تلـك الغرفـة كتبـت

باكورة قصـائدي المطبوعـة. فـي تلك الصومعـة قرأت أشـعار بـدروس دوريـان وبكيت، ثم قرأت أشعار ميتزارينتس.

كان الشاعر ميتزارينتس قدس أقداسي فـي صبـاي. كنـا نتـابع بغضـب شـديد مجرى الحرب الشعواء، التي كان يشنها ضده صعاليك الأدب الرخيص، فنطيّر لـه الرسائل المؤيدة دفاعا عنه. جاءني يومها نسخة من ديوان الشاعر " قصائد جديدة" بتوقيعه الخاص. فشعرت – والحق يقال- بالفخر والاعتزاز. كنت أحدّق سـاعات طويلة في صورة ميساك وأقرأ مرارا قصيدته " ويتماوج البحر في روحي هادئا". كنت تواقا جدا للتشبه به، وتحديدا بلحيته، لكنـي لـم أك قد أحسسـت بعْدُ بـالزغب على وجهي. رغبت في أن أطبع باكورة إنتاجي على شاكلة ديوانه " قوس قـزح " – من نفس الورق والغلاف، بل ومن ذات المطبعة. وهذا ما حدث فعـلا. ولكـن، وأسفاه، لم يترك ديواني أثرا يذكر. عند ذاك شعرت أن ثمة إحسـاس داخلـي يجد طريقه إلى المطبعة، ثمة شيء امتلكه كل من دوريان و ميتزارينتس، ولـم أمتلكـه أنـا. ولكـن ثمـة قيمـة عظيمـة لديوانـي وهـي: أنـه مكرّس لرثـاء الشـاعر ميسـاك ميتزارينتس. قد يكـون الشـعر ليـس بمسـتوى المرثـي الكبـير، لكنـه كـان يومـذاك عصارة قلبي.

بعد سنوات انحنيت راكعا لتقبيل ضريح ميساك البارد في اسطنبول، فخيّل لي أن الشاعر قد خاطبني بشوق عظيم إلى الشمس. فشاعر الألوان البراقة يرقـد فـي ركن مظلم، بارد، ضيق، حيث لا مجد، ولا شعر.

ترى هل تبصر يا ميساك زرقة السماء ؟

لقد كبرت الآن. أصبحت بالغا ولا تنفك أنت شابا. ها أنذا البالغ فـي العمـر أمسّد بيـدي الرقيقتيـن رأسـك، رأس الشـاب الجميـل. وهـاهي دموعـي تتدحـرج علـى أشعارك و أغانيك.

عندما أشـعر ببـرد هذا العـالم أعـانق أشـعارك أيهـا الشـاب العظيـم . هـاهي الشمس التي غنيّتها في قصائدك تسيل قطرة قطّرة في ثنايا روحي الباردة.

جيـــرانـنـا الأتـــراك

كان لنا ثمة جيران من الأتراك.

شمسين ابن جارنا التركي من أترابي، وقد كبرنا معا. نشأنا اخوانا، أعطينا بعضنا البعض الحلوى والألعاب، سبحنا معا، وسويا كنا نقرص اخته التي تكبرنا بعامين، فنثير بكاءها.

أخته **صنين** تخالها الأثير خفة ورشاقة. بشرتها البضّة مروّاة بدم العافية. شقراء الشعر كلون الذهب الخالص. كانت على العكس من أخيها الأسمر البشرة، الأسود الشعر كالليل، الأدعج العينين، الحالك الحاجبين.

كانت ثمة شجرة من الآكاسيا في دارهم. كنت أشبّه صنين كثيرا بشجرة الآكاسيا البيضاء.

كان في كلامها غنة، إذ وقعت في طفولتها وأصيب أنفها بأذى. لكنّي كنت مغرما جدا بكلامها الأخن يصدر من أنفها، لا بل كنت أتمنى لو أن جميع الفتيات تكلمن من أنوفهن. صنين الفتاة الأولى التي لامستْ أصابعي الأماكن البضّة من جسدها، فكنت أشعر بسعادة طاغية، ظننت معها أن الأنثى المثالية يجب أن تتكلم من أنفها كي تثير في نفسي الغبطة والنشوة.

وعلى العكس مني، كان شمسين يسخر دوما من صنين وغنغنتها، مما جعلها تتودد إلي بدفء وحرارة عظيمين، لعلمها أن عاهتها التي تثير السخرية لدى الآخرين، توقظ فيّ- وعلى النقيض منهم - مشاعر الإعجاب و اللذة. ولذا كانت تسمح لي بتمرير أصابعي على جميع أعضاء جسدها...

وما أكثر الأعضاء في ذلك الجسد !

ففي كل مرة كنت أجد في ذاك الجسد بقعة جديدة و مجهولة تماما بالنسبة لي، أكثر بياضا و طراوة، و أكثر عبقا و لذة.

كنت في كل لحظة أكتشف قمة أو هوة كمن يبحث في بلاد بعيدة مجهولة أو في أدغال كثيفة مظلمة، فأشعر برعشة لذيذة و نشوة طاغية. وكلما كنت أكتشف فجوة جديدة أو وهدة حديثة، كان يخيل لي أن لا جديد بعد الآن، وأنني قد اكتشفت وامتلكت جميع بقاع الأرض المجهولة.

كلا، و ألف كلا.

فهاهي تضاريس جديدة: نتوء ما صغير، رقعة مخملية، وأخرى بيضاء صغيرة ولكنها لا نهائية.. ها هنا خطوط تتسارع، و دوائر تتماوج و تتسامق. أتلمس خطا بأناملي: يلتف ويدور ثم يستقيم وفجأة يختفي في حقل مرمري مصقول.

و أتابع مسيرتي من مجهول إلى مجاهل ويخيل لي أنّي سأصل حالا...

وأظن أني سأدرك ظلمة وسر المجهول.. سيشرق الصبح وتبزغ الشمس وتفيض بشعاعها على العالم، ولكن.. أين صنين ؟! لقد هربت.. ها هي هناك واقفة تحت شجرة الكرز وقد أشرقت ابتسامتها، وازهرّت ضحكتها المرنانة...

لقد انتزعتُ آلافا من أوراق الزهرة الأسطورية، وكان عليّ قطاف الآف الآلاف كي أصل إلى الروح– روح الزهرة.

تضحك صنين وتكركر.

تكركر مثل مياه الجدول الأزرق المتدفقة من السموات.

❊ ❊ ❊

كنا – أنا وشمسين – نتشاجر أحيانا، نتقاتل بلا سبب.

كان يدعوني فجأة بـ " الكافر "، فأرد عليه فورا بـ " الكلب ".

تعلمنا تينك الكلمتين من البيت و المدرسة. فكل الأتراك يدعون الأرمن كفارا، وكل الأرمن ينعتون الأتراك كلابا.

كان الأتراك يزورون والدي فيقريهم ويكرمهم على أكمل وجه، وعند الوداع يبدون لبعضهم البعض أسمى آيات الاحترام والتقدير، ولكن ما أن يبارحوا الدار حتى يتمتم والدي : " كلاب "٠

وبالمقابل حين يخرج أبي من دعوة تكريم أو استضافة معتبرة، يغمغم الأتراك قائلين : " كافر "٠

فالكافر والكلب ضدان متنافران أبدا، كالزيت والماء لايجمع بينهما جامع ٠

فأي تركي كان يدعونني " كافرا "، كنت أجيبه بعفوية فطرية " كلب "، باستثناء صنين٠

كانت صنين زهرة أكاسيا ينتشر أريجها ليلا مع هنيمات نسيم الربيع٠

عندما كانوا يقتادون أرمنيا أو مجموعة من الأرمن إلى السجن، يمر الأخيرون في الشارع مطأطئي الرؤوس، بينما تمتلئ صدور الأتراك نشوة وغبطة٠

وحينما كانت تمر جنازة تركي في الشارع، كان الأرمن يرنون بأبصارهم إلى السماء وهم يتمتمون " المجد لك يا رب !" ويفرحون لنقصان تركي من هذه الدنيا٠

لم أك أدري سبب ذلك كله٠ وبدون أن أدخل في سين وجيم مع نفسي، اشتعل الحقد في داخلي تجاه " الكلاب "، واضطرم الكره في نفس شمسين ضد "الكفار"

اختفت صنين وراء قضبان النوافذ٠ حجبت سحابة مدلهمة ضوء القمر الفضي، فلم أدرك يومها كنه ذلك اللغز المبهم ذا الرائحة الذكية العطرة، وبقيت أجهل سرّ هاتيك الخطوط والانحناءات، والبقاع الطرية المخملية، كما لم أتمكن من امتلاك الحقل المرمري بكامله٠

كانت صنين تمّر من أمام بابنا محجبة بسحابة بنفسجية، فتخترق نظراتي كالبرق سجف سترها لتجول في متاهات وغياهب الأرض الملتهبة بالنجوم٠

* * *

بَـــحْريـّــــة

عند كل صباح ومساء ترنو عين، وتمتد يد عبر قضبان النافذة؛ لترمي وردة تحت أقدامي.

تقع النافذة ذات القضبان الحديدية على بعد عدة أبواب أسفل دارنا، وهي لرجل دين تركي. ذلك الرجل لم يكن يسلـّم على أحد من النصارى، ولا يرد عليه السلام في أيام الجمعة.

ولكن في يوم الجمعة أيضا، كانت اليد البضة الناعمة مثل ياسمينة الصباح تمتد خارج النافذة لتلقي الوردة وتنسحب بلمح البصر.

ومن خلف القضبان تتناهى إلى مسمعي ضحكة رقيقة لطيفة، وحسيس فرح مكبوت.

أنها الزوجة الثالثة لرجل الدين المذكور أعلاه. فتاة كالربيع نضارة، مسجونة خلف القضبان.

يتأجج الشوق في داخلي لرؤيتها بأم عيني؛ والتحدث إليها وجها لوجه.

أرفع الوردة/ الهدية. آخذها إلى البيت، وانتسم عبيرها بلا انقطاع. ومن أريجها ترتجف روحي كالورقة في مهب الريح، وتغوص في عالم مليء بالنشوة الطاغية.

رجل الدين تخطى الستين: مقوّس الظهر، عيونه صفراء شريرة. يحلق شعر وجنتيه البارزتين، تاركا لحية مستديرة يزهو بها. وعند خروجه من البيت يوصي نسوته بشدة لمراقبة " بحرية "، وعدم السماح لها بالاقتراب من النافذة، وبمنع حتى الذباب من دخول البيت.

بيد أن بحرية المتأججة بريع الشباب، كانت تجد وسيلة ليس للاقتراب من الشباك وحسب، بل و لإخراج يدها وطرح الوردة والمناجاة أحيانا. سمعت ذات يوم هامس أتاني من خلف القضبان يقول :

- انزل غدا إلى الحديقة فالعجائز سيذهبن من البيت.

رنّ ذاك الصوت كالجرس الموسيقي في أذني، وأيقظ في داخلي الشوق إلى الأنثى .

سمعت الصوت ومشيت فورا. خيّل لي أن الصوت قد استلّ قلبي من بين ضلوعي وشدّه من خلال قضبان النافذة الضيقة.

ابتعدتُ. لكن الصوت اشتد قوة و رنينا في روحي الملتاعة.

توقفتُ تحت ظلال شجرة. نسجت الشمس أزهارا على الأرض فرأيت فيها صورة بحرية. هبّ النسيم فسمعت من خلال حفيف الأوراق صوت بحرية يقول لي : - انزل إلى الحديقة غدا...

وقفت على السطح ليلا، حيث انحنت أغصان الأكاسيا وتربّع القمر تماما فوق سطحنا. ورأيت وجه بحرية على القمر- يالها من عيون دعجاء كبيرة، وشعر مقصوص يتدلى على جبينها، ويفتّر ثغرها عن ابتسامة مشرقة.

تسلـّقت صباحا جدار حديقتنا وقفزت إلى فناء جيراننا. تبللت ملابسي بقطرات ندى الصباح. كان عليّ المرور بحدائق ثلاث كي أصل حديقة بحرية.

صعدت حائط الحديقة. أصابتني رعشة غريبة حسبت معها أن بمقدوري الطيران .

لمحتني بحرية فقفزت كالظباء.

ها أنذا تحت شجرة الرمانة المزهرة. أغصان شجر الشزبين تسترني عن الأنظار.. ظهرت بحرية.. توقفتْ. هاهي ترتجف واضعة يديها على صدرها الكاعب. عانقتها وسكرت بنشوة عبيرها.. احترقت شفاهانا.. قالت :

- لنذهب إلى الداخل.

لقد ذهب زوجها مع ضرّ تيّها إلى المدينة القديمة للبّت في قضية ميراث أمام المحكمة. أقفلوا باب الدار عليها من الخارج كي لا يتطرق الشك إلى نفوسهم بخروجها من البيت

أمسكتني بحرية من يدي واقتادتني إلى الداخل.. إلى غرفة النوم.

كانت تطوقني بذراعيها ، تبكي وتضحك في آن، وهي تزرع القبلات. كان الفراش مفتوحا وكأنها غادرته لتوها. عانقتُ الفتاة الشابة.. وتقلّبنا في الفراش وكلانا يشتعل بالشوق و الشهوة. حقا أن عبق المرأة يسكر كالنبيذ.

هكذا أحرقتني المرأة لأول مرة في حياتي.

تملكني شعور عظيم من الرهبة والرغبة الطاغيتين حين سقطت في أحضان الخطيئة المشبعة بالحلاوة و الطلاوة.

عمّ البشر والسرور أرجاء البيت كله، ونطق حتى الجماد مرددا:

- بحرية!! بحرية !!

كانت بحرية مستلقاة بلا حراك، ساكنة صامتة، تعيش فرحة العمر في لحظات.

- اذهبْ.. أسرعْ ...

ما هذا يا ربي ؟ إنها تبكي صارخة:

- هيا اذهب سيأتون عند المساء.

وامتزجت دموعها الحرقى بعبرات السعادة الزرقاء.

لعل زوجها العجوز قد تراءى لها بعينيه الصفراويتين الشريرتين ؟!

رافقتني حتى الرمّانة المزهرة. قطفتُ زهرة رمان وعلقتها على صدرها.. أمسكتُ يدها وقبلتها بحرارة...

ها أنذا أتسلق الجدار فأسمع نواحها مشفوعا بتنهيدة الفرح. توقفت بحرية تحت الشربينة الخضراء وهي ترنو إليّ بشوق و هيام.

قفزت إلى الحديقة المجاورة.

وافترقت إلى الأبد عن المرأة البكر في حياتي.

فيـــرونيــكا

في الغداة التقيت " **فيرونيكا** " ابنة عم " كريستين "٠ فيرونيكا فتاة حالمة رانية دائما إلى السماء، شقراء العينين٠ في قوامها رشاقة الظبية٠ وردية اللون والبشرة٠ كنت حين ألقاها تتعرّى روحي أمامها٠ وفي هذه المرة تسترت روحي بغلالة من الخجل وردية٠ لم أستطع النظر في عينيها٠ أمسكت يدها، قبلتها وبكيت٠ تمنيت لو أعترف لها، لكن روحي أبت أن تتعرّى، إذ وقفت أمام أبواب روحي الموصدة٠ سألتني فيرونيكا ببراءة:

– هل أمك مريضة ؟

– كلا٠

لم تقدر على التنبؤ بما حدث معي٠ كانت ما تزال سائرة فوق تلال البراءة الزرقاء٠ لاشك أن الطبيعة الرءوم كانت ترنّم في صدرها أغنية سحرية جذّابة، ولذا عجزت عن التكهن بالإثم الذي اقترفته٠ بلى٠٠ لم يكن بمقدورها قط أن تتصور أن امرأة صبية قد فتحت أمامي كنوز جسدها المجهولة، دون أن يعترها أي شعور بالخجل، بل وبشوق و لهفة أين منهما اشتياق الزهرة إلى نور الفجر٠

ها نحن سائرين إلى أعماق الحديقة٠ الأزهار تتكسر تحت أقدامنا، والثمار تتدلى يانعة من الأشجار٠ قررت الإعتراف لها بإثمي عند وصولنا إلى شجرة التوت العالية٠ وعندما وصلنا إليها طفقت فيرونيكا تعدو صارخة: " امسكني "٠٠ ركضت وراءها٠٠ تقاعستُ عن امساكها٠ وأخيرا، قبضت عليها٠ وبدافع خفي من ضريبة اللحم و الدم، تلاصقت شفاهنا باشتياق عظيم٠ وخيّل لنا أن الأوراق تصفق، والأثمار تغنّي، والحديقة بأسرها تضبط الايقاع٠

يتنهى إلى أسماعنا صوت ينادي :

– فير٠٠و٠٠ ن

التفتنا إلى الوراء معا٠ كانت كريستين٠ اقتربنا من بعضنا٠ كانت كريستين ترتجف كالورقة، استجمعت قواها وقالت:

– " بينو " قادم٠

– فليأتِ

قالتها فيرونيكا ورفعت يدها لتقطف ثمرة٠ خيّل لي أن نهديها سيطيران في الفضاء٠

" بينو " هو أخ فيرونيكا وزميلي في الدراسة٠ و كريستين لم ترتعش خوفا منه، بل من لوعة قبلتنا٠

جاء بينو ٠ تسلقنا معا شجرة التوت٠ لقد احمّر التوت من شدة الحرارة وجفّ ماؤه، فأصبح أكثر حلاوة٠

لقد أطبقت السماء الفيروزية على رأس فيرونيكا أيضا٠ هبّت عليها عاصفة هوجاء في الصحراء و طمرت الرمال جسدها الطاهر٠

نجمة الصبح وحدها بللت ثراها ببعض قطرات من الدمع، واستوى الليل بعيون محقنة بالدم٠

❊ ❊ ❊

إعـــدامات ومظالـــم

تنفّس الصبحُ . كانت السماء مكفهرّة عبوس. تساقط الثلج طوال ليل الأمس. ازدانت الأرض بأزهار السوسن.

تأبطت محفظتي وخرجت من البيت مسرعا إلى المدرسة . حيّتني الكلاب الصديقة تحية الصباح.

لاحظت أن الناس يمشون مسرعين صامتين والخوف في عيونهم. ثمة امرأة واقفة في إحدى زوايا الشارع والصمت العميق يعشعش في عينيها.

ساد صمت مطبق أشبه بصمت المقابر .. خلت الثلج الأبيض كفنا أبيض في نعش كبير. شعرت بالفطرة أن هناك شيئا ما يثير مخاوفي، التي ازدادت رهبة وخشعة كلما تقدّمت وتسارعت خطواتي!

كانت ثمة ستارة على نافذة تُشَدُّ من الداخل بشكل خفي غامض، وكأنهم يحاولون منع تسرّب أشعة النهار إلى الداخل. فتح أحدهم الباب و نظر بوجس وخيفة إلى الشارع، تفحّصه من أعلى إلى أسفل، ثم أغلق الباب.

قابلت كريكور آغا حاتا خطاه- وهو المشهور ببطء الحركة.. سألني :

- أنـّى تذهب ؟

- إلى المدرسة.

شئت إضافة شيء آخر، لكنه لوّح لي بيده، وتابع سيره وكأنه يركض مهرولا، وهو الثقيل الحركة كالثور المنهك في الحقل. بدا لي أنه يفرّ من خطر مداهم.

شاهدت جماعة من البشر مقشعرين من شدة البرد، ولكنهم يغدّ ون السير نحو الساحة الرئيسة . شئت الاستفسار عما يجري، فلم أجد إنسانا مرفوع الرأس. الجميع يتراكضون مبهوري الأنفاس.

كانت الحوانيت مغلقة رغم أنه ليس الجمعة أو الأحد. نادرا ما رأيت محالا شبه مفتوحة. نظرت إلى الداخل متلصصا من شق الباب. رأيت أناسا قابعين منزوين في الزوايا و الأركان لا يبدون حراكا و لا يتكلمون، كانوا يدخنون فقط وعلائم الخوف في سيمائهم.

لم ينبس أحدهم ببنت شفة، بل رمقوني بنظرة حسيرة . وبين فينة وأخرى كان أحدهم يبتسم ابتسامة مكفهّرة .

خرجت امرأة مذعورة، منفوشة الشعر وبثياب النوم تقريبا. أمسكت طفلا في العاشرة من كتفه وسحبته بسرعة وقوة إلى الداخل وأغلقت الباب .

وصلت الميدان.

في وسط الميدان، وفي مركز الثلوج المتراكمة، ثمة ركام أسود. تحلـّق أربعة من العساكر بحرابهم المشّعة حول الركام، حيث كان الناس يقتربون فرادى منكمشين على أنفسهم هلعين خائفين؛ ليلقوا نظرة ومن ثم يغطون أعينهم بأكفهم، ويبتعدون ساكتين صاغرين.

اقتربت بدوري.

رأيت رأسا مقطوعا بلا بدن.

لقد تجمّد الدم واسوّد فوق الثلج. كان الرأس في وضع النائم.

التفت جانبا فشاهدت رجلا مقطوع الرأس وقد غُرست يداه في الثلج.

تجمدت في مكاني لا أقوى على الحراك..

أمرني أحد العساكر صارخا:

- ابتعدْ فابتعدت..

وأدركت فيما بعد أن الحكم التركي الاستبدادي قد أعدم اثنين من الثوار. وقـّطعَ رأس ثائر آخر في الساحة العليا.

لقد أبصرت للمرة الأولى في حياتي صورة الحكم الشرير ، يالها من صورة رهيبة !!

خيّم الحزن في نفسي و اضطربت روح الطفل في داخلي.

شئت العودة إلى البيت، ولكن ثمة ضجة و ضوضاء في أعالي الساحة، ياله من حشد غفير!.. ركضت مهرولا.

– فؤاد بك!.. فؤاد بك... !

فؤاد بك تركي أشقر وسيم الوجه، عيونه حالمة، شاب عريض الجبين، نحيل القوام، شديد البأس. كان يلبس زيا شركسيا، يمشي بهدوء وتؤدة يعلوهما الفخر والكبرياء. كان فؤاد بك واحدا من الثوار الأتراك المنفيين من اسطنبول لأنه عارض إعدام الثوار الأرمن المطالبين بالحرية.

هاهو يرتقي درجا من الحجر أمام أحد الحوانيت ويقف خطيبا بين الجمهور، لقد غابت النظرة الحالمة من عيونه، حقا أن عينيه كانت تقدحان شررا، لكن نظرته اتسمت بالسمو والاعتزاز. أمسك طربوشه بيده وقد تدلى شعره الأشقر على جبينه الواسع. لا أكاد أسمع صوته، ولا أفهم إلا بعض الكلمات، و لاسيما نداء " يسقط ". انقضّ بعض العساكر الموالين للحكم انقضاض الصاعقة على فؤاد بك، اعتقلوه واقتادوه مكبلا بالأغلال.

تفرّق الحشد مذعورا هلعا.

خيّم الصمت مجددا.. ياله من صمت قاتل ثقيل، ثقيل جدا.

دخلتُ البيت.

لا أجِد يتكلم. حوالي سكينة، ولا سكينة القبور.

عانقتُ والدتي.

مسّدتْ أمي رأسي صامتة.

الصمت يخنقني.

أود الصراخ، لكني محكوم بقيود الصمت. أضحت المدينة بأسرها مقبرة

رهيبة٠٠ يا الله! رؤوس مقطوعة هنا وهناك وهنالك٠٠٠ ولكن هل يقطعون إلا رأس الخراف٠٠٠؟!

يتعالى الهمس من كل حدب وصوب٠

- أحمد جاويش٠٠ أحمد جاويش٠٠٠

وأصبح أحمد جاويش في نظري كذاك الشبح الأسطوري، الذي سمعت عنه كثيرا، ولم أره قط، وليس بمقدوري رؤيته أبدا٠

* * *

ذات ليلة ممطرة أغتيل ناظر مدرستنا هاكوب سيمونيان بطعنة خنجر تحت شجرة الزيزفون، وأمام بيته تماما٠

انتشر الخبر الفاجع صباحا بسرعة البرق الخاطف: لقد طعن الأتراك بخنجر هاكوب سيمونيان٠٠ يالهم من أتراك - كلاب٠٠٠

ومع انتشار الخبر اشتد الغضب و الغليان٠

وقعت العديد من الاشتباكات في شوارع المدينة بين الأرمن والأتراك٠

استمر الاجتماع في الكنيسة الأرمنية طوال النهار٠ قرروا تطيير برقية إلى بطريرك الأرمن الأرثونكس في الآستانة يعرضون فيها ما جرى من جرائم وانتهاكات واستفزازات٠ حوصرت المدينة بالعساكر٠ وعند كل زاوية وقف عسكري لمنع المرور وتفتيش المارة٠ كانوا يعتقلون الأرمن فقط٠ إلا أن الكثيرين من الأرمن الأذكياء، كانوا يلفون عصابة بيضاء على طرابيشهم كي لا يتم اعتقالهم، إذ كان العسكر يظنونهم من الملالي فيفسحون لهم الطريق٠ وهكذا، امتلأت المدينة بالملالي حتى المساء٠

استمر هذا الوضع أياما ثلاثة تحولت تدريجيا إلى كابوس مريع٠ بقيت الجثة في الدار محاطة بالأهل وحدهم، وما من إذن لدفنها٠

بعد ثلاثة أيام تمت عملية الدفن ٠ أطلق سراح المعتقلين في السجون للمشاركة في موكب الجنازة، الذي تجاوز الآلاف من الناس الذين حضروا من

القرى والدساكر المجاورة والبعيدة. جرت مراسم الدفن بدون إشكالات. فالجميع قد استكانوا و أطرقوا رؤوسهم خجلين .

لماذا ؟

لأنه اتضح أن قاتل الناظر لم يكن تركيا، بل شابا أرمنيا. والأنكى من ذلك أنه كان واحدا من تلامذته. تخرج قبل عامين في المدرسة وهاهو يعمل في التدريس.

لماذا قتل هاكوب اذاً الناظر هاكوب سيمونيان ؟

أجل، اسم القاتل هاكوب أيضا.

كان للناظر فتاة قريبة على قدر كبير من الجمال، أحبها القاتل هاكوب.

استشار أهل الفتاة سيمونيان عن تلميذه كي يقرروا نهائيا مصير كريمتهم.

فأجابهم الأستاذ:

- انه صبي أرعن بليد.

وسعيا منهم لاقناع الفتاة، أخبرها الأهل رأي الناظر في الشاب- باعتباره من كبار مثقفي المدينة - فأعلمت بدورها هاكوب القاتل لمجرد إطلاعه على الصعوبات التي قد تحول دون الرباط الزوجي بينهما.

فما كان من هاكوب الأبله إلا أن نحر الناظر بخنجره وأرداه قتيلا في منتصف الليل.

مختصر القول: لم يكن لأحد من الأتراك يد في تلك الجريمة النكراء. لقد سكت الأرمن من شدة الخجل. لكن الأتراك لم يمحوا هذه الإهانة من ذاكرتهم.

* * *

بعد تصرّم شهر على هذه الحادثة وجدت زوجة التركي الجلاد أحمد جاويش مقتولة في فراشها.

كان أحمد جاويش مناديا ذا صوت عالٍ فيه بحّة.

كانت الحكومة توكل إليه مهمة إذاعة الأوامر والاعلانات. وللحال يدّوي صوته في شتى الأرجاء معلنا في النهاية " ... والإعدام من نصيب الرافضين ".

أجل، كل نداءاته تنتهي بالتهديد و الوعيد، وبإنزال العقوبة القصوى على المخالفين.

عند منتصف الليل سُمِعَ صوت أحمد جاويش في حيّنا وهو يقول :

- " لقد خنق الأرمن زوجتي وفروا هاربين... ".

بعد هذه الكلمات سمعنا صوتا أين منه زنير الأسد. كان الصوت آتيا من أعلى السطح، حيث أخذ أحمد جاويش يدور حول نفسه، رافعا عقيرته بالصراخ ويديه نحو السماء: الأرمن خنقوا امرأتي وهربوا...

استوى الناس في فرشهم هلعين خائفين. رسموا شارة الصليب واستنجدوا بالرب لحمايتهم من النوازل والفواجع التي ستقع في الصباح.

لم تنتظر النوازل حتى الصباح، بل داهمتهم ليلا.

تجمهر العسكر و الأتراك في بيت أحمد جاويش، الذي روى الحادثة كما يأتي:- " داهم الأرمن بيت أحمد جاويش فربطوه وكموا فاهه بالقطن. وعندما حاول فكّ قيوده أشبعوه ضربا وخنقوا زوجته وفروا هاربين ".

صدّق الأرمن نفسهم هذه الحكاية لاعتقادهم أنها قد تكون نوعا من الثأر والانتقام. فأحمد جاويش هو الذي قطع بساطور الجزّار قبل شهرين رأسيّ اثنين من الثوار الأرمن في ساحة المدينة. انه الرجل الوحيد في البلد الذي وافق على القيام بمهمة الجزّار. والأنكى من كل ذلك أنه بعد بتر الرأسين ملأ راحتيه بالدم وغسل به لحيته ممسّدا شعرها، ثم ركع على بعد خطوات من الرأسين ليصلي خاشعا إلى رب العالمين.

بدأتْ الاعتقالات في الليل واستمرت حتى الصباح. غصّ السجن بالمعتقلين الأرمن الذين تعرضوا للضرب و الإهانة، والتحقير والإذلال وهم في طريقهم إلى السجن.

في ليلة الحادث أخبر أحمد جاويش زوجته أنه مسافر إلى القرية. وكان كثيرا ما يذهب إلى الريف. توجّه إلي السوق لاستئجار فرس. وعده السائسون بتخصيص فرس له، لكنهم حنثوا بوعدهم. انتظر أحمد جاويش حتى منتصف

الليل ولكنه لم يستلم الفرس. عاد أدراجه يائسا إلى البيت، فوجد امرأته في أحضان شاب تركي. هاج أحمد وخنق الشاب ثم رماه في بئر بيته. وخنق زوجته وتركها في الفراش ثم صعد إلى السطح ليصرخ بأعلى صوته :

– خنق الأرمن زوجتي وهربوا...

هذا ما وقع حقا وحقيقة..

أخرجوا جثة الشاب التركي من البئر واعتقلوا أحمد جاويش. كان أهل الشاب من عليّة القوم وذوي النفوذ، فلاحقوا القضية أمام العدالة التي حكمت بنفي أحمد جاويش إلى قونيه وعدم السماح له بالعودة إلى المدينة مطلقا.

لم يطلقوا سراح الأرمن المعتقلين دفعة واحدة، بل واحدا إثر الآخر. وأطلق آخرهم في آخر يوم من التحقيق بجريمة أحمد جاويش.

* * *

دخل تركي حانوت أرمني. ولما استحسن شيئا ما سأل الحانوتي عن ثمنه فرد عليه :

– الكيلو بعشرة قروش.

كاسره التركي:

– بخمسة..

– لا، رأسماله ثمانية

يصر التركي على الخمسة ويمانع الأرمني. يخرج التركي كازاً على أسنانه وقد اتقدت عيناه غضبا، وامتلأت نفسه حقدا وكراهية، فانهال عليه بالشتائم واللعنات.

يمر يوم- يومان فتسمع جلبة وضوضاء في الشارع: انهم الأتراك يضربون أرمنيا.

كان هو الحانوتي الأرمني الذي رفض بيع سلعته بخمسة قروش. لقد قابله ذات التركي وسأله في الشارع :

- ألا تبيعها بخمسة أيها الكافر ؟

- لا ٠

وشرع التركي بالصراخ :

- لقد لعن ديني٠٠ النجدة يـا نـاس!٠٠ كنت مـارا بسلام فشتم النبـي محمد ودينه الحنيف٠٠

تتألب شرذمة من الأتراك ضد الأرمني وتنزل به ضربا مبرّحا فيهشمون أنفه وفمه٠ ومع كل ضربة تنزل به كان الأرمني يردد قائلا :

- لا أبيعها بخمسة٠٠ خذوها مجانا٠

ما من أحد يسأل الأرمنـي المضـروب عن فحوى الكلام الـذي يـردده، ومـا علاقة كل هذا بالدين الحنيف ؟!

❊ ❊ ❊

وتقع حادثة من نوع آخر٠

يقابل نفر من الأرمن تركيًا لا يعرفونه في مكان مقفر فيفرحون قائلين :

- يالها من غنيمة باردة !

يقتربون من التركي و يبادرونه الحديث بقواذع الكلام، فيرد عليهم بأشنع ممـا بادروه٠

- يا كلب ٠٠ يا ابن الكلب، من أنت حتى تجيبنا هكذا٠٠٠

فيقتلونه في الحال و يرمون بجثته في حفرة ما ويتوارون عن الأنظار٠

بعد أيام يجدون الجثة و تبدأ الاعتقالات بين الأرمن٠

❊ ❊ ❊

كان للصـائغ ديكران بستان قرب المسلخ٠ سبق لـي أن زرت بستان أحد أقاربنا المجاور لبستان ديكران٠

عند الظهيرة ولج تركي البستان حـاملا سلة٠ طلب عنبا٠ لـم يشـأ ديكران إعطائه العنب، لكن الأم تدخلت قائلة:

– أعطه يا بني، إنه كلب وقد يناصبك العداء.

تصدّق عليه ديكران ببعض العنب، ولكن ما لا يملأ السلة. طالبه التركي مصرّا على ملأ السلة. فقال ديكران مازحا وملمّحا في ذات الوقت إلى أنه لا يريد إعطائه أكثر من ذلك :

– إن ملأتها ستكون ثقيلة فلا تقوى على حملها.

ألـحّ التركي بعناد على طلبه. شفعت له الأم ثانية، لكن ديكران رفض الطلب غاضبا وقال:

– كفاك ما قدمته لك حسنة.

أصر التركي مجددا واشتبك الإثنان.

كان ديكران رجلا نحيلا ضعيف البنية، بينما التركي قويا، ضخم الجثة. خسر ديكران المعركة بالطبع، إذ فقد واحدا من أسنانه، فضلا عن الضرب المبرّح الذي تعرض له. لم يتدخل أحد لوقف الشجار، إذ تذرّع الناس بأن" التركي كلب قذر وقادر على حبك ألف دسيسة ودسيسة للايقاع بنا "، وكانت النتيجة كما أسلفنا.

بعد خمسة أيام أستدعي ديكران إلى المحكمة.

ذهبت لمشاهدة المحاكمة رغم تحذيرات أمي الشديدة بعدم ارتياد مثل هذه الأماكن.

مثل التركي أمام المحكمة معصّب الرأس مدعيّا أن ديكران ألقمه حجرا فشـق جبينه. كما قدم تقريرا طبيا يثبت ذلك. حكم على ديكران بالسجن شهرين واقتادوه إلي السجن تحت طائلة الضرب. كان ديكران طوال المحكمة يلتمس شيئا واحدا:

– أرجو أن تكشفوا ضماد رأسه لنرَ عما إذا كان هناك جرح حقا !

لكن المحكمة اكتفت بالتقرير الطبي باعتباره دليلا ثبوتيا لا يرقى الشك اليه.

عندما اقتادوا ديكران إلى السجن، وخرجنا معه نحن أيضا، رأيت بأم عيني كيف نزل التركي إلى الشارع، ولما اطمأن للوضع، فكّ منديله ووضعه في جيبه. لم يكن هناك أي أثر للجرح، ولا حتى للخدش على جبينه.

❊ ❊ ❊

ذات يوم انتشر خبر في وضح النهار مفاده أن حلاقا أرمنيا قطع بالموسى عنق زبونه التركي.ذاع النبأ بسرعة البرق. سارع كل امرئ لإغلاق حانوته والذهاب إلى البيت. وخلال ربع ساعة من الزمن شغرت السوق من الناس وكأنها سوق الأحد.

ما الذي جرى ؟

كان الحلاق الأرمني يحلق لحية التركي حين ولج الدكان صاحبه الأرمني وأسرّ في أذنه هامسا :

– ماذا تفعل هنا يا هذا والكر والفر قائمان بين الأرمن والأتراك خارجا ؟!

كانت مجرد دعابة عادية.

فكّر الحلاق في سره هنيهة: الدنيا قائمة قاعدة في الخارج وهاهي الفرصة السانحة أمامه، فلِمَ يفوتها. وجرّ الحلاق موساه على رقبة التركي وانطلق كالصاعقة إلى الميدان وهو يهدد و يتوعّد. ولما أيقن أن الهدوء مستتب في الخارج، ركب فرسه وهرب من المدينة.

اقتاد العسكر مساء زوجة الحلاق إلى السجن فأشبعوها ضربا ولكما وهم يتوعدون ويهددون قائلين:

– أخبرينا بمخبئ زوجك .

❊ ❊ ❊

الدســـــتور العثمـــــاني

وأعلن الدستور العثماني.

عمّ الفرح و الحبور في كل مكان. الناس يتعانقون ويتصافحون، يحيّون ويسلمون، ويعبرون عن مشاعر المحبة و الصداقة. يا الله ! في تركيا دستور.

فتحوا أبواب السجون وأطلقوا سراح المعتقلين السياسيين ومن بينهم أستاذي.

أقيم مهرجان للحرية أمام مبنى السراي، حيث ألقى الثوار الأتراك خطبا نارية عن " القانون الأساسي "*

وشاهدت للمرة الأولى في حياتي ثوارا أتراكا. رباه، هل يعقل أن يكون التركي ثائرا ؟! هذا ما فطرت عليه، وآمنت به حقا.

عدت من المهرجان منهكا جائعا، ولكن فرحا مسرورا.

قابلت في طريقي شمسين.

مضى زمن طويل ونحن على خصام، لا نتبادل حتى التحية. لقد نعَتَ يوما والدي بالكافر، ووسمتُ أباه بالكلب. لقد سبق لنا أن تبادلنا ذينك النعتين كثيرا وتصالحنا بعدها، ولكننا في هذه المرة انتهكنا حرمة وكرامة والدينا معا.

لقد طعنني كلام شمسين في الصميم، لاسيما وأنه قيل في ذاك الوقت الذي كان فيه المرحوم والدي يتحوّل إلى رميم في قبره...

عاينني شمسين بطرف عينيه.

وكذا فعلت أنا وابتسمت، فابتسم بدوره.

---

* استخدم الكاتب تعبير " القانون الأساسي " بتوسط العثمانية طبعا(**المترجم**).

لا أدري كيف تحركت أقدامنا باتجاه بعضنا البعض، ولكننا تعانقنا

اصطحبني شمسين إلى دارهم. بدت الدار غريبة عليّ، إذ لم أرها منذ زمن بعيد. اقتادني شمسين إلى الداخل، ضاربا عرض الحائط حتى بكلمة " دستور " المتبعة لدى الدخول على بيت الأسرة المحمدية. لثمت يد أمه. التفتُ جانبا فرأيت صنين تبتسم لي. امتدت أيدينا كالأيدي التي تتحرك عفويا بغية التصفيق.

انقضى عليّ زمن طويل لم أرَ فيه وجه صنين مكشوفا، من دون الوشاح البنفسجي اللون.

لقد افتقدت نزرا يسيرا من شفافيتها و أثيريتها، فأصبحت أشد حمرة.

حين شددت على يدها بقوة ازدادت حمرة، ارتعشت شفتاها وأسرّت لأمها بشيء ما. بدت لي همستها طافحة بالأنوثة لدرجة تخيّلتها فورا وهي تسبح في الحوض، وأن الماء البارد يثير الرعشة في جسدها الممتلئ حرارة، أين منها حرارة الشمس.

❊ ❊ ❊

لم يُجْدِ الوفاق و العناق نفعا. فبعد أيام قليلة أسّر بعض " الحكماء " الأرمن في آذان الآخرين قائلين :

– لا تنخدعوا !

و همس بعض " الحكماء " الأتراك أيضا :

– حذار، فالأرمن يطمعون في السيطرة على بلادنا و إمحاق ديننا.

وكأن الزمان قد عاد إلى الوراء. وتلاشت " الحرية " بمثل السرعة التي جاءت بها.

❊ ❊ ❊

حين كنا صغارا، كنا نلعب لعبة تسمى " أرمني و تركي ". إنها لعبة بسيطة و عادية جدا: ثمة كومة من الحجارة تدعى " القلعة ". يتوزع الأولاد إلى فريقين لاحتلال القلعة. أحد الفريقين يسمى " أرمني " و الآخر " تركي ".

- لقد دخل الأتراك ...

- إذا هجم الأرمن فحطموا رؤوسهم...

وهذه اللعبة كانت تعدّ بريئة.

استمرت هذه اللعبة حتى الحرب العالمية الاولى. وقد مورست ذات اللعبة إبان الحرب، مع فارق أساسي وهو أن طرفي اللعبة هم حقا من الأرمن والأتراك، وكانوا يلعبون بجدية على أرض المعركة مشحونين بالحقد و الكراهية.

ما من أحد، لا أحد إطلاقا، لم يقل لنا لا تلعبوا هذه اللعبة. حين كنا - نحن الصغار - نلعب لعبتنا، كان الكبار ذوو الشوارب الضخمة، والناس الجديون و العقال جدا يراقبون لعبتنا ويفرحون. كان المشاهدون يغتبطون عامة حين ينهزم الأتراك. وكانت السعادة ترفرف بجناحيها على الناس حين كان الأرمن يكنّون الأتراك بالكلاب وغيرها من النعوت المهينة.

وعندما كان الحماس يصل إلى الذروة كنا نصيح قائلين:

- اضربوا الكلاب...

فيردون علينا:

- دخل الكفار...

كنا نواجه صعوبة في بداية اللعبة، إذ كان كل طرف يرفض تمثيل دور " التركي ". ولذا كنا نضطر لإجراء القرعة. فمن يقدر له لعب دور" الأرمني " ينشرح صدره فرحا، بينما يحزن من سيقوم بدور " التركي " الذي يشارك في اللعب رغم أنفه وامتثالا لقواعد اللعبة.

كنا نمو و نكبر بهذه الروح .تصوروا أننا كنا نسمّي القليفلة الحرّة " بالتركي " .

وفي لغتنا العامية كلمة " تترّك " تعني " توحّش "، و" استوحش الأ نسيّ ". وإذا أردنا القول مثلا " نفذ صبري " نقول " تترّكتُ ".

ومما لا شك فيه أن الأجيال القادمة ستروي الحكاية العجيبة التالية :

" كان ما كان، كان في قديم الزمان شعب قليل العدد ذو مجد تليد. امتدت حدود بلاده من بحر وان حتى البحر الأبيض المتوسط، ومن بغداد إلى بيزنطة. أبناء ذاك الشعب العريق بينهم

الفلاح والحرفي، المثقف و الصيرفي، التاجر و الإقطاعي، الفقير و الغني، الموظف و العـامل، المالك و الخادم، السيد و العبد و غيرهم. ذاك الشعب أحبه أبناؤه الأثرياء في شتى المهاجر، وهام به وزراء الدول الغربية؛ لأنه شعب ذو عيون سوداء جميلة، ينشر التمدن والحضارة في الشرق الذي يسوده عصر الظلام. ومن فرط حبهم له دفعه أبناء أرومتـه ووزراء الغـرب إلـى أتون الحرب مع جيرانه الذين يتباينون عنه بالدين والعرق و الحضارة، ولكنهم يفوقونـه فـي العدد و العدّة.

كان ما كان، كانت هناك حرب عظمى . تصاعد دخان البارود وغطّى العالم بأسره، وسالت أنهار من الدم البريء. صرخ الوزراء و الأبناء الأثرياء في أذن الشعب : " أزفت ساعة الحرب، فاضرب بصليبك صولجان عدوك ".

شعّتْ عيون الشعب السوداء الجميلة تطلعا إلى الحرية و الاستقلال. نشبت حـرب ضروس متباينة في القدرات. فضربوا الشعبَ حتى الموت، بل وحاولوا إفنائه عن وجـه الكرة الأرضية، فكان الفشل و الخذلان نصيبهم. ولم يبق من ذاك الشعب إلا أبناء الشتات الأرمنـي. الشتات تجسيد لذلك الكابوس الرهيب..

وقهقه الوزراء و الأبناء الأثرياء باستهتار و وقاحة فوق العظام و الرماد.

وهنا سقطت ثلاث تفاحات من السماء ... ".

* * *

أمـــــراء الرمـــــاد

ثمت جيل يسمى بالتركية " كلخان بك " ما ترجمته " جيل الرماد " تشبه ولادته ميلاد يسوع الناصري قبل ١٩٣٠ سنة : من غير أب ، إذ لا يعقل أن يخلق في عصر واحد شخص آخر مثل يوسف النجار، الذي تزوج من عذراء مع ولدها السماوي. فعذارى هذه الأيام يلقين بنغالهن في أكوام الرماد خلف الحمامات، حيث يكبرون دون رعاية من القديس يوسف والقديسة البتول.

ففي الشتاء ينامون على الرماد الدافئ خلاصا من البرد القارس الذي لا يرحم.

أمراء الرماد هؤلاء يعيشون شبه عراة، يتسكعون على أبواب المساجد فيتعرضون للضرب بشتى أشكاله من صفع ولكم، ورفس ولطش، وركل ولطم.

يقتاتون في المزا بل بقشور البطيخ و التفاح. يخطفون فتاتا من اللحم و العظم من مخالب القطط. يتسولون كراعا أو رأسا من الغنم من حوانيت الجزارين، ويسرقون البيض من الحوانيت، وينتشلون الفطائر و الفاكهة من أيدي أولاد الأغنياء في الحارة.

يجتمعون عند الظهيرة خلف الثكنة العسكرية ليسكتوا ضجيج المعدة من فضلات العسكر . كانوا يهاجمون الحمير والعربات المحملة القادمة من القرية إلى المدينة؛ فيضربون أصحابها للحصول على بعض القمح أو الطحين. وكانوا يباغتون بصورة خاصة أحمال الشمندر إذ كانوا يسلقونه فوق النار الكامنة تحت الرماد المنثور لتوه من الحمامات.

لم تكن ثمة مؤسسة حكومية أو دينية أو خيرية تفكّر بهؤلاء " الأمراء ".

كانوا يدفنون أمواتهم بأنفسهم وعلى مقربة من أكوام الرماد . كانت عملية الدفن تترافق بالطبع مع شجّ بعض الرؤوس نتيجة المعركة الدائرة حول اقتسام أسمال المتوفي.

كان القانون المدني يفرض على صاحب الحمام تنظيف أكوام الرماد مرة في السنة. وخلال عملية التنظيف كانت تكتشف عشرات الجثث تحت الرماد.

لقد نام الكثيرون ولم يستيقظوا٠

❊ ❊ ❊

كان " عليّ " واحدا من أمراء الرماد ٠كان بطلا وسيما مديد القامة، متناسق البنية، قوي البدن٠ كان في الخامسة والعشرين حين استدعاه والدي وعينه حارسا علـى مزرعتنـا٠ فـامراء الرماد هم الذين دمروا مزرعتنا في الماضي٠ ولكن بعد استلام علي لوظيفتـه، لـم يدخلهـا أحـد من الأمراء، إذ كان علي نفسه يتصدّق لماما على عصابته ببعض الفاكهة و الخضروات٠

كان والدي راضيا عن توظيف علي٠ فالمزرعة نجت من الدمار، وعلي مخلص و وفيّ، جسور مقدام٠ كان أحيانا يشتبك مع الجند رمة فيهزمهم٠

استبدل علي ثيابه بعد توظيفه، و استحم للمرة الثالثة في حياته، كمـا حلـق وجهـه و قـصّ شعره٠ شدّ في وسطه زنارا قماشيا أخضر عريضا، غرز فيه سكينا و دبوسـا للتـأديب، فضـلا عن غليون طويل٠

بيد أن تغيير الهندام لم ينقذ علي ٠ فالناس لم ينسوا أصلـه، بـل كـانوا يمتهنونـه فـي كـل شاردة و واردة بقولهم : " انه أمير الرماد " ٠

وقف علي يوما أمام والدي خجلا حييا ثم قال:

– يا حاج أفندي، إنني أفكر بالذهاب إلى مدينة أخرى، فالجميع يعرفوننـي هنـا وينعتونـي بأمير ألرماد٠

دفع الحياء هذا الرجل القوي لذرف دموع حارقة، لم تعرفها أجفانه قط٠ دمـوع لا تشبـه أبـدا تلـك التـي سبق لـه أن عرفها إثر ضربـات القضيب أو السـوط التـي كالهـا لـه العسـكر العثمانلي٠

– لا تلق بالاً لمثل هذه الترهـات يـاعلي٠ سينسـى النـاس بعد سـنوات أنك مـن أمـراء الرماد، وتصبح بشرا سويا مثلهم٠

قال أبي ذلك و وضع في كفه بعض المجيديات الفضية٠

لم يكن علي يحتفظ بدراهمه، بل يودعها أمانة لدى عمتي العجوز. فهو لا يهتم عادة إلا بأمور المأكل و الملبس. أكله عندنا في البيت، وملبسه عبارة عن جبّة اشتراها أبي له. أما عمتي فكانت تمدّه بالتبغ من مخزون والدي.

كان علي منشغلا بأمر تدبير عمل لأفراد جماعته. فبفضل خدمته عندنا تعرّف على بعض أكابر البلد المقربين إلينا، ما أتاح له فرصة تشغيل أصدقائه في أعمال مختلفة: خادم في البيت، ومكاري، وسائس خيل. أما البقية منهم، فقد امتهنوا التقتيل و الفرار إلى الجبال، حيث أصبحوا لصوصا و مجرمين يثيرون الرعب و الخوف في نفوس الناس.

قامت سلطات المدينة بوضع عناصر من الجند رمة في مزرعتنا بغية إلقاء القبض على رفاق علي المجرمين، لكن محاولاتها باءت بالفشل الذريع. كانت أقل إشارة على باب السياج كافية تماما للحؤول دون اقتراب قطاع الطرق من المزرعة. ولكنهم ما كانوا يفوّتون فرصة نزولهم من الجبل إلى المدينة فينهبون من يواجهون ويفرون هاربين.

كانت أمي قلقة دائما على أبي، إذ ربما التقوه يوما ونهبوه. كانت تنصحه قائلةً:

– عدْ باكرا إلى البيت فقد يسرقونك يوما. حريٌّ بك ألاّ تأخذ ساعتك و نقودك معك.

– لا عليك يا امرأة. انهم يعرفونني ولن يجرؤ أحد على ذلك.

بيد أنهم تجاسروا على ذلك و عاد والدي يوما إلى البيت منهوبا. ذكّرته والدتي بتحذيراتها له، فأجابها معللا الأمر:

– كان الظلام حالكا يا امرأة فلم يتعرفوا على صوتي.

– هل كان الظلام وحده حائلا دون التعرف عليك ؟

– لو أنهم تعرفوا عليّ لما أقدموا على ذلك.

وفي منتصف الليل أرسل والدي في طلب علي. جاء الأخير مبهور الأنفاس. حكى والدي له ما جرى معه، فاكتأب علي وخرج من البيت لا يلوي على شيء.

في الصباح الباكر رمى أناس مجهولون من نافذة بيتنا الساعة و المعطف والنقود وبعض الأوراق– أي كل ما أخذوه من أبي.

حضر علي عند الظهر ووقف محمرا من شدة الخجل أمام والدي ثم قال:

– لم يعرفوك يا حاج أفندي. أجاب والدي مبررا فعلتهم :

- انهم جياع فلا أدينهم.

لقد ذاد علي عن حمى مزرعتنا بإخلاص و إقدام عظيمين. كان كل عشرة أيام يهرق دما أو يشج رأسا دفاعا عن شجرة أو دغلة أو حتى ورقة لا قيمة لها اطلاقا.

ذات يوم وقف علي قبالة والدي محاقا بـالهواجس و الأفكـار. كانت عيناه تشعان بريقا وكأنه وجد شيئا ما يريد الإبلاغ عنه لأبي، لكن الخجل يمنعه من ذلك. سأله أبي :

- ما بك ياعلي ؟

- هناك أمر ما.. لكنني أخشى أن تسخر مني.

- قلْ.. لاتهتمْ. إذا كان الأمر مدعاة للسخرية ضحكنا معا.

قال علي متلعثما ولكن بنبرة تسودها الثقة و الاعتداد بالنفس.

- قررت يا حاج أفندي الذهاب حافيا إلى مكة المكرمة و العودة منها حاجا. لقد نذرت نذرا وعليّ الوفاء به.

- نعْمَ الرأي ياعلي. ولكن لمَ الذهاب حافيا ؟

- سأمشي حافيا كي يتحقق ما أحلم به.

اختتم أبي كلامه قائلا :

- حسن جدا.

كان ثمت شيء آخر يود علي قوله، وبالأحرى شيء يخجل علي من الكلام فيه.

توسل علي قائلا:

إ نّي فداء رجليك يا حاج أفندي.

وأدرك والدي مرامه فقال:

- صارحني يا علي. قل ما تريد، فأنا مدين لك بأشياء كثيرة .

تجرأ علي وتمتم قائلا:

- أعطني يا حاج أفندي ليرتي ذهب؛ كي لا أموت جوعا في الطريق.

- الليرتان لا تكفياك يا علي. سأعطيك خمس عشرة ليرة من الذهب.

وهنا انحنى علي ولثم ذيل رداء والدي.

وفي الغد أذاع علي نبأ قيامه بفريضة الحج إذ أن العقيدة الإسلامية تفرض على إخوانه المسلمين تقديم الهدايا و العطايا لإعانته على أداء الحج.

* * *

وفي اليوم التالي، عندما عدّ والدي خمس عشرة ليرة في راحة علي، علقت والدتي من باب التندر قائلة :

– لو شاء أرمني مسيحي زيارة القدس الشريف لما أعطيته هذا المبلغ.

– أنا أدرى بما أفعل. فبعد عودة علي من الحج سيجزيني الله خيرا، ويردها لي مئات ومئات من الليرات.

بعد أيام تأهب علي للسفر بأطماره، حافيا و في يده هراوة ضخمة طويلة. تمنى له إخوانه في الدين سفرا ميمونا، ولكنه لم ينل منهم أية معونة. إن أصله الاجتماعي تغلّب حتى على المشاعر الدينية، والأيمان الحق.

لثم علي مجددا طرف رداء أبي وقال بنبرة جازمة :

– لعنة الله على هذه الدنيا يا حاج أفندي.

قبّل والدي جبين علي ودسّ في كفه ليرة أخرى وقال:

– حينما تمر بالقدس، حيث بئر يعقوب، وحيث قابل يسوع السامرية فطلب منها أن تسقيه، أشعل هناك شمعة عن روحي.

– سأشعل عدة شموع. كن مطمئنا البال يا حاج أفندي.

تلكم هي الكلمات الأخيرة التي نطقها علي قبل التوجه شطر مكة المكرمة.

انقضى عامان على سفر علي. لم نسمع أخباره قط. كان الكثيرون يرددون على أسماع أبي:

– لعله افتتح بمالك حانوتا في مدينة أخرى، حيث يعيش مرتاحا.

لكن والدي كان يؤكد بإصرار :

– علي سيعود حتما وسترون ذلك بأم عيونكم.

عاد بعض الحجاج الأتراك من مكة فسألهم أبي عن علي. قال أحدهم :

– رأيته في القدس. سيتأخر في العودة لأنه ذهب ماشيا.

أذاع الحجاج المسلمون الأخبار عن ورع و تقوى علي ، وحرارة إيمانه إذ يطمح إلى طمس معالم ماضيه الاجتماعي، إلى تطهير أصله " الدنس ".

❊ ❊ ❊

بعد انصرام أعوام ثلاثة عُلـّقتْ إعلانات على جدران المدينة تفيد أن عليا سيرجع من مكة المكرمة حافي الأقدام، تعبا منهكا، وأنه من المفروض على كل مسلم أن يستقبله وأن يتنشق من خلاله رائحة الجنة التي وعد الله المسلمين بها.

وشاع نبأ مفاده أن عليا سيجلب معه هبة نبوية منحت له لكونه وصل الكعبة حافيا وقد أحرقت الشمس اللاهبة و رمال الصحراء العربية اللاظية جبهته و أقدامه.

غب يومين أشهروا عليا " بك " وأصبح يعرف بـ " علي بك ". وهذا اللقب السامي استحقه من جمهور المؤمنين قبل وصوله. و استعدّ كل مسلم لاستقباله بما يليق بمقامه الرفيع.

❊ ❊ ❊

ياله من صيف قائظ. يتماوج الهواء مع وهج الظهيرة؛ فيحترق التراب. و الشمس اللافحة تكوي سنابل القمح في الحقول.

احتشد آلاف الناس على الطريق الترابي. فقد تـْ السجاجيد الممدودة على مسافة ميلين أو ثلاثة– ألوانها السحرية من كثرة الغبار.

تراءت نقطة ما في البعيد.. اتضحت الصورة تدريجيا.. انه الحاج علي وقد اعتمر عمامة خضراء، واكتسى بعباءة خضراء، وفي يده ذات الهراوة الطويلة. كان مكشوف الصدر، حافي القدم. كما أنه كشف عن وشم الحج، الذي ناله تقديرا لتضحياته و آلامه التي عاناها في طريقه إلى الحرم الشريف.

تحلـّق الناس حوله صامتين ساكتين، والدهشة التي ما بعدها دهشة، تقفز من عيونهم وقلوبهم، وكأنهم مأخوذين مصعوقين لمنظر الحاج علي. شرعوا في لثم الشارة النبوية التي استحقها ليستنشقوا منها عبير الفردوس الذي يفلح به المؤمنون وحدهم . فكان كل من يلثم ثوبه أو هراوته يقدّم هديته إلى المختار الحافي.

كان البعض يهديه خيلا، والبعض عقارا و ملكا، والبعض الأخر حانوتا أو متجرا بكامله • وحينما كان يلثم أحدهم طرف الثوب يُعلن على الملأ أسماء الهبات و العطايا: حرير وطنافس، فضة، ذهب، أثاث و رياش، سجاد و أقمشة صوفية- قطنية، فرش و ألحف، أسرّة ومدافئ، ثياب و ألبسة من شتى الأنواع و الأصناف• وكانت العربات معدّة لتحميل الهدايا التي ازدادت باطّراد منقطع النظير •

كان علي صامتا مغبّرا تعتره القشعريرة•

و دخل المدينة •

سطوح المنازل ملأى بالناس الفضوليين• تبرز وجوه وعيون الصبايا من خلف قضبان النوافذ لرؤية مصطفى النبيّ، فتتحرق أمهاتهن شوقا و لوعة لتزويج بناتهن من علي بك، من الحاج علي•

كان علي صامتا• لقد حفر الغبار و العرق أخاديد عميقة في الجبهة و الخدين• هاهو يمشي بتؤدة، تعبا منهكا•

وصل مسجد المدينة فركع على عتبته و قبّل الرخام الماحَ ثم صلى نحو القبلة• ولج المسجد ليصلّي فيه أيضا•

رافق القيّمون على إدارة الجامع الحاج علي إلى القصر المنيف المخصص لاقامته• وبمجرد وصوله أعلن عن رغبته في الاستسلام للراحة و الرقاد•

لم يذهب والدي اليه• لكن علي أرسل في منتصف الليل رجلا يرجوه التكرم لزيارته•

عندما دخل أبي غرفة علي هبّ الأخير واقفا و سارع لتقبيل يده قائلا :

– كل الفضل لك يا حاج أفندي في امتلاكي لكل هذا الخير •

قبل الوداع حاول علي إرجاع المبلغ الذي أنقده أبي إياه فرفض ذلك بحزم وقال:

– ما أعطيتك إياه كان هبة مني وليس دينا•

وعد علي بك والدي بالدفاع عنه حتى الرمق الأخير إن دعت الضرورة، فشكره والدي على وفائه و إخلاصه•

❊ ❊ ❊

افتتح علي – بعد شهر – محلا خاليا من الميزان والمكيال، والمقياس و العيار؛ لأنه لم يكن يبيع بضاعته للزُبن . كان يجلس في دكانه محاطا بأثواب الحرير و القماش، وهو يلبس بردته وعمامته الخضراوين، ويدخن غليونا طويلا. كان يدعو الأثرياء إلى حانوته ويسألهم:

- ماذا أرسل إلى البيت.

فيرجوه الأغنياء إرسال كل أنواع البضائع ثم يضعون قيمتها بالذهب الخالص على الوسائد الحريرية.

كان علي بك يعيش عيشة رخاء و نعيم، وبذخ و رفاهية، أين منها ليالي ألف ليلة و ليلة. لقد تزوج تباعا من ثماني صبايا، وكلهن في ربيعهن الثاني عشر.

جاهد كثيرا لأجل إرجاع رفاقه من الجبل إلى المدينة. تعهّد لهم ببذل المال و الحلال، والمسكن و المأوى، فضلا عن تأمين الحماية الكاملة لهم. ولكنهم أبوا النزول من الجبال.

عم الهرج و المرج يوما في المدينة. لقد صفع علي بك رئيس الشرطة المشهور بهياجه و تهوره؛ وذلك حين رآه يسوط واحدا من " أمراء " الرماد– الذي كان يصرخ متألما متوجعا – كما حدث مع علي مئات المرات. فكّر علي بعدم التدخل بداية، لكن الصراخ الحاد فرض عليه واجب تسديد لكمة لرئيس الشرطة.

- مرحى له.. إنه يدافع عن أمير الرماد !!

ردد الكثيرون هذا الكلام في سرهم دون أن يتجرأ أحد على الوقوف علنا في وجه مصطفي النبي.

كان أمراء الرماد يتحلقون ثلاث مرات أمام دار علي بك، الذي كان يجلس خلف الشعرية متواريا عن الأنظار، ريثما يجهّز الخدم الطعام. كان يوزّع خمسون رطلا من الخبز في كل وجبة. ياله من منظر رهيب : " الأمراء " يهشّمون بعضهم البعض من أجل اختطاف المزيد والمزيد. يتدافع العشرات منهم فوق بعضهم البعض، فتخال رؤوسهم إلى أسفل، وأقدامهم إلى أعلى. وأخيرا، يتضح أن الضعفاء و المساكين لم يبلّوا ريقهم طوال هاتك المعركة. فيناديهم علي بك إلى الداخل مجددا ويقدّم لهم وجبتهم فردا فردا ومن ثم يصرفهم.

وفي أحد الأيام قال علي لوالدي:

– لله ما أشد اشتياقي للاسترخاء في الرماد.

كان يحنّ إلى حياته السابقة رغم عيشته الهنيئة بين الحواري الغانيات، وفي منتهى البذخ و الرفاهية، كان أحيانا يأمر واحدا من خدمه بأن يتزر بمئزر أحمر وسخ مثل بائعي القهوة في الشارع، ليقدم له فنجانا من القهوة العربية. وكان يتظاهر بعدم قدرته على دفع قيمته كي يسجله دينا عليه. ويشخط الخادم بالفحم خطا على قفاء الباب للتدليل عن عدد الفناجين وقيمتها، تماما كما يفعل الخدم في القهوة.

كان علي يشعر بسعادة طاغية من ارتياده لتلك القهوة الشعبية.

كان أبي يعلّق على ذلك بقوله :

– النوري الفقير لا يصير أمير.

إثر عودة علي من مكة، تمكّن والدي من إنجاز أمور عديدة و شائكة بواسطة الحاج علي: لقد استرد الأراضي المصادرة، خلّص أقاربه و أصدقائه من السجن، نال ترخيصا بتوسيع مقبرة الأرمن، الأمر الذي كان يعّد ضربا من المحال، إذ سافر فيما سبق وفد أرمني إلى اسطنبول مثل بين يدي السلطان راجيا متوسلا، لكنه رجع بخفي حنين.

* * *

الحمائم

(١)

كنت واقفاً في بارثينون في (معبد منيرفا في أثينا) مستنداً إلى أحد الأعمدة الرخامية المكسورة.

في البعيد: البحر الأزرق النيلي، وفي الأعالي: السماء الشبيهة بطاس فيروزية عظيمة.

خيل لي أني أسمع اصطفاق أجنحة الآلهة منيرفا.

وفجأة، وعلى الخلفية الفيروزية، ومن أعماق الأكروبوليس، انطلق سرب من الحمام يشق عنان السماء.

حمائم ناصعة البياض تحط دائماً فوق تماثيل اركتون فيمتزج لونها ببياض الرخام، ثم تطير مجدداً وهي تتراقص بين السماء الفيروزية والبحر السمنجوني.

فكنت تسمع قرقرة الحمام والصدى محمولة على أمواج الأثير.

ذكرتني هاتيك الحمائم اللؤلؤية بمأساة قديمة.

(٢)

في البلاد التي وقعت فيها المأساة تلفح الشمس بجميع ألوانها أزهارها وفاكهتها، وتطوّقها سلاسل جبال لازوردية. كما يسقي أراضيها المترعة بالخير والبركة نهر الفرات المقدس. ويطل القمر في الليالي على الأزاهير والفاكهة والأنهر والجبال كما يتدلى الضرع العظيم المليء باللبن.

الشتاء كلب. والبرد قارس لايرحم. السماء متجهمة والريح تصفر آناء الليل والنهار.

(٣)

في هاتيك البلاد تُعدّ تربية الحمام أو كما يسميها أهل البلاد «كش الحمام» من الأعمال الدنيئة.

يقول الكبار: «الحَمام براءة وحُمَامٌ».

حتى لو رأوا الحمام في المنام تمتلىء صدورهم رهبة وترتعد فرائصهم.

وفي كل مرة ترى والدتي الحمامة تحط على منزلها يتملكها الرعب فترتعد خائفة وتصلّب قائلة:

– وابليتاه، هبطت الحمامة على سطحنا.

– وان توخوا الحط من قدر أحدهم في تلك البلاد نادوه «حميماتي» وإن لم تكن له أية علاقة بالحمام.

ويبصق مدّرس الديانة في المدرسة في وجه التلميذ الكسول ويصرخ قائلاً:

– لم تحفظ الدرس لأنك «حميماتي».

كما يمكننا أن نشكو لناظر المدرسة تلميذاً أساء إلى زميله إذ نعته بـ «حميماتي». وتلك لعمري مذمة أكثر قدحاً من شتم الأم.

ويشيرون بأصابع الاتهام والذم لكل من يمارس حقاً هواية «الحميماتي» كما يشيرون عادة إلى العاهر أو السارق.

والناس لايزوجون الحميماتي نفسه فقط، بل ويرفضون مصاهرة ذريته، ويبحثون في شجرة نسب العائلة فيما إذا كان فيها حميماتي أم لا.

- إن أخ صهر عم أم بنت (أو الولد) كان حميماتياً- فالاستنتاج واحد وهو فك الخطبة (إذا كانت قائمة) وقطع جميع علاقات المصاهرة.

أما نحن الأطفال، فكنا نحب الحمام ونعتبر الحميماتية من الأبطال. فبالنسبة لنا نحن الأطفال كان ازدراء الحميماتي أمراً غريباً وعصياً على الفهم والإدراك.

أليس الماء المقدس (الّميرون) في الكنائس يُنقّط من منقار حمامة ذهبية مفرودة الجناحين؟

أليست الحمامة عنواناً ورمزاً للبراءة والسلام في جميع الأغاني والأشعار؟!

كنا- وْالحق يقال- نعشق الجمام.

كان لدينا تمثال مرمري صغير يجسد فتاة عارية رائعة الجمال وقد نحتت حمامة على كتفها الأيمن. وقد أحضر والدي ذاك التمثال من اسطنبول ووضعه في غرفته على قاعدة مصنوعة من خشب الجوز مع خلفية من المخمل الحالك الأسود.

وكانت والدتي- رغم خوفها من الحمامة- تشبّه الأشياء الجميلة بها. فعندما رزق أخي الأكبر بطفل، احتضنته أمي وناغته وقذفته إلى أعلى قائلة:

- أنت كالحمامة ياصغيري.

وعندما تصادف فتاة غانية في الحمام تردد قائلة:

- جسدها منير كضوء القمر وأبيض ناصع كالحمامة.

وهكذا كنتُ سعيداً جداً لأن والدتي تقدّر الحمام حق قدره، وانزعج تماماً إذ أراها ترسم إشارة الصليب بمجرد رؤيتها للحمامة.

ثمة رغبة طاغية استبدت بي وهي أن أكون محروماً من الوالدين، يتيماً، شرط أن أكون حراً تماماً فأصبح من هواة الحمام: «حميماتياً».

كان هذا الشوق يبرحني ويحرقني.

(٤)

كنت يومياً أصعد إلى السطح لمشاهدة حمائم جارنا آكوب، المعروف بـ «الحميماتي آكوب» الذي كان عنده زهاء مائة جناح من الحمام. كنت أصعد إلى السطح في السر، كي لايعلم أحد بذلك. فمن العار أن يصعد واحد من أعضاء أسرتنا، حتى وإن كان صغير السن مثلي، إلى السطح لرؤية حمائم الحميماتي آكوب. مع ذلك كنت أفعل ذلك بدافع لايقاوم.

كانت الحمائم تتشقلب في السماء الزرقاء الصافية، وأفرح كالمجنون بمشاهدتها. وبين الحين والآخر كنت اختفي وراء مدحلة السطح عليها تحط على سطحنا ولاتجفل مني كي أمسك احداها وألامس بأصابعي ريشها. لكن الفشل كان نصيبي دائماً.

كنت مختبئاً ذات مرة وراء المدحلة حين حط سرب فوق الافريز. كنت على بعد عشر خطوات منها، أراقبها بحيطة وحذر محبوس الأنفاس كي لاتطير مبتعدة عني.

كم من مَرّة رأيت في حلمي حمائم آكوب تقف على رأسي وكتفي ويدي، أسمع سجعها وهديلها. فأبدأ في النطوطة والتراقص، ومع ذلك لايطير أي منها، فأمسك إحداها وأداعبها وأقبلها وأضعها في عبي.

فجأة أستيقظ ويختفي كل شيء باستثناء صدى قرقرة الحمام. لكنّ سعادة خفية ناجمة عن هذا الحلم كانت تستمر طويلاً في مخيلتي.

لم أفهم أي معنى لموقف الازدراء من الحمام، ولماذا يحتقر الناس كشاشي الحمام، ولاسيما آكوب الحميماتي؟!

مالت الشمس للمغيب وراء الجبال البعيدة دون أن تتوارى بعد. رشت السماء مطراً خفيفاً غسل سطح الأرض. وسقطت أشعة الشمس المنسية على زجاج النوافذ فازدادت لمعاناً وبريقاً.

صعد آكوب الى السطح وفتح باب برج الحمام.

طارت الحمائم فرحة تهدل في الفضاء.

كان بعضها ناصع البياض، وآخر بلون الحليب. ويحدث أحياناً أن تسقط ريشة حمامة ما فيختل توازنها وتسقط على الأرض، فيتراكض الأطفال متدافعين وكل منهم يحاول الإمساك بها، ووضعها في قبعته. كان بعض الحمام بلون البحر الشديد الزرقة، وبعضها يختلط فيه البياض بالسواد، وبعض آخر سنجابي اللون كأشعة الشمس عند الأفول خالطت حمرته صفرة وكأنها موشاة بأوراق الخريف.

عندما تواجه الحمائم الشهباء خلفية من الغيوم البيضاء كالقطن تتلاشى فوراً. وعندما تكون السحب داكنة تختفي الحمائم السنجابية فيخيل لك أنها ذابت في سواد الغيوم.

ثمة زوج من الحمام ذو عنق مستديرة تميل إلى الخضرة، لكن ما إن تبدل وجهتها هنيهة حتى يختفي اللون الأخضر ويبرز البنفسجي.

وهناك بعض الحمائم تدرج على السطح متبخترة مهدلة تتدرج ألوانها بين البنفسجي والبني والسكري، وعندما تطير تبدو ازماكها مقوسة وقوادمها وخوافيها كضوء القمر. كانت تنطنط على الطنب مقرقرة وأعناقها في حركة دائمة خفيفة مثل الكرة الملقاة على موجة شديدة التقلب.

«الحمام حُمَامٌ.. إنه الموت الأسود».

لم أدرك قط هذا اللغز المبهم.

قالوا عن أحد الحميماتية العريقين: «لقد كش الحمام فأصبحت داره رماداً».

(٥)

الحميماتية في شجار دائم. فحينما يشاهد أحدهم حمائم تخترق الفضاء، يطلق على وجه السرعة أفضل حمامة لديه كي تسحر ذكراً من السرب فيطاردها إلى أن يقع في فخ الحميماتي.

اختطاف الحمام هو السحر العظيم الكامن في هواية الحميماتية.

الحمامة طير راق سريع الاستمالة والانجذاب، يأسر ويؤسر في لمحة بصر.

والجنس هي الغريزة الأقوى عند الحمام.

ففي رابعة النهار عندما تنصهر أشعة الشمس فوق سطح المنزل المنبسط، تشتعل مناقير الحمام بالحب فتهدل وتسجع، ثم تتطاير إلى أعلى فأسفل، وتدس مناقيرها في قوادمها ،وينقر بعضها الآخر، وتسكر من النشوة واللذة، فتتضارب مناقيرها ويتطاير بعضها فوق بعض وقد اصطلاها الشوق بناره.

ماأشد جمال عنق الحمام الذي تتماوج ألوانه بين البنفسجي والأخضر بتأثير من شعاع قرص الشمس.

ويطلق الحميماتي المنافس واحدة من أقوى حمائمه «حمامة جنس»* أي أصيلة عقد لها النصر عشرات المرات.

تنطلق الأصيلة في السماء متقلبة – متشقلبة، مناغية– مناجية حتى تتمكن من اغواء الحمام الذكر فتأسره وتقوده إلى برجها.

* – استخدم الكاتب كلمة «جنس» بمعنى «أصيلة» (المترجم).

في حمأة التنافس بين الحمامتين يكون صاحباهما- كل على سطح دارة- في منتهى القلق. فكل منهما ينتظر بصبر نافذ نتيجة السجال الدائر، وكل منهما يرسل إشارات وأصواتاً مشجعة ومنشطة لفريقه. بل قل أنهما يعانيان سكرات الموت بانتظار النتيجة. وتسوّد الدنيا في عيني ذاك الحميماتي الذي تؤسر حمامته في عش الآخر.

وتبدأ خصومة شديدة أو عداوة لدودة قد تؤدي إلى اهراق الدم في بعض الحالات. فالحميماتي المهزوم يرى أن شرفه قد مرغ بالتراب. ولعله يفضل أن تضبط زوجته بالزنا والجرم المشهود فيتعرض للمسبة والعار، على أن يخسر ويُهزم في معركة الحمائم. وقد تصل العداوة إلى الأبناء والأحفاد.

وغالباً مايتوجه الحميماتي المهزوم- قبل انقضاء يوم واحد على الحادث حتى لايتحول إلى حكاية تتناقلها الألسن- إلى عتبة باب الحميماتي المنتصر. ويلمع نصل السكين. يجتمع الحميماتيون وهواة الحمام وينقسمون إلى فريقين فيصيح المهزوم:

- أسر حمامتي بالغش.

أي نوع من الغش يمكن أن يحدث في الهواء بين طائرين بريئين عاشقين؟ ويسحب السكين مهدداً:

- أعطني خمامتي وإلا...

ويبرق في يد الحميماتي المنتصر نصل مدية أخرى ويتوعد قائلاً:

- افعل مايحلو لك.. لن أردها إليك.. إن كنت رجلاً فاصبر على مانزل بك.

ويزداد الشجار حدة، ويعلو الصخب والصراخ، وتبدأ المشادات

الكلامية والعضلية وتتمزق الألبسة فيعلو صراخ الأطفال والنساء، ويسيل الدم من أحدهما أو كليهما معاً.

إذا جرح الحميماتي المغلوب على أمره لايعود يُرى في شوارع المدينة لأشهر عديدة، فيعتصم بداره ويسدل ستائر نوافذه. وهنا يتندر الخصوم قائلين:

– اندس في سروال زوجته ولايقوى على الخروج.

أما إن سال دم الحميماتي المنتصر، فيضمد جراحه ويخرج مباشرة الى الشارع رافع الرأس وقد أمال طربوشه حتى حاجبيه وجعل شرابته إلى الأمام، وهذه لعمري من أشد أنواع العجرفة والصلف قبحاً. فهو يمشي مزهواً متغطرساً دون أن يسلم على أحد أو يعير انتباهاً لمن حوله مثل السفاح العائد من الميدان.

ولهذا بالذات يقول الكبار: «الحمام بريء، لكنه يجسد الحُمَام». فتحت جناح الورقاء الأبيض ثمة دم ساخن، ثمة منية.

لكن، ومع الرهبة والمنية، تبقى روحي معلقة بالحمام.

فعندما تصلصل الخناجر والسكاكين في الشارع ويتطاعن القوم فيما بينهم ويسيل الدم، تواصل الحمائم رقصة الحب والبراءة في قبة السماء. فأية علاقة بين هاتيك الحمائم وبين أعراض ومراكز الناس وشرورهم وآثامهم؟! فالحمائم تغوص في بحر شعاع الشمس مخترقة الأمواج السحرية لامبالية بدنيا الناس الذين يهرقون الدماء ثم ينسبون آثامهم إلى الحمام البريء من كل ذنب. كل مافي الأمر أن زوجاً من الحمام يحب أحدهما الآخر فينزل ضيفاً عليه في عشه الدافيء، يوكوكان طوال الليل ويسكران من نشوة الهوى، وفي الصباح يواصلان لعبة الحب البريئة تحت أشعة الشمس.

(٦)

جارنا الحميماتي آكوب مهنته الحلاقة. يكرس قليلاً من وقته لعمله، ويقضي معظم النهار على سطح بيته، يطيّر الحمام ثم يسترجعها، ويكرر العملية مراراً وهو ينظر بقلق شديد إلى كل حمامة على حدة.

ورغم أن آكوب حلاق ماهر ومشهور بحبه للنظافة، لكنه قليل الزبائن، إذ لم يكن يبذل جهداً لاجتذابهم إليه. كنا نحن الأطفال نسارع إلى دكانه. هاهو قد بلّ بالصابون لحية أحد الزبائن بشكل كامل ولم يعد يظهر سوى أنفه وعينيه. عندما يهم بسن الموسى، نبدأ الحديث عن حمامة ذاع صيتها في البلد على النحو التالي:

– قالوا إن رقشاء بيروس قد نقفت فرخين. ونستمر في الحديث هكذا. بصوت شبه مسموع متظاهرين أننا ننتظر الدور لقص الشعر. لكن آكوب الحلاق ماأن يسمع حديثنا حتى يترك زبونه ويتقدم نحونا بفضول مثير سائلاً:

– أنّى سمعتم الخبر؟ من قال لكم ذلك؟!

– ميناس.

– لا، غير ممكن.

– حقاً نقفت فرخين.

– كذاب ميناس...

فيصيح الزبون وقد نشفت تدريجياً رغوة الصابون على وجهه، وبدأت حكة تحت أنفه:

– هيا احلقلي لأذهب إلى عملي..

– لاتثرثر ياهذا.. إني مشغول الآن،– يجيب آكوب ويتابع جداله مع الصبية الأشقياء حول رقشاء بيروس. ويعيد السؤال قلقاً:

– قل لي من أخبرك؟ قللي ولك.. مين خبرك؟

ويأسف آكوب لأن هذا يعني أن بيروس سيبزه قريباً. فحمامته الرقشاء من «ديار بكر» تعد من أفضل أجناس الحمام في آسيا الصغرى، إذ بمقدورها أن تأسر في السماء أي نوع آخر من الحمام، وماهي تنقف فرخين.

يطرق آكوب على مضض ويقول مواسياً نفسه رغم الحزن والقلق البادبين عليه:

– سمعة الرقشاء كبيرة، لكنها ليست على هذا القدر ويثور الزبون ويفور غضباً:

– هل ستحلق لي أم لا؟!

فيتطاير الشرر من عيني آكوب ويستبد الذعر والهلع بالزبون. فالحلاق قد يحول فجأة مهمة موسى الحلاقة. ويقترب رويداً من الزبون ليستفسره قائلاً:

– ماذا تريد؟! – يسأله بهدوء، لكن لهجة هذا الهدوء مخيفة ومريعة، لأنها عنقود غضب.

فيخفض الزبون نبرة صوته ليقول متوسلاً:

– أريد أن تحلق لي فاذهب...

ينزع آكوب المنشفة ويمسح الصابون عن وجه الزبون ويقول له:

– تفضل، انتهينا...

يهب الزبون واقفاً، يضع طربوشه على رأسه ويخرج مسرعاً حامداً ربه لنجاته من خطر محقق. فيهمهم آكوب بعد خروجه قائلاً:

– لاهم لي إلا حلاقة ذقنه.

ونبتعد نحن بدورنا تاركين آكوب في خضم همومه الصامتة. يلف الحلاق سيكارة غليظة ويدخنها بسرعة، ثم يغلق الدكان ويتجه إلى البيت وعيونه ترنو إلى السماءليتعرف على أصحاب الحمائم التي تطير في الجو.

بعد وصوله إلى الدار يصعد الى السطح ويخرج حمائمه وقد نسي رقشاء بيروس لأنه يملك أيضاً بعضاً من مشاهير الحمام من آسيا الصغرى. فيمسك بعضاً منها ويضع رؤوسها في فمه تدليلاً لها، ثم يطلقها.

الحمائم تصفق بأجنحتها فوق رأس آكوب. ومع كل حركة مماثلة يصرخ صاحبها من على سطح منزله بإعجاب ودهشة:

– أؤ، أو، قربان جناحيك، أو...

(٧)

ذات يوم وقف أمام بيت آكوب حميماتي مهزوم مع نفر من أنصاره، وجلهم من المكتوين بنار حمائمه، – وقف صارخاً مهدداً:

– اخرج إلينا.

عندما سمعت زوجة آكوب الصيحة– الانذار نظرت إلى النافذة فشاهدت جماعة الحميماتية في الشارع، ولاسيما السكاكين الملتمعة. ركضت نحو الدرج المؤدي إلى السطح حاسرة الرأس رافعة يديها النحيلتين الشاحبتين.

عندها كان آكوب ينزل بخطى ثقيلة عن السطح وقد امتقع لونه من شدة الغضب. ارتمت الزوجة عند أقدام الزوج قائلة:

– أقبّل رجليك. لاتذهب.

لكن آكوب رمى زوجته جانباً كالدجاجة.

– أنا الرجل، فلا تثرثري.

اقترب صامتاً من الخزانة التي يمتلك وحده مفتاحاً لها. وهنا سقطت امرأته على الأرضية مغشياً عليها.

فتح الخزانة وأخرج سكيناً قديمة متوارثة أباً عن جد. سحبها من جرابها وقبّل النصل الفولاذي البارد ثم أعادها إلى الجراب.

لم تكن ابنته في البيت فبقيت الزوجة مرمية على الأرض.

ظهر آكوب أمام الباب بسكينه اللامع. ارتد الخصوم حين انضم أنصار آكوب إليه. وبعد لحظات لم يبق أحد أمام بيته فولج الدار مزهواً فخوراً.

رأى زوجته الملقاة على الأرض، فرفعها ورش بعض الماء على وجهها. وحين استفاقت من غيبوبتها قال لها:

– يالك من امرأة ضعيفة.. حرام أن تكوني زوجتي.

(٨)

لكن قلب زوجة آكوب كان نهباً للألم والهم والقلق. فهي لاتخاف السكين التي رأتها كثيراً، لا بل شاهدت غير مرة دم زوجها وضمدت جراحه في أكثر من مناسبة.

الزوجة قلقة الآن بشأن ابنتها الحسناء التي شبت عن الطوق وستبقى عانساً في بيت أهلها إن لم يتخل والدها عن كش الحمام.

الشائع عادة أن يتخلى الحميماتي عن هوايته عند بلوغه الكبر. وكثيرون منهم يتركونها بعد الزواج مباشرة. لكن ليس هناك أمل في أن يترك آكوب الحمام ليهتم بعمله. كانت امرأته تتوسل إليه قائلة:

– اترك الحمام يارجل. عندك بنت قد تتحول إلى عانس في بيتنا .

كان آكوب يتوجس خيفة ويقشعر بدنه حين تكلمه زوجه عن ابنتهما،

فتنتصب أمام عينيه الحمائم البيضاء وابنته الناصعة البياض ذات الشعر الفاحم، فلا يجد مخرجاً من معاناته ويتملكه حزن قاتل يخيم على روحه كسحابة ثقيلة، فيصرخ بوجه امرأته لاكماً اياها:

– كفاك هراء بالمرأة، إنك تهلكين نفسك.

وينادي ابنته ليلو فيحدق طويلاً في قدها الرشيق وعيونها الدعجاء وخديها المتوردتين ويجلسها على ركبتيه ويلامس شعرها هامساً وقد استبقته العبرات:

– يابنتي، غصن البان أنت يابنتي...

ويغص آكوب فيمسك عن الكلام ويصعد الى السطح ويطلق صراح الحمائم في السماء المتموجة الزرقاء لينسى هموم هذا العالم وقوانينه الشريرة.

وحين يصفق الحمام بأجنحته تتبدد هموم وأحزان آكوب ويطفح وجهه بالبشر والفرح مثلما تبتسم الطبيعة حين يغسل المطر العشب الأخضر الناضر.

بيد أن زوجه لبثت تردّد على مسامعه بلا انقطاع:

– عندك صبية حسناء، ادفنها في التراب حية وأرح نفسك.

لكن كيف يخلص آكوب نفسه من عشق الحمام؟! فروحه معلقة بريشها وهو في كل لحظة من يقظته ونومه يعيش معها، ويشنف أذنيه بهديلها. وعندما يحلق طائر فوق رأسه وهو في الشارع يهتز فجأة ويرسل بصره إلى الأعالي ويقول ضاحكاً:

– ظننته حمامة.

ندف الثلج فوق رأس آكوب فخالط الشيب سواد شعره وأصبح

وخطا مثل حمائمه الرقطاء، لكنه مازال طفلاً بروحه، وكلما تقدمت به السن تصابى أكثر.

تمضي أيام وأيام دون أن يفتح كشك الحلاقة خوفاً من الإساءة إلى زبنه. فعندما يهم بحلاقة زبون ما لابد أن يرنو ببصره عبر النافذة، وماإن يلمح حمامة في الجو حتى يترك الزبون ويقف أمام بابه ممسكاً بموسى الحلاقة، مرتدياً مئزره الأبيض، فينسى زبونه وتمتلىء روحه بهجة وسروراً.

(٩)

ذات يوم انتشر في المدينة خبر مفاده أن ابن الحاج طوماس آغا المدعو آرا قد وقع في حب ابنة الحميماتي أكوب.

الخبر مثير للدهشة والاستغراب. عم الاستياء في أوساط المترفين وأسر الآغاوات وغيرهم ممن أبطرتهم النعمة وسعة العيش من كبيرهم حتى صغيرهم:

- وابليتاه، كيف تجاسر وأحب ابنة الحميماتي؟!

- الله يخرب بيتهم.

انتشر الخبر انتشار النار في الهشيم أو انتشار خبر النعي أو الفاجعة الأليمة عبر موجات الأثير. وكان له وقع الصاعقة حتى على أولئك الناس الذين لاعلاقة لهم البتة مع أسرة الآغا طوماس. ثمة عجائز شمط وكأن الله رماهن بثالثة الأثافي فشرعن يضربن ركبهن مولولات مستغيثات: «واحسرتاه على أيام زمان- هل قدر لنا أن نعيش في المذلة والهوان؟!».

أوقد بعض أقرباء الحاج طوماس الشموع في الكنائس وابتهلوا إلى الله لحمايتهم من الشر والضر.

حقاً إنه الخبر اليقين: فقد أحب «آرا» الفتاة «ليلو» ابنة الحميماتي آكوب.

الحاج طوماس آغا جار الحميماتي آكوب ويفصل بين فناء الدارين سور وحيد.

آرا هو الابن الأوسط لطوماس آغا. عاد لتوه من اسطنبول، وهو شاب في الخامسة والعشرين من عمره. تعلّق بليلو منذ طفولته. كانا يلعبان معاً ويصعدان الى السطح ليمسكا الحمام ويداعبانه ويحبانه.

بعد عشرة أعوام من الغربة في اسطنبول نسي آرا طبعاً ليلو ونسي حتى قسمات وجهها. لكنه رآها بعد عودته بيومين واصطلى بنار حبها المنبعث من جديد.

كان آرا واقفاً على السطح حين شاهد ليلو تحت إحدى شجرات الحديقة فصفر لها كما كان يفعل في الماضي. رفعت ليلو رأسها باحثة بعيون حائرة عن مصدر الصفير. وحينما رأته على السطح ابتسمت له وأطلقت ضحكة ذات رنة، ثم دخلت الدار. أثارت ابتسامة ليلو اللهب والسعير في قلب آرا المشوق.

بعد أيام ضبط آرا يقفز في منتصف الليل عبر السياج إلى حوش الجيران، حيث كانت ليلو بانتظاره تحت الشجرة. كانت ليلة مقمرة ساكنة، ليلة هادئة صافية. وكان مشهداً رائعاً: عانق آرا ليلو وقبّلها وتبادلا الحديث طويلاً. كان مرتدياً بزة أوروبية أنيقة وقميصاً بقبة منشاة. بينما ارتدت ليلو مئزراً مزهراً واتشحت بمنديل ملون.

كانت أسرة آرا آخر من سمع بالخبر الرائع: ابن الآغا يحب ابنة الحميماتي... إنها الحقيقة المرة الموجعة. اعتصمت أم آرا بالبيت، ولم تعد

تخرج إلى الكنيسة أو الحمام، بينما غاب الحاج طوماس آغا عن الدكان طوال يومين، متذرعاً بوعكة ألمت به. بينما كان في واقع الحال سليماً معافى يفكر بروية مع زوجته بطريقة لحل الأمر. قرر الوالدان في البداية إسداء النصح والإرشاد لابنهما، ثم قررا التريث قليلاً. قالت الأم:

– ذاك أفضل كي لايركب رأسه، ففيه بعض من طباعك.

– الأمر ليس في الطبع، بل لعله أصيب بمس من جنون يمر سريعاً، – طمأن الأب نفسه رغم أنه كان نهباً للقلق والهم.

ذاع الخبر في أرجاء البلدة وأصبح الحاج مضغة في أفواه الناس الذين تركوا هموم الدنيا كلها سوى الحديث عن موضوع الحب بين ابنه وابنة الحميماتي اكوب. آرا وليلو أصبحا حديث الناس في كل الزوايا والمجالس.

كان الحاج طوماس آغا واحداً من أثرياء البلد رغم أنه لايمتلك إلا حانوتاً صغيراً في سوق المدينة، يخبىء فيه صندوقاً زجاجياً صغيراً. يعد هذا الصندوق مدخراً للكذب والرياء، والغش والخداع. ففيه اختنق الكثير – الكثير من الفلاحين والصناع والحرفيين وصغار التجار، وابتلع جيلاً كاملاً من الأسر والعائلات، والضعفاء والمساكين.

كان الحاج طوماس آغا صرافاً يبيع النقود بنقود غيرها. والصرافة لاتكسب صاحبها قدراً عظيماً من المال يجعله في مصاف الأثرياء. لكن كانت هذه التجارة مجرد قناع يتستر به. فهو يمارس الربا في السر، وجميع التجار الصغار مدينون له بدين يزداد طرداً مع كل عام ، حتى غدت مجوهرات النساء مرهونة عنده، فضلاً عن الأراضي والعقارات وغيرها من الأموال المنقولة وغير المنقولة.

حياة أصحاب الرهونات معلقة بتلك العلبة الزجاجية.

كانت عائلة الحاج طوماس آغا تعيش عيشة رغيدة هنيئة. تتزين بناته بأحاى الزينة من ذهب والماس وأحجار كريمة، ويقوم أبناؤه سنوياً برحلات ترفيهية إلى مدن الساحل، لكن الحاج طوماس آغا نفسه بقي يعيش عيشة بتقشف ومسكنة. فيرتدي معطفاً بالياً مرقعاً، وسروالاً خلقاً مهترىء الركبتين، ويعتمر طربوشاً ملطخاً بالزيوت، ويتوكأ على عكاز مكسورة، وقد أصلحها ودعمها ببعض الصفائح المعدنية، ليوفر على نفسه شراء هادية جديدة يتكىء عليها. وعندما يتوسل الدائنون إليه في أمر ما يميل رأسه على أحد كتفيه ويجيب قائلاً:

أنا إنسان فقير* مثلك ورأسي خير دليل على ذلك.

حقاً ينم مظهر هذا المرابي على الفقر، لكن من ذا الذي يجرؤ على كشف هذا الزيف والخداع.

– هكذا إذن ياأخي، انقذني مالي واذهب لشأنك، لن نأخذ ونعطي بعد اليوم.

يجيب الحاج طوماس آغا بكلام من هذا القبيل كل من تسوّل له نفسه تحديه أو التلميح، من قريب أو بعيد، إلى الغش الذي يمارسه بحق الناس.

ومن دم وعرق الناس تنقط قطرات الذهب الأحمر لتنصب في الصندوق الزجاجي.

ذات ليلة لم يذق الحاج طوماس طعماً للنوم. طار النوم من عينيه بعد سماعه خبراً مفزعاً. كان جالساً تلك الليلة على الأريكة ينظر في بساط الأرضية يعبث بخرزات سبحته، متأوهاً متوجعاً. ففي كل مرة تأتي

* – استخدم الكاتب كلمة عربية محرفة بصيغة الجمع «فخراء» «أي فقراء»، «فقير». (المترجم).

الخرزات فرداً، لا بل إنه يحاول مرة أن يقلب عدداً من الحبات يأتي شفعاً، لكنه فشل في ذلك، فاشتدت كربته النفسية.

دخلت الزوجة وأيقنت أن الحاج طوماس لاينوي الذهاب للنوم فسألته: – لم لاتخلع ثيابك؟ انزعها واستلق يارجل.

– سبّحت طويلاً فجاء العدد فرداً دائماً.

– ولي، تبلى عيوني بالعمى.

– فكري مشغول (تابع الحاج طوماس) أريد التحقق بنفسي مما يقال عن آرا.

عند منتصف الليل صعد الحاج وامرأته إلى السطح سراً حافيين واختبئا معاً وراء المدحلة الحجرية. وبعد طول انتظار همس في أذن زوجته:

– انظري يابنت، دخلت العاهرة الحديقة.

دنت ليلو من الشجرة الكبيرة. وعندها رأى الحاج طوماس وزوجته ابنهما آرا بانتظارها. انكمش الوالدان خلف المدحلة وتسارعت أنفاسهما. عانق آرا ليلاه.

– آه يارذيل...، – همست الأم.

– اخرسي، قرّعها الزوج.

– هيا ننزل، لقد تصببت عرقاً بارداً،– اقترحت الأم.

وزحفا على السطح، ثم دبيا وحبيا حتى تواريا عن الأنظار.

ضربت الأم يديها على ركبتيها وبكت نائحة وكأن نعش ولدها قد وضع أمامها.

– البكاء لايجدي ياامرأة.. يجب أن نفعل شيئاً ما،– أعلن الحاج

طوماس آغا بصوت ملؤه الجد والتصميم، ثم أضاف: «إن لم أفصم هذه العلاقة.. خلي العالم* يـ....

وهدأ روع الأم. لنقطع ذات البيت وليكن مايكون.

(١٠)

لم يكن آكوب على علم بالعلاقة بين ليلو وآرا. فالقلة القليلة من الناس تتحدث إليه أو تعاشره. أما هو فلا يهتم إلا بالحمام. كان على صلة وثقى بالحمام والأطفال فقط. لكن الأم على دراية بالأمر، ولذا اعتبرت من واجبها اطلاع زوجها، وخيراً اعلام الوالد بحب ليلو، إذ من حقه أن يعرف ذلك.

– لقد انفتح حظ ليلاي مثل تفتح الورد فشملها الرب بعنايته،– ختمت الأم كلامها.

– إنك تكذبين يامرأة، – تفرّسها آكوب مشدوهاً.

– وحياة ليلو،– أقسمت الأم.

– الحمد لله، احمها يارب وارع حمامتي البيضاء،– اختتم آكوب.

قرر الوالدان الإيحاء لابنتهما ليلو بأن الأب لايدري شيئاً حول هذا الأمر. كانت البنت تخجل من الأب، لكنها تخبر أمها بكلام ووعود آرا كاملة:

– يقول آرا ياأماه بأن العالم كله في طرف، وأنا في الطرف الآخر.

تطير الأم فرحاً وتذرف الدموع قائلة:

– عيش أخضر وفعل أبيض بإذن الله.

وفي منتصف الليل توقظ الأم ابنتها قائلة:

---

* – وردت كلمة «العالم» العربية لفظاً ومعنى. (المترجم).

- ليلو ابنتي، الولد صار بالحوش.

كانت ليلو تنهض وتمضي شبه نائمة إلى الحديقة، بينما تنتظر الأم خلف باب الحوش قلقة ريثما تعود البنت لتستلقي في الفراش فتغطيها وتقبلّها وتتمتم بالصلاة، ثم تذهب إلى أحضان آكوب.

ذات ليلة وضع آرا خاتماً في اصبع ليلو التي قبلته هامسة:

- حين نذهب إلى اسطنبول أضعه في اصبعي.

- لم لا تضعينه الآن؟

- سيراه أبي، وهذا لايليق بي.

بعد هدية الخاتم مكثت ليلو في البيت أياماً ثلاثة، جمعت بذر البطيخ وحمصته بالملح، ثم وضعته في كيس أبيض وسلمته لآرا في الحوش ليلاً.

همست ليلو خجلة: لاأملك شيئاً آخر.

قبلها آرا، ثم أكلا البذر معاً وتجاذبا أطراف الحديث.

وفي أحد الأيام طلبت البنت من أمها أن تذبح حمامة وتحمرها كي تقدمها لآرا.

- إن علم أبوك بالأمر يشنقنا معاً،- أجابت الأم، لكنها قررت في داخلها اعلام آكوب بذلك علّه يلبي رغبة ابنته الغالية.

- كل حمامي فداك ياابنتي ليلو.

لفّت ليلو الحمامة المحمرة بالخبز المرقوق الأبيض، وأعطتها أمها منديلاً حريرياً منذ وقت بعيد في صندوقها. لفت ليلو الحمامة والخبز بذاك المنديل، وحينما جاء آرا إلى الحديقة فتحت المنديل وضيفته لحم الحمامة اللذيذ.

(١١)

هكذا عاشت ليلو أسعد أيام حياتها. وكذلك والداها اللذان شاهدا بأم العين فرحة وغبطة ابنتهما الوحيدة.

في تلك الأيام السعيدة كان هم واحد يقض مضجع الفتاة، وهو أن الجميع يوجهون لها قوارص الكلم امعاناً في تسفيه وتقبيح أبيها.

فعندما يكون الحميماتي عازباً يجرحونه بلواذع لسانهم، وحينما يتزوج يشتمون زوجته، وحينما تكون له بنت يلسعونها بقواذع الشتم. عندما كانت ليلو صغيرة بعد، كان الشتماء يسبون زوجه:

– وي أنيـ.. زوجتك.

وعندما كبرت ليلو واسترسل شعرها حتى كعبيها، وامتلأ صدرها، واحمر خداها وشفتاها كالرمان، نسي الجميع الزوجة وشرعوا يكيلون السباب الى البنت.

– وي، كذا، وكذا بابنتك.

وجاءت حادثة ابن الحاج طوماس آغا مناسبة مؤاتية لاضرام نار السباب المقذع التي اتخذت طابعاً أكثر قباحة ونزقاً وتلوناً ووصفاً.

وهكذا شرعت الأم المسكينة تلاحق زوجها، فالمعضلة الرئيسة تخصها أكثر من أي انسان آخر،وعبء الفتاة البالغة يقع على كتفيها.

– فكر يارجل، مسكينة ابنتنا. رباه ليتني ذهبت إلى اسطنبول وعشت متسولة هناك.

طبعاً ثمة من طلب يد ليلو من أهلها، لكنهم كانوا من أبناء هواة الحمام أيضاً، وقد أقسم والداها ألا يزوجا ابنتهما الى حميماتي.

تركت ليلو المدرسة لأن الأساتذة أنفسهم– واعجباه– كانوا

يحقرونها ويعيرونها كونها ابنة حميماتي. فإن اتفق أنها لم تحفظ درسها جيداً، نهرها الأساتذة وعيروها مباشرة:

– هه؟ هل والدك حميماتي؟

فما عساه يفعل آكوب؟ كيف يكم أفواه البلد بأكمله؟

– كذا وكذا... بنسائهم وبناتهم جميعاً...،– يبادلهم آكوب السباب ويريح نفسه.

لكنه أحس مع مر الزمن أن ذلك لايخفف من عبء البنت الثقيل، فأعمل تفكيره وخلص إلى حيلة مفادها أن يطلق لحيته حتى ينسى الشاتمون ابنته ويلعنون لحيته. لم تدرك الزوجة الهدف من إطلاق زوجها للحيته وواصلت ملاحقته ومطاردته في كل شاردة وواردة وديدنها التفكير في مصلحة وشرف وعرض ابنتها. ومع ذلك كان آكوب يواربها قائلاً:

– لاتثرثري ياامرأة.. لحية وأطلقتها.

لم تقدم له هذه الحيلة نفعاً، إذ واصل الناس اطلاق الشتائم على ابنته، ومإإن يظهر على السطح حتى تنهال الشتائم عليه كوابل المطر:

– أنيـ... ابنتك.

وحين ينزل عن السطح ويرى ابنته والدموع تحرق مآقيها يسألها:

– لم تبكين ياحمامتي ليلو؟

– لقد سبوني مجدداً.

فيمسك آكوب لحيته متأوهاً متحسراً ثم يبتعد.

كان الرجل يحب ابنته حباً خاصاً. فهو يعيش سعادة لاتوصف منذ سماع خبر علاقتها الجديدة من زوجته. كان يقول في سره: «بعد زواج ابنتي لن يكون أمامي أي عائق في حياتي، سأحني طربوشي بالقدر الذي

يناسبني، إذ لن تكون عندي ابنة يكيلون لها السباب، ولاخوف من بقائها عانساً في البيت. وبكلمة: سأهتم بالحمام اهتماماً كاملاً».

مرت أيام وأيام دون أن يفتح آكوب حانوته كي لايتناهى إليه مايقال عن ابنته ليلو، وكي لايقف وجهاً لوجه أمام الأمر الواقع. فماذا يجب عليه أن يفعل حين يسمع بنفسه الخبر من الآخرين: شاب غريب يدخل حديقته ويعانق ويقبل ابنته؟ ماهو التزام الوالد- الرجل هل يجب عليه السكوت أمام هذه الإهانة؟ المخرج الوحيد أمام الوالد- الرجل هو أن يسحب سكينه الموروث ويقطع به عنق ابنته. كان آكوب يعاني من أمثال هذه التصورات، تخنقه الكوابيس ليلاً فيقفز من فراشه هلعاً مرتاعاً، يذرع الغرفة جيئة وذهاباً تحت جنح الظلام، ثم يقبع في زاوية مايدخن لفافته متحسراً متوجعاً.

لكن إلامَ يغلق الدكان ويظل هكذا بلا مورد رزق؟ قرر أخيراً ألا يعير اهتماماً لما يجري حوله والذهاب غداً إلى الحانوت. لكن، ماذا لو سمع فجأة مايتردد على ألسنة الناس من تخرصات وأقاويل؟ ماذا يفعل لو جاءه صباحاً زبون وحكى له كل ذلك؟ كلا، كلا لن يفتح الدكان.

قرر أن يضحي بحبة قلبه من أجل ليلو. فباع زوجاً من جنس الحمام الأصيل بخمس ليزات من الذهب الأحمر. كان زوج الحمام هذا بمثابة قلبه الكامل. حينما قبض الذهب وأخرج من عبه الزوج النفيس وسلمه للشاري تدحرجت الدموع من عينيه وبللت ريش الحمام.

حين قفل الى البيت كئيباً محمر العينين اقتربت منه ليلو مواسية وعانقته.

– حمامتي الوديعة ليلو، سأضحي بكل حمائمي فداء لك ياابنتي.

وأدركت ليلو حب والدها العميق وخيل لها أن الدموع المسكوبة أعظم ثمناً من فص خاتم الألماس الممتاز الذي أهداه إياها آرا. وعندها تمتمت قائلة:

– أغسلُ رجليك وأشرب ماءهما.

– حمامتي أنت، حمامتي البيضاء...

وعانق بعضهما البعض.

ولم يفتح آكوب الدكان فالذهب يكفيه للانفاق على البيت مدة عام كامل.

(١٢)

فتش الحاج طوماس آغا عن كل الوسائل التي تتيح له فرصة النيل من ليلو أمام ابنه آرا، ولاسيما حين اعتبر والدها الحميماتي أذل من وتد. لكن الابن رد بحزم وصلابة:

– سأذهب إلى اسطنبول حيث لايدري أحد بذلك.

دعا الحاج طوماس آغا عمة آرا العجوز وأعطاها معطفاً من الفرو وأوصاها أن تخبر آرا بطريقة ما أنها رأت ليلو في الحمام عارية وأن صدرها وظهرها مليئان بالقروح.

عمة آرا هذه عجوز شمطاء شريرة بقيت عانساً بسبب القروح والبثور في وجهها، لم تجد طوال حياتها رجلاً واحداً يضمها إلى صدره ولو لحظة يتيمة، فازدادت كراهية وحقداً للنساء الجميلات الغانيات. واجهت آرا قائلة:

– فداك نفسي ياآرا، اسمعني جيداً: رأيت ابنة الحميماتي آكوب في الحمام عارية تماماً....

– رأيتيها إذن، – قاطعها آرا متبرماً محتقراً، ثم أشاح بوجهه عنها.

– وي اسمعني، ثمة قروح كبيرة فوق بطنها وظهرها، – واصلت العجوز الشريرة كلامها وهي تباعد كفيها للدلالة على كبر القروح.

وأيقنت العجوز أن الشاب تأثر بكلامها وصعق للخبر المفاجىء فأطرق خجلاً وسألها:

– هل رأيتها بأم عينيك؟

– بهاتين العينين،– كذبت العجوز.

في تلك الليلة بالذات، وبينما كان آرا يعانق ليلاه، مد يده على نحو غير طبيعي، إلى بطنها واعتصر بقوة ظهرها. لم تتصرف ليلو كمن في جسدها أية قروح، لكن حركات وتصرفات آرا بدت لاطبيعية جداً، فسألته:

– مابك؟ قل لي مابك؟!

اخبرها آرا بكل صراحة بما سمعه فأدركت ليلو سبب سلوكه المريب.

لاذت ليلو بالصمت وأرسلت نظرة حزينة في وجه آرا. غصت بالبكاء وانسلت من حضنه راكضة إلى البيت. كانت أمها بانتظارها شبه نائمة جالسة خلف الباب على الجاروشة. ارتمت ليلو في أحضانها والدموع تتساقط من عينيها. سألتها الأم الملتاعة مابها. لكن الغصة لم تترك لها مجالاً للجواب. أسرعت الأم إلى الخارج، إذ كان آرا مايزال واقفاً تحت الشجرة حزيناً.

– لماذا أبكيتَ قرة عيني؟!

أخبرها آرا بما جرى وأضاف قائلاً:

– أنا لاأصدق ذلك، لكن ليلو لم تنفي مايقال.

أمسكت الأم يد آرا وكأنها أمه الحلال، ثم رسمت إشارة الصليب وأسرّت إليه قائلة:

– لاشيء من هذا القبيل ياولدي، جسدها مثل ضوء القمر. فليصبني الله بالعمى إن كنت أكذب عليك. وإن كنت لاتصدقني فأنا مستعدة لأن أريك إياها عارية قبل الزواج.

احتضن آرا أم ليلو وأغرقها بالقبلات. تقدما معاً إلى باب الحديقة. دخلت الأم وعادت مع ابنتها ليلو.

– سآخذك قريباً إلى اسطنبول فنخلص[1] من هذه النار.

– أجل ياولدي، أجل خذها.

لكن الحاج طوماس آغا لم يكتف بهذه المكيدة، فأرسل أحدهم إلى آرا ليخبره بأنه رأى بأم عينه كيف انصرعت ليلو على الأرض في وسط الشارع حين كانت صغيرة. وأرسل آخر ليقول بأن خال ليلو كان مصاباً بالصرع والجنون وأن الفتاة قد ورثت هذا المرض. كما ادعى ثالث أن ليلو مصابة بالسل. مختصر القول أن الأب بذل قصارى مساعيه لانقاذ «ناموس»[2] العائلة، فكان سبباً في الشقاء العذاب اللذين عاناهما ابنه آرا المتعاطف مع حبيبته ليلو وقد أصبحت مضغة في أفواه الناس.

ذهبت كل الدسائس المحاكاة أدراج الرياح. فقد توصل آرا إلى قرار حاسم واستنتاج نهائي يرد به كل التخرصات والوشايات:

– «ليكن مايكون... إنها قبولي[3]».

---

(١) – خلص: وردت بالعربية لفظاً ومعنى كما في النص الأصل. (المترجم).

(٢) – الناموس: وردت لفظاً ومعنى، أي مايحميه الرجل من صيته وشرفه واسمه. (المترجم).

(٣) – وردت بالأرمنية «خَبُول» وهي في العربية «قَبُول»: أن تُقبِل العافية والنعمة وغير ذلك. اي أنها نصيبه وقدره. (المترجم).

كان أقارب ومعارف وجيران الحاج طوماس آغا يتألبون ويتواطؤن عليه فلا يرتاح باله قط. كان كل من يراه يعتبر من واجبه أن يبدي رأيه في هذه القضية:

– لكن ابنك ضرب بسمعتك عرض الحائط[1].

– ليته لم يرجع، – يجيب الوالد.

وهكذا وُضع شرف الحاج طوماس آغا على المحك أخيراً. وسمعة وشهرة العائلة ستوضع على كف عفريت لو قبل بزواج ابنه آرا من ابنة الحميماتي آكوب. ولذا راح يصرح على الإشهاد قائلاً:

– سأشنق نفسي... حرام[2] هي الحياة بعد ذلك.

وكل الأهل والأقارب يهددونه متوعدين:

– اعلم تماماً أن أحداً منا لن يحضر العرس.

وكانت العداوة تتأصل وتستشري مع كر الأيام.

حينما اخبرت الأم ابنها أن ما من أحل «من الشرفاء» سيحضر العرس، وهذا عار مابعده عار، أجاب الولد قائلاً:

– سأدعو الرعاة والحمالين، سأنادي القطط والكلاب، فهل فهمت ماأعني؟

يئست الأم مما سمعت وشرعت بالبحث عن وسيلة للتعايش مع الأمر الواقع المر.

– قالت للحاج طوماس: ليأخذها ويذهب إلى اسطنبول ولتنشق الأرض وتبتلعهما معاً.

---

(١) – في النص الأرمني: رمى بسمعتك في السخاخ (الزقاق) وهي بالعربية الطريق الضيق. (المترجم).

(٢) –حرام: وردت في النص الأصل لفظاً ومعنى (المترجم).

لقد جننتِ تماماً ياامرأة. هبي أن الأرض ابتلعتنا حقاً، فهل ارتاح تحت الثرى؟

اشتعلت الوشايات والأقاويل في المدينة وقد تأتي نهائياً على شرف وسمعة آل الحاج طوماس آغا.

(١٣)

ذات يوم، وفي حالة من اليأس الكامل، دعا الحاج طوماس آغا الحميماتي آكوب إليه. لم يشأ الأخير الذهاب، لكن زوجته توسلت إليه قائلة:

– يبدو (ظاهر)[١] أنه يدعوك من أجل العرس؟

– الدجاجة ترى الحب في منامها، – سخر آكوب منها.

كان يشعر طبعاً أنه لن يناديه لأمر سار بعد كل هذه الأقاويل. فالحاج طوماس– رغم جيرة السنين الطوال– لم يتنازل يوماً لالقاء التحية على جاره آكوب. ومع ذلك سيذهب للقائه.

صمم آكوب أن يكون حليماً صبوراً وألا يفقد توازنه، عسى أن يجد خيراً لابنته ليلو، ومن يدري لعل ذاك الرجل المتغطرس قد تراجع عن كبريائه وصلفه، لعل أركان الغطرسة قد تهدمت؟؟؟

– لأذهب ياامرأة واتفرس في عينيه علني استشف مايريد،– قال آكوب ومضى.

رغم قرار آكوب بالذهاب، كانت أقدامه تسير القهقري، فلم يتوقع أمراً حسناً.

– ياآكوب (بدأ الغني طوماس حديثه متعجرفاً) اعتن بابنتك قليلاً، ياللعار.

(١) – ظاهر: بمعنى يبدو مفردة عربية لفظاً ومعنى. (المترجم).

لم يطق آكوب صبراً. أثار زهو الغني هياجه واستنكاره. إن ذاك الثري المختال لم يعرض عليه حتى الجلوس. وأيقن أن زمن المواربة والمناورة قد ولى فنطق قائلاً:

– ابنتي ليست فاحشة حتى أخجل، بل أنت الذي يجب أن تخجل من شعرك الشائب.

– أنت رجل ليس من عياري[1] (مقامي) حتى أصاهرك. أفهمت هذا؟

– أنت محق ياحاج آغا، أنت أدنى مني كثيراً،– قال آكوب بسخرية مرة.

– ياللعار، إنه هذه الفضيحة، – أعلن طوماس آغا قصد انهاء الحديث.

لكن آكوب لم يصمت:

– ابنك البكر تزوج بعاهرة من صمصون وجميع عربجية[2] البلد يعرفون ذلك، والأفضل لك ألا تثيرني على الكلام. احمد الله أن ابنتي شريفة وقديسة وجسدها (وجودها)[3] لم يره رجل قط.

كان العربجية المسافرون من بلدنا إلى صمصون قد أخبروا آكوب بأن ابن الحاج طوماس آغا قد اتخذها زوجة له من بيت البغاء. لا بل كانوا يؤكدون ذلك بقولهم:

– ايه، كم مرة ومرة ترددنا عليها هناك...

---

(١) – عيار بالعربية في النص بمعنى «المقام» حسب تفكير الكاتب أيضاً. (المترجم).

(٢) – عربجي: باللفظ العربي المؤلف من كلمة «عربة» واللاحقة التركية «جي». (المترجم).

(٣) – وجود: كلمة عربية استخدمها الكاتب بمعنى الجسد.

كـان الحـاج طومـاس آغـا على علم بذلك، لكنه سكت على مـضض ورضخ للأمر الواقع، سيما وأن أهل البلد لايدرون بذلك. فالمرائي يتحمل شتى أنواع القذارات والدناءات، إن لم تكن معروفة أو مكشوفة للناس.

وشعر الحاج طوماس آغا أن سعير جهنم قد ينصب على بيته، إذ ليس بمقدور أحد ما أن يقفل فم آكوب. وانطلاقاً من هذه القناعة عرض عليه مالاً ليشتري صمته.

– أنا أكثر ثراء منك فاحفظ نقودك ليومك الأسود. أعدك ألا أتفوه بكلمة واحدة ارضاء لخاطر[1] آرا العزيز، أجابه آكوب وخرج.

كان آكوب مرتاحاً لأنه لم يبخل بكلمة سواء بحق الحاج طوماس. كانت أم ليلو تنتظر زوجها قلقة. دخل آكوب البيت كئيباً فسألته:

– ماذا قال؟

– ذات النعمة القديمة. قال: أنت لستَ من عياري.

– وماذا قلت له؟

– كلت له الصاع صاعين،– أجاب آكوب وشرع يلف سيجارة ويترنم بأغنية ما.

– كان من الواجب عليك أن تراعيه؛– قالت الزوجة هلعة.

صوّب آكوب نظرة مستنكرة إلى امرأته دون أن يتكلم، فإن الرعب في نفس الزوجة التي انسحبت فوراً إلى المطبخ لتمسح دموعها المبللة بطرف مريلتها.

لم يتراجع الحاج طوماس آغا عن الافتراء ضد فتاة بريئة، ولنيكن بمقدوره ذلك، لأن أهل البلد لم يكن لهم من حديث آخر سوى ابن طوماس آغا وابنة الحميماتي آكوب.

(١) – خاطر: كلمة عربية اللفظ والمعنى. (المترجم).

وفي أحد الأيام نادى طوماس آغا ابنه وحكى له الكثير – الكثير من القصص والأمثال وعرض عليه في آخر المطاف السفر إلى اسطنبول قائلاً:

– سأعطيك الكثير من المال فاذهب إلى اسطنبول وتزوج هناك فلا تراك عيناي.

وعارض الابن الاقتراح مصمماً:

– بل سأتزوج هنا.

غضب الحاج طوماس وطفح كيل صبره، فلم يجد النصح والرشاد نفعاً، وإذن يجب استخدام أسلوب القوة والقسر. فأعلن الأب بتصميم واصرار:

– أنت لست ابني، ولست من ورثتي.

– لست بحاجة إلى قرش واحد من مالك،– أجاب الابن وخرج من الدار.

ومذ ذاك اليوم لم يعد آرا إلى البيت.

(١٤)

بعد هذه الحادثة عمت المدينة موجة عارمة من النميمة بحق ليلو. فالذين كانوا يقتاتون من فتات الحاج طوماس آغا شرعوا يلعنون بنت الحميماتي آكوب. كانوا يشتمونها من السطوح والنوافذ والزوايا وفي الشوارع والأزقة. انقضت شهور ستة دون أن تتمكن الفتاة من الذهاب إلى الحمام. فكانت العيون الحاسدة تحدق فيها طوال الطريق وتسمعها بين فينة وأخرى أقذع الشتائم فتذرف الدموع الحارقة.

لقد أثر كل ذلك تأثيراً عميقاً على الفتاة نفسياً وجسدياً. فأخذت تذوي وتذبل من يوم لآخر. وهكذا توسلت آرا قائلة:

– خذني حيثما شئت وخلّصني من هذا الجحيم.

لكن ثقة آرا بنفسه تلاشت تدريجياً، إذ كان يعاني من الإفلاس ويكابد الصعوبات التي لاتحد، فمن ذا الذي يعير التفاتة لابن عاق خارج عن إرادة أهله؟ منذ الأيام الأولى لهروبه من البيت وهو يعيش حيناً عند أقربائه، وحيناً آخر لدى معارفه، وهكذا دواليك حتى تخلى الجميع عنه. وكان جوابهم قاطعاً:

– لاتدخل دارنا إن لم تتخل عن ابنة الحميماتي.

وكان جلياً أن هذا التصرف استمرار للتحدث الذي أعلنه والده.

اضطر آرا للانتقال إلى الخان الوسخ المجاور للسوق. صار يطوف الشوارع بثياب وسخة، وقميص أسود، ولحية طويلة. كان معظم الناس لايردون له سلاماً. وكان آرا يقابل اخوته في الشارع لامبالياً وكأنه لم يعرفهم يوماً. وذات مرة مرّ بأمه فأطرق وتابع سيره، لكن الأم رمت بنفسها في بيت أحد المعارف وقد خنقتها العبرات.

أخيراً، اخبرته الأم باستعدادها لاعطائه مالاً، كي يصطحب فتاته ويذهب إلى بلاد بعيدة، فلا تراهما العيون. أخبرت الأم أخوته أيضاً بهذه الفكرة، فوافقوا عليها. استكان آرا، ولم يواصل عناده السابق، بل وافق قائلاً:

– موافق. لترسل النقود من أجل السفر.

ذات يوم جاء آرا إلى ليلو وأنبأها بالخبر:

– وعدتني أمي بإرسال بعض المال لنذهب معاً إلى اسطنبول.

انتظرت ليلو تنفيذ الوعد المقطوع.

أصبحت الحياة لاتطاق بالنسبة لآكوب. مرت الأيام والأسابيع وهو

لايصعد إلى السطح لتطيير الحمام. اكتفى بأن أوصى زوجته بالصعود صباحاً وفتح باب البرج ونثر الحبوب للحمام. مسكينة هي الحمامة لاذنب لها.

أصبحت الأيام ثقيلة كالرصاص. كانت تثقل كاهله فيشعر بها كحجر الطحن تضغط على عنقه. كان آكوب حبيس الدار يدخن بلا انقطاع متحسراً متألماً.

كانت ليلو تعيش مأساة أيضاً. فقد فَقَدَ أبوها بسببها حيويته ونشاطه وسعادته. كان وضع آرا التعيس من جانب، وحال أبيها وأمها من جانب آخر، يثيران الهم والغم في نفسها، ويوجهان ضربات مميتة لعافيتها وصحتها.

– ليتني لم آت إلى هذا العالم،– تندب ليلو حظها وتبكي.

قرر آكوب عدة مرات بيع حمائمه وهدم البيت والرحيل الى مدينة، لابل إلى بلاد أخرى، كي ينسى الناس أنه كان حميماتياً، لكن ليلو كانت تتوسل إليه قائلة:

– لاتقتلني ياأبي.. كيف نترك آرا ونسافر؟

أما آرا فلم يكون يوافق على الرحيل من المدينة على حساب والد ليلو وماله الزهيد.

– انتظري قليلاً، فأمي قطعت وعداً بذلك.

كلما فكر آكوب ببيع حمامه والابتعاد عن المدينة، ازداد هماً وغماً. كان يرى في منامه أشباحاً مخيفة تصعد إلى السطح فتفتح الباب وتسرق الحمام. فيصيح في نومه: «لن أعطيكم إياها، لاتأخذوها»، ثم يقفز من فراشه كالمسرنم ويصعد حافياً إلى السطح ويفتح باب البرج ويصغي إلى

سجع الحمام، ثم يعود أدراجه. في البداية استبد الخوف والهلع بالأم والبنت معاً، فيظنان أنها أعراض جنون وخافا أن يخرف ويفقد عقله ويرمي بنفسه في الشوارع، لكنهما اعتادا الأمر تدريجياً.

أخيراً قرر آكوب ألا يبيع الحمائم، بل ذبحها والقضاء عليها، إذ لايعقل أن تعيش هاتيك الحمائم وتطير في السماء وتقرقر وتسجع ولاتكون ملكه هو.

ظهر ذات صباح فوق السطح بعد غياب طويل. شاهدته ليلو أثناء الصعود. فكان وجهه مخيفاً مرعباً أكثر مما يبدو عليه حين يسحب السكين ويقذف بنفسه الى الشارع للعراك، وخيل لها أنه شاخ جداً وضعف كثيراً. سارعت إلى أمها ومن غير أن تنبس بكلمة طفقت في البكاء. وبعد دفقة سخية من العبرات المحرقة سألتها الأم:

– لِمَ تبكين؟

كانت ليلو غير قادرة على الكلام فلفظت:

– أبي...

ركضت الأم نحو السطح.

ارتقى آكوب السطح وفتح باب البرج فطارت الحمائم خارجاً وقد انتشر هديلها في الهواء. حط الكثير منها فوق آكوب وكأنها تطفىء شوقها إليه. توقف هنيهة، ثم استدار ونظر باتجاه الشمس الصاعدة من خلف الجبال الزرقاء، أمسك حمامة ما، سحب السكين... انفجر الدم القاني على قميصه الأبيض. أمسك حمامة ثانية، لكن يديه وهنتا فارتمت السكين على الأرض.

في هذه الأثناء كانت زوجته قد وصلت إلى السطح فرأت السكين

المدماة ملقاة على الأرض، وصدر زوجها الملطخ بالدم وعيونه التي تقدح شرراً. لم تلحظ الزوجة الحمامة المرمية على بعد خطوات، فظنت أن زوجها قد نحر صدره بسكين.

وعلا الصراخ فوق السطح. ركضت ليلو إلى الأعلى وأخذت تعانق أباها فينة وأمها فينة أخرى.

لم يدرك المتفرجون في الأسفل ماحدث. ظن البعض أن الحميماتي آكوب قد ضرب زوجته. حين أنزلت ليلو أباها عن السطح رماها المشاهدون بوابل من الشتائم ومضوا في سبيلهم. أما الحميماتي فقد ضم الى صدره المدمى ابنته الفريدة، ثم تمتم والدموع تتساقط من عينيه:

– حمامتي ليلو، كل حمائمي قربان لك.

وشرع ذلك الطفل ذو الشعر الأشيب بالبكاء، فذرف الدمع الغزير الذي يحرق العيون.

كان لكل ذلك انعكاس مأساوي على روح ليلو، وبالتالي على صحتها وعافيتها. فقد امتقع لونها من يوم لآخر. وازرق جفناها وخداها، واشتد نحولها وتسارعت دقات قلبها فكانت تردد دوماً:

– سيطير قلبي من صدري.

فتطمئنها الأم قائلة:

– إنه عنفوان الشباب فلا تقلقي، ولاتشغلي بالك.

وكيف لاتستبد الهواجس بليلو؟ فمعاناة والديها وحبيبها آرا جعلت الدنيا في عيونها كالحة السواد، مليئة بالآلام والمرارة.

(١٥)

ذات ليلة فتشت أم آرا جيوب الحاج طوماس آغا فوجدت مفتاح

الخزانة، التي يخبئ فيها الذهب الخالص، السندات والوثائق التجارية. أشعلت الزوجة عود الثقاب- هلعة فزعة من زوجها الذي قد يستيقظ من نومه فجأة- كي تتمكن من رؤية النقود المرنانة. أخذت منها صفاً مرصوصاً وأسقطته في جيب مريلتها وقفلت الخزانة ثم نزلت الدرك وفتحت مستودع الفحم وطمرت الليرات الذهبية مع المريلة تحت الفحم وعادت إلى غرفة النوم حيث دخلت فراش الزوجية. كان الحاج طوماس آغا مستغرقاً في نومه. ولكي تتأكد من نومه فعلاً نادته قائلة:

- حاج آغا، حاج آغا، أقول ياحاج آغا...

لم يستيقظ الحاج آغا، لكن زوجته لم تنم في تلك الليلة. كانت أول من بكر في النهوض وهاجسها الرئيس هو تغيير مكان الذهبات، لذا تعمدت ألا توقظ زوجها كي يتأخر عن الدكان ويسارع بمجرد استيقاظه إلى السوق. إذ كثيراً مايحدث أن يطرد الحاج طوماس أفراد العائلة من الغرفة لفتح الخزينة الفولاذية للتأكد من محتوياتها أو لتناول وثيقة ما ثم الذهاب إلى السوق.

- لم لم توقظيني يابنت، جعلت تجارتي خراباً*، - نهرها الحاج طوماس وسارع إلى السوق بلا إفطار.

عند العصر طرق آرا باب الحديقة ونادى أمه. قبلته الأم وبكت، ثم انقدته المال:

- لاداعي للعرس والمرس، خذ فتاتك وارحل فوالدك قد ركبه العناد**.

* - خراب: وردت بالعربية لفظاً ومعنى. (المترجم).

** - العناد: بالعربية لفظاً ومعنى أيضاً. (المترجم).

قبّل آرا أمه عدة مرات، وأحسّ بأنفاسها الدافئة الحارة.

بكت الأم لفراق ابنها.

بعد استلامه المال لم يذهب آرا فوراً إلى ليلاه، بل وقف عند سياج البيت مطرقاً حزيناً. كانت ليلو مريضة. وكيف يأخذ فتاته من فراش المرض ليرحل عن المدينة؟!

سار آرا وانحرف باتجاه الشارع الآخر ليقف أمام بوابة حديقة ليلو، التي كان يدخل منها للقاء حبيبته ليلا. ثمة غصن كبير مزهر بشجرة المشمش امتد عبر السياج الى الشارع وقد فاح أريجه. إنه الربيع بسمائه الزرقاء الصافية التي تكاد لاتبدو فيها قزع بيضاء.

نظر آرا إلى عل هازاً رأسه. أدخل يده من الثقب المجاور لباب الحوش ثم فتح الباب وولجَ الحديقة. ازهرت شجرات اللوز والمشمش وهشت التربة وسرى الدفء في شرايينها، واخضوضر العشب على حافتي الساقية. إنه الربيع يسحر الألباب.

ولج آرا بيت ليلو بثيابه الرثة الوسخة. لم تظهر الأم فدس رأسه في المطبخ ولم يرها. اتجه إلى الأعلى. سمعت الأم وقع الأقدام وخشخشة السلم فرمت بنفسها خارج الغرفة.

- أماه،- تمتم ماسكاً يد أم ليلو،- عندي مايكفي من المال لنذهب كلنا إلى اسطنبول.

لم ترد الأم بل ابتسمت ابتسامة كئيبة.

دخلا الغرفة معاً.

كانت ليلو مستلقية أمام النافذة المفتوحة وقد غطت أشعة الشمس الربيع فراشها.

وقف آرا أمام سرير ليلو. رفع قبعته وجلس على الفراش قائلاً:

– ليلاي ياجميلتي، لقد أحضرت المال للتوجه إلى اسطنبول.

أبرقت عينا ليلو الواهنتان.

واستدرك آرا قائلاً:

– كلنا معاً، الأب والأم أيضاً.

ابتسمت الفتاة وانتعشت وتراقص شعاع الشمس الربيعية فوق شفاهها الفاقعة ثم أسرّت قائلة:

– أتعافى فنذهب.

ثم استدارت نحو أمها قائلة:

– أتعافى ياأماه فنسافر كلنا معاً إلى اسطنبول.

وتدحرجت الدموع على وجنتي الأم.

– لقد أحضرت مالاً كثيراً،– أردف آرا وشرع يخرج الليرات من جيبه ويصفها على فراش ليلو، التي سألت:

– أين أبي؟

– ذهب ليبيع حمائمه ويأتي بالطبيب،– قالت الأم ومسحت أنفها بطرف مريلتها.

– سأحضر الطبيب حالاً، – أعلن آرا وأسلم ساقيه للريح.

قابل آرا في الشارع الحاج طوماس آغا، الذي كان يتكئ على عكازه العتيقة عائداً من السوق. تظاهر آرا بأنه لم ير والده. فبعد هروب الابن من البيت لم يتقابل الاثنان في هذه المدينة الصغيرة. ترك منظر الابن– بلباسه الخرق وقميصه وطربوشه الوسخين ولحيته الطويلة– انطباعاً مؤثراً لدى الأب فوصل البيت بشق النفس، لم تكد تحمله قدماه، وشعر بعبء ثقيل

يضغط على صدره وكأن أحداً مايشد الخناق عليه. حينما فتح الخادم الباب، رمى الحاج طوماس آغا بنفسه على الأرض. هرولت الأم والكنات وحملنه إلى غرفته.

– أي رصد[1] أتاك؟ سألت الزوجة عندما فتح الحاج طوماس عينيه.

– ظهر آرا أمامي فدار (قفاي[2]) رأسي ياامرأة.

– إنك عديم الرحمة يارجل.

– اذهبوا، اذهبوا واحفروا قبري فأستلقي فيه وأنال راحتي[3].

كان ثمة طبيبان في البلد أحدهما أرمني والآخر ارناؤوطي (الباني).

سارع آرا إلى «الحكيم[4] الأرناؤوطي». وحينما عاد مع الطبيب وجد آكوب قد أحضر الطبيب الأرمني. توسل الأب إلى الطبيب قائلاً:

– حكيم أفندي، اشفِ حمامتي وسأبيع كل حمائمي وآنقدك ثمنها كاملاً.

قرر الطبيبان معاً (وهما يتكلمان بالفرنسية) أن حالة ليلو ميؤوس منها ولاحاجة لأي دواء أو لأية محاولة للعلاج. ونصحا بترك المريضة مرتاحة حتى تتماثل «للشفاء». فسأل الأب الملتاع:

– حكيم أفندي، ألن تعطيها علاجاً[5]؟

– لا، لاداعي للعلاج، قدموا لها حساء اللحم فقط.

– هل يفيدها مرق الحمام؟

(١) – رصد: تستعمل بالأرمنية بمعنى «قابل»، «واجه» أي «من قابلت؟». (المترجم).

(٢) – قفا: مؤخر العنق. تستعمل بالتركية والأرمنية بمعنى «الرأس». (المترجم).

(٣) – الراحة: بالعربية لفظاً ومعنى. (المترجم).

(٤) – حكيم: استخدمها لفظاً ومعنى بما يعادلها بالعربية أي طبيب. (المترجم).

(٥) – علاج: استخدمها الكاتب لفظاً ومعنى. (المترجم).

- أحسن.

وغادر الطبيبان المكان. نظرت ليلو إلى والديها وإلى آرا وشعرت بالحزن المخيم على رؤوسهم، فقالت مواسية:

- سأتعافى، لاتقلقوا.

وبرقت عيناها بابتسامة باهتة أشبه ببريق آخر شعاع منطفىء.

دنا آكوب ولامس شعر ابنته وكله أمل في أن تتعافى حتماً، لكن دموع الأم كانت تتساقط من على وجنتيها المتصلبتين. تقدم آرا إليها، أمسك بيدها وأطرق صامتاً وفطن آكوب إلى أن الشاب يخجل منه فقال الأب:

- أنتما زوج حمامة بالنسبة لي، هيا قبّلا بعضكما البعض.

خجلت ليلو. رفع آرا رأسه ونظر بحنان إلى آكوب الحميماتي، الذي أمضى حياته وهو يلعب بالسكين ويهدر الدم. وأصر آكوب:

- أقول لكما قبّلا بعضكما بعضاً.

ليلو وآرا صامتان. نهض آكوب وأمسك برأس آرا وقرّبه من ليلو. وتعانق الاثنان وعندها صرخ آكوب:

- واحماماتاه... كان آكوب في قمة السعادة وقد عشش الأمل في حنايا صدره بأن ليلو ستبرىء وستتعافى. التفت الزوج إلى امرأته وقال:

- لاتبكي يازوجتي البائسة. فحمامتي ستتعافى قريباً، دعيني أقبّلك أيضاً. وعانق آكوب زوجته وقبّلها بحرارة ذكرتّه بالأيام والليالي الملاح.

أشرقت ابتسامة على ثغر الأم وكأن الحياة والحيوية تبعثان من جديد.

أمال آكوب رأسه ليشاهد الليرات الذهبية مصفوفة فوق سرير ليلو، فأيقن أن آرا هو الذي أحضرها. تنحى به جانباً وقال:

– خذ مالك وضعه في عبك. أنت مسكين أيضاً. لقد ضمرت وامتقع لونك فأصبحت نحيفاً كالعود، حنانيك ياولدي.

أجاب آرا بحماس:

– أحضرتها لأجل ليلو.

– لدى مال يابني، فطالما أني حي سأتدبر أمر حمامتي.

تدخلت ليلو بصوت ضعيف مهزوز:

– أحضرها كي نذهب إلى اسطنبول.

– تعافي أنتِ ياحمامتي فأضعكم جميعاً على متني وأطير بكم.

– سأشفى.

– آه ياحمامتي البيضاء.

تسلل هواء الربيع النقي من النافذة فملأ الغرفة بعبير الأزهار الفواحة. اقترب آكوب من الخزانة ليتناول السكين وقال:

– سأذبح حمامة من أجل ليلو.

وخرج من الغرفة مسروراً. فقد تبددت الشكوك التي تراكمت بسبب مرض ليلو. لماذا؟ لأنه مامن أحد يتجاسر على القول أن الأب الساذج قد منّى نفسه بالآمال الخداعة.

(١٧)

بدأت ليلو تعاني الضنى بعد المرض الذي أقعدها في الفراش طويلاً. في مطلع الربيع شع بريق من الأمل والحيوية والنشاط في عينيها الفاقعتين، لكن ذلك لم يستمر طويلاً، إذ تراءت أشباح الموت مريعة مرهبة.

وذات صباح وبينما كان الضوء الأزرق مايزال منتشراً فوق السهل المزهو بالأزهار العبقة والأعشاب النضرة، أغمضت ليلو عينيها، كقنديل نضب زيته فشحب ضوء فتيله شيئاً فشيئاً، ثم تلألأ قليلاً لينطفى إلى الأبد.

انقطعت أنفاس ليلو ولم يفهم أحد مارطنت به من كلام.

في ذاك الصباح علا الصراخ والعويل في العلية الصغيرة المشمسة من بيت آكوب.

– لقد طارت حمامتي البيضاء، طارت حمامتي، طارت، – صرخ الأب الذي فقد ابنته الفريدة وهو يضرب على ركبتيه. وأمسك آرا رأس ليلو مغرقاً إياه بالدموع الغزيرة الحارقة. بينما كانت الأم، التي طار صوابها من هول الفجيعة، تصرخ وتندب حظها وتنتف شعر رأسها.

(١٨)

عندما كان المشيعون (وكلهم من الحميماتية) يستعدون لاخراج نعش ليلو، لم يتمالك آرا نفسه، فخر مغمياً عليه وسط الغرفة، بينما أمسكت الأم وسادة ابنتها وارتمت فوق سريرها صارخة مولولة كمن أصابها مس من جنون. أما الأب فقد ارتقى السطح. وحينما شاهدهم يخرجون النعش من الباب إلى الشارع صرخ كالمعتوه:

– انتظروا...

كان حاسر الرأس ممزق الثياب عند الصدر والهواء يعبث بشعره الأشيب.

كان جمهور كبير في الشارع لم ينضم إلى موكب المشيعين القليلي العدد، كانوا جميعاً يراقبون باستغراب ماسيقوم به الحميماتي آكوب. هل سيكش الحمام أيضاً أثناء تشييع جنازة وحيدته؟ لم يتكهن أحد بما سيفعله.

توقف الرجل المفجوع أمام النعش وحدّق كالمجنون طويلاً بابنته ليلو، ركع على الأرض رافعاً يديه إلى السماء، وفي إحداها زوج من الحمام. رفع رأسه نحو السماء وتمتم بشيء ما، ثم وقف واستل سكينه من

حزامه وذبح زوج الحمام فوق النعش. فانسكب الدم على وجه ليلو الشاحب البارد، وصرخ والدموع تترقرق في عينيه:

– ليلو، ياحمامتي البيضاء...

وضع الحمامتين المذبوحتين على جانبي ليلو.

وتحرك موكب الجنازة إلى المقبرة.

عند المساء هبت رياح هوجاء، ورشت السماء الأرض بوابل من الرماد البنفسجي.

سنة ١٩٣٠

* * *

نـظرة أخيرة

تقودني أقدامي إلى المقبرة كي ألقي للمرة الأخيرة نظرة وداع على ضريح أبي.

يا الله! ما أعظم شجرة التوت التي زرعناها فوق رأس القبر.

كم أتمنى التحدث مع أبي! هاهو يقف أمامي بقامته المديدة(إنه كئيب حزين مثل شجرة يتيمة في وادٍ مقفر. ياله من سكون، سكون عميق رهيب ...!

أترقب شجرة التوت. أغوص بنظري حتى الجذور التي اخترقت شعيراتها – لا عدّ و لا حصر لها – جمجمة والدي وأتت على دماغه كاملا. و هاهي الألياف العطشى تتغلغل من الفم و العينين لتنقض على جوف الجمجمة.

حبة التوت هذه .. تقطر حلاوة و طلاوة، وهي قد استمدّت رحيقها من جمجمة والدي وقلبه...

شجرة التوت نفسها هي أبي.. لقد تفرّعت و اخضوضرت. وهاهو النسيم يغنّي في أوراق الشجرة. ليس والدي هو الذي يسمع الأغنية، بل ينشد من خلال أوراقه. ظلال التوتة تلقني.. إنها ذراعا أبي تعانقاني و تسموان بي إلى الأعالي.

إنك تلفني يا أبتاه بذراعيك و النسيم يغني...

لقد سمعت أغنية الريح، سمعتها في قلبي حينما حلمت بك في اشتياق وحنين. إنها يا أبتاه أغنية الدم: الدم الذي ينبض في عروقي. تلك الأغنية التي تنشدها الشمس، تغنيها أدقّ عشبة، يشدو بها شعاع القمر الفضي ناشرا نوره فوق أزاهير و ورود حديقتنا الغنّاء.

يا لها من أغنية أبدية، ورعشة سرمدية. أغنية تقطر من كؤوس البنفسجة السماوية، تتقطّ في التربة الذهبية لتسمو مجددا برعم زهرة و أوراقا. أنشودة

تسيل مع طوفان الربيع على ضفاف الأنهر . أغنية تمتد على سطح البحار اللامحدودة مثل الهدوء الأزرق.

أقبّل الضريح، أعانق جذع التوتة وكأني أعانق أبي.

تترنم الريح و تحفّ أوراق التوتة حفيفا متناغما.

يا لها من أغنية أبدية، حياة أبدية، موت أبدي، حزن لا نهاية له، وفرح لا حدّ له.

* * *

تبدو المدينة للمرة الأخيرة مثل شجرة من الذهب في أحضانْ الراسيات الزرق.

آن وقت الرحيل...

تقعقع العربة على الطريق الروماني القديم باتجاه البحر، نحو بيزنطة روما.

إنه الصبح! سنابك الخيل تقدح شررا.

أنه الليل: الخيل تعلف. لقد تعبنا من رصد النجوم. يغالبنا النعاس، و وتر النوم يؤرجح تعبنا.

رأيت البحر ذات صباح. يا الله أين الفاصل ما بين البحر و السماء ؟! لقد تعانقت التخوم والحدود.

يا للبحر !! أتذكر هنا باعتزاز كيف كان أبي يناديني بقوله :" يا بني، يا أزرق العينين كزرقة البحر ".

ليلتان وبعدها أكون في اسطنبول: مدينة أحلامي.

أود لو تكون اسطنبول كما تصورتها في خيالاتي. ربما تكون أجمل من الحلم؟ ..لا، لا أريدها أكثر جمالا من الحلم. إني أصبو إلى أحلامي.

* * *

و بَعْـــــدُ

في هاتيك البلاد العريقة في القدم والحضارة والمسماة أرمينية، تتضرّج الشمس عبر الفاكهة والثمار، ويتنفس التراب عبر الأعشاب، وتترقرق مياه الجداول الباردة، ويتنفس الصبح العظيم، وينتشر الغسق بأجنحة نارية، ويسبح القمر الفضي في السماء، ويتزيّن الليل بالنجوم المرصعة المتلألئة، و تتسامق الأشجار نحو السماء، وتقشّعر الأزهار نشوة و غبطة.

كلي شوق و حنين الآن لأميل برأسي التعب على مرمر السماء الأزرق؛ فأطرب بتلك الأغنية التي تغمر الأشجار و الجداول و النجوم .

سنة ١٩٣٠

* * *

الفهرس

٣٠٠٠ ط١/٣/١٩٩٩

هذه الرواية ملحمة شعب حياته كلها سفر ملحمي واحد متعدد الحلقات أثبت خلالها بصموده وأضاحي ابنائه أنه حي، جدير بالحياة، يمكن لا بل يجب أن يقدم كنموذج للشعوب التي تكافح اليوم وغداً من أجل حريتها واستقلالها.

ملحمة، أجل، لها كل سمات الملاحم: تعدد الشخصيات (الوالد والوالدة، الجد والجدة، الأخوة والأخوات، العمة، الخادم...) و(النماذج البشرية الطريفة، الحداد، المومس، المجنون، الدجال...) والصراعات مع الأتراك، مع الشعوب المجاورة، مع الأثرياء... الصراعات على المرأة).

اضف حياة الشعب الأرمني (نقائده، قيمه.. علاقة المرأة بالرجل، علاقة الأرمن ببعضهم ومع الشعوب الأخرى).

ولكن أيمكن لرواية واحدة أن تستوعب شعباً استوعب الحياة...؟!

الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٩

سعر النسخة داخل القطر

١٧٥ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل

٣٥٠ ل.س